بسم الله الرحمن الرحيم



جامعة النيلين

كلية الدراسات العليا

كلية الآداب

قسم التاريخ

الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي (40 – 132 هـ)–(66 – 750م)

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي

إعداد الباحثة:	**إشراف :**
جليلة عبدالله حسين فضل الكريم	البروفسيور /سيف الإسلام بدوي بشير

1442هـ-2021م


بسم الله الرحمن الرحيم

الآيــــــة

قـــال اللّه تعـالي :

{وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }

صدق الله العظيم

سورة التوبة الآية : (105)

إهـــــــداء

أولاً لك الحمد ربي على كثير فضلك وجميل عطائك وجودك لك الحمد ربي ومهما حمدنا فلن نستوفي حمدك.

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده،

بسم الله الرحمن الرحيم :(وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) .

إلى الشمعة التي أنارت دربي والتي بحنانها ارتويت وبنورها اهتديت وببصرها اقتديت ولحقها ما وفيت إلى من يشتهي اللسان نطقها وترفرف العين من وحشتها وتخشع الأحاسيس لذكرها .

إلى أمي الغالية

إلى درعي الذي به أحتميت وفي الحياة به اقتديت الذي سعى جاهداً إلى تربيتي وتعلمي وتوجيهي والوقوف إلى جانبي ، وصدر أماني وكبريائي وكرامتي

إلى أبي الغالي

إلى منبع الفرح والسرور إخواني وأخواتي إلى من شاركني درب الدراسة والبحث إلى من لم يدركهم قلمي أقول لهم بعدتم ولم يبعد القلب حبكم وأنتم في الفؤاد حضور .

إلى قسم التاريخ جامعة النيلين

إلى كل من علمني حرفاً ويدعوا إلى صلاح العباد والبلاد

إلى كل هؤلاء أهدي ثمرة جهدي

الباحثة

شكر وعرفان

قال الله تعالى : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) سورة البقرة الآية 186.

أسال الله العلي القدير دوام النعم فمن نعمته جل وعلا أن أمدني بالصبر والقدرة على إتمام هذا البحث وبالجهد والصبر ينال المرء ما يبتغيه ولكل مجتهد نصيب ، وهذه المثابرة لابد وأن يكون وراء كل هذا الإرشاد والتوجيه والإمداد والمساعدة ، وكذلك الترقب والأمل ، فإلى أستاذي المشرف الفاضل

البروفيسور / سيف الإسلام بدوي شكري وتقديريعلى توجيهاته القيمة وإرشاداته الهامة طوال فترة إعداد هذا البحث جزاه الله خير الجزاء .

إلى كل من كانت له يد المساعدة لهم مني جميعاً شكري وتقديري عرفاناً وامتنانا بما قدموه لي وجزاهم الله عني خير الجزاء .

المستخلص

جاءت هذه الرسالة لتسليط الضوء على الحياة الاقتصادية التي كانت سائدة في بلاد الشام في العصر الأموي ، وتناولتالرسالة الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي، وتمثلت مشكلة الدراسة حول الحياة الاقتصادية بدولة الأمويين ومحاولة الكشف عن العوامل التي أثرت في بنية اقتصاد الدولة الأموية في التجارة والصناعة والنظم الماليةتمثلت أهمية الدراسة في الحياة الاقتصادية العصر الأموي بصفة عامة من الدراسات الغامضة في التاريخ الإسلامي وهي في حاجة إلى جهد كبير للتعمق وراء جذورها، خصوصا أن بلاد الشام بمدنها الساحلية من ناحية وسهولها الداخلية من ناحية أخرى، وهدفت الدراسة لتوضيح كثير من جوانب الحياة الاقتصادية ومعرفة الضرائب ونظمها ووسائل الإنتاج، واستخدمت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي لملاءمته لأغراض الدراسة ، وتوصلت الدراسة إلى جملة من النتائج أهمها: هنالك بعض العوامل كان لها اثر كبير في الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي، وموقع بلاد الشام وتعدد مناخها كان له اثر كبير في نجاح المحاصيل الزراعية، وأوصت الدراسة بعدد من التوصيات أهمها: ضرورة إجراء مزيد من الدراسات المستقبلية التي تكشف لنا الجوانب التي ما زالت مغمورة، وضرورة أجراء مسح ميداني وحصر البحوث والرسائل الجامعية التي أنجزت في المجال بهدف تقوميها واستنباط موضوعات الدراسات مستقبلية.

Abstract

The to through with the economic life in the Levant in the Umayyad period, and the problem of the study was about the economic life of the Umayyad state and an attempt to reveal the factors that affected the structure of the Umayyad state's economy in trade, industry and financial systems. The importance of the study in economic life was the Umayyad era in general from obscure studies in history It is in need of a great effort to go deep into its roots, especially since the Levant countries have their coastal cities on the one hand and their internal plains on the other hand, and the study aimed to clarify many aspects of economic life and knowledge of taxes and their systems and means of production, as The study served the descriptive analytical approach to its suitability for the purposes of the study, and the study reached a number of results, the most important of which are: there are some factors that had a significant impact on the economic life of the Levant in the Umayyad period, and the Levant's location and the multiplicity of its climate had a great impact on the success of agricultural crops, and the study recommended With a number of recommendations, the most important of which are: the necessity of conducting more future studies that reveal to us the aspects that are still submerged, and the need to conduct a field survey and limit research and university theses that have been completed in the field with a view to undertaking them and devising topics for future studies.

الفهرست

رقم الصفحة	الموضوع
أ	آية
ب	إهداء
ج	شكر وتقدير
د	المستخلص
هـ	Abstract
و	الفهرست
	المقدمة
10−1	المقدمة
	تمهيد
15−11	تمهيد
	الفصل الأول **العوامل المؤثرة في الحياة الاقتصادية في بلاد الشام**
23-16	**المبحث الأول : العوامل الجغرافية**
29-24	**المبحث الثاني : العوامل الداخلية**
33-30	**المبحث الثالث: العوامل الخارجية**
39-34	**المبحث الرابع: الصراع بين الدولة الأموية والبيزنطية**
	الفصل الثاني **الزراعة والنشاط الرعوي**
45-40	**المبحث الأول: الاقطاعات والملكيات الزراعية**
57-46	**المبحث الثاني: أصناف الأراضي**
60-58	**المبحث الثالث: عيد النيروز وارتباطه بجباية الخراج**
73-61	**المبحث الرابع تنظيم الريأنواع المحاصيل**
	الفصل الثالث **أهم الصناعات والحرف والثروة المعدنية**
90-74	**المبحث الأول: أهم الصناعات والحرف والثروة المعدنية**
97-91	**المبحث الثاني : الصناعات الأخرى مثلاً دباغة الجلود**

المبحث الثالث: الصناعات الأخرى	105-98
المبحث الرابع: أوضاع الصناع والحرفيين	110-106
الفصل الرابع النشاط التجاري	
المبحث الأول: التجارة الداخلية	124-111
المبحث الثاني: التجارة الخارجية	134-125
المبحث الثالث : تجارة الحرير وتأثيرها على مسار التجارة العالمية لبلاد الشام	139-135
الفصل الخامس النظم المالية	
المبحث الأول: الموارد المالية	154-140
المبحث الثاني: المصروفات	166-155
المبحث الثالث : تطور العملة	174-167
المبحث الرابع: إصلاحات عمر بن عبد العزيز المالية	202-175
الخاتمة	
الخاتمة	205-203
النتائج	207-206
التوصيات	208
قائمة المصادر والمراجع	219-209
الملاحق	221-220

المــقدمــة

المقدمة :

إن دراسة التاريخ الاقتصادي لا غنى عنها لتوضيح كثير من جوانب الحياة الإسلامية العامة ومعرفة الضرائب ونظمها ووسائل الإنتاج المختلفة من صناعة وزراعة وتجارة، وتفسير مظاهر الرخاء التي سادة مهما في العصر الأموي، وكانت من وراء القدرات الهائلة التي قام بها الخلفاء الأمويون أمثال معاوية وعبدالملك والوليد بن عبدالملك وقد اتجهت لدراسة الحياة الاقتصادية في بلاد الشام قلب النظام الأموي، ومركز نفوذه، وقد كانت النواحي الاقتصادية في تلك البلاد تلعب دورا مهما وتؤثر في المستوى الاجتماعي الذي يعيشه الناس.

عند انتقال مقر الخلافة الإسلامية إلى دمشق, أصبحت العائدات المالية للولايات التي كانت قد فتحت في عهد الخلفاء الراشدين, أو التي فتحت فيما بعد في العصر الأموي تعود بالنفع على الدولة الأموية , وبدأت الدولة تجني ثمرات هذا النفع مستعينة في تحقيق ذلك برجال من الروم والفرس في تسيير أمور الدولة المالية والإدارية , فانتعشت بذلك المجالات الزراعية والصناعية والتجارة وبالتالي انتعشت بعائداتها دمشق مركز الخلافة الإسلامية وكذلك عدد من المدن والمرافق.

إلا أن الدولة الأموية على الرغم مما تحقق لها من امتداد واتساع النفوذ الإسلامي والازدهار الاقتصادي, ما لبثت أن دبت فيها عوامل التدهور مما أدى إلى سقوطها.

فهنالك عدد كبير من رسائل الماجستير والدكتوراه التي منحت من الجامعات المختلفة وتتناول العديد من المجالات التاريخية والحضارية في العصر الأموي وعلى الرغم من أن بعض هذه الرسائل الجامعية تناولت جانباً أو أخر من جوانب الحياة الاقتصادية في الشام في العصر الأموي إلا إنها لم توفي الموضوع حقه .

في إعداد رسالتي هذه إشارة إلى بعض هذه الرسائل التي تمس جانباً أو أخر من جوانب الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي.

أولاً: مشكلة البحث :

تتمحور مشكلة هذه الدراسة حول الحياة الاقتصادية بدولة الأمويين ومحاولة الكشف عن العوامل التي أثرت في بنية اقتصاد الدولة الأموية في التجارة والصناعة والنظم المالية، وتمثلت مشكلة البحث في السؤال الجوهري ما هو إسهام كل من التجارة والصناعة والزراعة في تطور الدولة الأموية؟

ثانياً: أسئلة البحث :

وتتفرع من السؤال الرئيسي عدة أسئلة هي:

1. ما هي طبيعة بلاد الشام؟
2. ما هو أثر التجارة والصناعة في تطور الحياة الاقتصادية في بلاد الشام؟
3. ما هو دور الخلفاء في تطور الاقتصاد في الدولة في الأموية؟

ثالثاً: أهمية الدراسة :

- دراسة الحياة الاقتصادية في العصر الأموي بصفة عامة من الدراسات الغامضة في التاريخ الإسلامي وهي في حاجة إلى جهد كبير للتعمق وراء جذورها، خصوصا أن بلاد الشام بمدنها الساحلية من ناحية وسهولها الداخلية من ناحية أخرى.
- فتحت أمام المسلمين مصادر جديدة الثروةواستغلت خير استقلال .
- لهذا كله وقع اختياري على موضوع الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي.

رابعاً: أهداف البحث :

يهدف البحث لتوضيح كثير من جوانب الحياة الاقتصادية ومعرفة الضرائب ونظمها ووسائل الإنتاج .

خامساً: منهج البحث :

المنهج التاريخي التحليلي الوصفي .

سادساً: حدود البحث :

الحدود الزمانية: (40- 132هـ ، 661-750م)

الحدود الموضوعية: بلاد الشام (الحياة الاقتصادية في العصر الأموي).

سابعاً: أسباب اختيار الموضوع :

- توضيح كثير من جوانب الحياة الإسلامية ومعرفة الضرائب ونظمها ووسائل الإنتاج من زراعة وصيانة .
- توضيح مظاهر الرخاء التي سادت عصرا مهما مثل العصر الأموي .

ثامناً: صعوبات الدراسة :

واجهت الباحثة عدداً من الصعوبات التي تثنيه من مواصلة بحثه هذا منها:

- شح وندرة المعلومات الاقتصادية وعدم وجود دراسات كافية ومتخصصة في الجوانب الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي التي يمكن الاستفادة منها.

تاسعاً: الدراسات السابقة:

حظي تاريخ بلاد الشام في العصر الأموي باهتمام كبير من الباحثين والدارسين الذين قدموا العديد من الدراسات والرسائل الجامعية الرائدة واهتمت تلك الدراسات:

1/ دراسة تركي حسون: النظم الإدارية والاقتصادية في عهد عبد الملك بن مروان – جامعة النيلين كلية الدراسات العليا– رسالة دكتورة غير منشورة استفاد البحث مما جاء في هذه الرسالة من الفصل الرابع النقود الإسلامية هنالك بعض الاختلاف تناولت هذه الدراسة النظم الإدارية والاقتصادية في عهد عبد الملك أما البحث قد تناول الناحية الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي كله.

2/ **دراسة سمية عبد الماجد بشير** : مظاهر الحياة الاجتماعية والعلمية في العراق أبان الدولة الأموية 41هـ – 132هـ (661م 0750) ، جامعة ام درمان الإسلامية ، كلية الدراسات العليا ، 2010م ، رسالة دكتوراه غير منشورة وقد استفاد البحث من مما جاء في هذه الرسالة من الفصل الأول الحياة الاجتماعية والاقتصادية في بلاد الشام .

3/ **دراسة حسن صالح الزين** : النظم الإدارية والاقتصادية (المالية) للدولة الإسلامية منذ قيامها وحتى سقوط الدولة الأموية .(1هـ/ 132هـ) (622–750م)، جامعة النيلين ، كلية الدراسات العليا ، 2009م ، رسالة دكتوراه غير منشورة وقد استفاد البحث من مما جاء في هذه الرسالة من الفصل الرابع النظم المالية للدولة الإسلامية في العهد الأموي ، وهنالك بعض الاختلاف تناولت هذه الرسالة الإدارية والاقتصادية للدولة الإسلامية منذ قيامها حتى سقوط الدولة الأموية،أما البحث قد تناولت النظم الإدارية الناحية الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي فقط.

4/ **دراسة عبد الحكيم حسن إبراهيم:** الأوضاع الإدارية والسياسية والاقتصادية في المدينة المنورة في العصر الأموي ،(41–132هـ)(661–749م) ، جامعة النيلين ، كلية الدراسات

العليا 1423هـ – 2006م ، رسالة دكتوراه غير منشورة استفاد البحث مما جاء في هذا الرسالة من الجانب الاقتصادي فقط هنالك بعض الاختلاف تناولت هذه الدراسة الأوضاع الإدارية والسياسية والاقتصادية أما البحث قد تناول الناحية الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي فقط.

عاشراً: المصادر والمراجع الهامة :

رجعت في هذه الدراسة عن الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي إلى العديد من مصادر التاريخ الإسلامي وفضلاً عن كثير من المراجع العربية ، وكذلك البحوث التي تتعلق بالعصر الأموي خاصة.

ولا يتسع المجال في هذه الدراسة النقدية للتعريف بكل ما رجعت إليه من مصادر ومراجع وبحوث ومن ثم فإنني أكتفي في هذا المجال بإبراز أهمها :

أولاً: المصادر الخطية:

1. الأصفهاني، عماد الدين أبو حامد بن محمد بن حامد، البستان في تواريخ أهل الزمان، وهو مخطوط شامل لأخبار الدولة الأموية وما بها من أحداث وقد استخلصت منه ما يفيدني في البحث.

ثانياً: المصادر المطبوعة:

ومن أهم هذه المصادر التاريخية التي رجعت إليها في هذه الدراسة ما يلي:

1. أبو يوسف : كتاب الخراج

ولهذا الكتاب أهمية كبرى في البحث استفدت منه في معرفة قضايا الأرض والخراج في الدولة الإسلامية ، وما قام به عمر بن الخطاب من منع توزيع أرض السواد ، وما تلاها من أرض بعد فتح الشام والعراق ومصر، وعملية تنظيم الخراج والجزية والعشور ، والعطاء للمسلمين وكان لهذه المعلومات أدلة واستنادات فقهية وأحاديث الرسول (ص).

2. أبو عبيد : كتاب الأموال:

ولا يقل هذا المصدر أهمية عن المصدر السابق من حيث الاستفادة في الأمور المالية وقضاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خراج الأعطيات ، وكذلك في أمور الفيء والعشور استند إليه من أحاديث رسول الله (ص) وكذلك آراء الفقهاء والعلماء ، فيما يخص بنواحي المال في الدولة الإسلامية.

3. الماوردي : الأحكام السلطانية:

وهو من المصادر الهامة التي ناقشت المسائل المالية مثل الديوان وتقرير العطاء ، وأمور الخراج والجزية ، فقد ناقش هذا المصدر هذه النواحي من الناحية الفقهية مما ساعدني في تثبيت المعلومات .

4. إبن قيم الجوزية : شرح الشروط العمرانية

وتعود أهمية هذا المصدر إلى الأجزاء التي اتخذها عمر بن الخطاب تجاه أهل الذمة ، وطرق معاملتهم بما تقتضيه الشريعة الإسلامية ، والشروط والواجبات التي تقرر ما لهم وما

عليهم، وإلزام عمال الولايات بإتباعها، وعقد مقارنة بين النصوص التي وردت في عهده، والتي وردت في عهد عمر بن عبد العزيز من الشروط التي ألزم بها أهل الذمة.

5. الطبري : تاريخ الرسل والملوك:

وهذا المصدر له أهمية في أحداث الفتوحات الإسلامية وفيما يخص بسياسة الولاة في الولايات الإسلامية من النواحي المالية والإدارية .

6. البلاذري : فتوح البلدان:

وكان لهذا المصدر أهمية خاصة في فتوح الشام إضافة إلى كون هذا المصدر بتسم بالموضوعية في الحديث عن فتوح البلدان الإسلامية عامة، كما أفرد فصولاً خاصة كانت من صميم موضوع البحث في النواحي المالية ومنها: أرض السواد ، تقرير العطاء ، القراطيس ونقل الديوان إلى اللغة العربية ، النقود ومن ثم كان لهذا المصدر أهمية كبيرة بالنسبة لهذه النواحي المالية.

7. ابن عساكر : تاريخ دمشق الكبير:

ولهذا الكتاب فائدة كبيرة وخاصة في العديد من المواضيع الاقتصادية التي تختص ببلاد الشام من النواحي المالية والاجتماعية والاقتصادية أو منها أوضاع أهل الذمة ، كما يشمل هذا المصدر على معلومات هامة في عهد الخلافة الأموية عن توزيع أرض الصوافي والأرض الخراجية وعن الإقطاعات الممنوحة إلى الخاصة ، ودور عمر بن العزيز في تصحيح هذه الأوضاع ، كذلك أورد عدد الكنائس التي دخلت ضمن شروط الصلح وأسماؤها.

8. ياقوت الحموي : معجم البلدان :

وقد استفدت من هذا المصدر في تحديد شعبة المدن لإقليم بلاد الشام ، وبعض الأخبار الهامة عن هذه المدن .

9. ابن كثير : البداية والنهاية

وقد استفدت من هذا المصدر في ترجمة حياة الخلفاء الراشدين والأمويين وأعمال كل خليفة إلى جانب الحديث عن الفتوحات الإسلامية وعائداتها من الفيء والغنائم على الدولة الإسلامية ثم الأموية.

ثالثاً: المراجع العربية والمعربة:

أما عن المراجع العربية والمعربة التي تحدثت عن تاريخ بلاد الشام ، والتي استفدت فيهامن المعلومات الخاصة بالجانب الاقتصادي للدولة الأموية فأهمها:

1. **عصام الدين عبد الرؤوف : الحواضر الإسلامية الكبرى:**

فقد اهتم فيما تناوله من دراسة للحواضر الإسلامية الكبرى بدراسة مدينة دمشق كحاضرة للخلافة الأموية.

وعلى الرغم من استفادتي مما أورده من معلومات إلا أنه لم يتطرق إلى دراسة الأحداث التي يتطرق إلى دراسة الأحداث التي مرت بها بلاد الشام، التأثيرات الحضارية التي تعرضت لها.

2. بثينة عاقل : تاريخ خلافة بني أمية :

اهتم الباحث بالجانب الأول من موضوعه بالأحداث السياسية والتيارات القبلية التي أثرت على الدولة الأموية وذلك إلى عهد عبد الملك بن مروان.

ثم الجانب الآخر من الاهتمامات الخاصة بتعريب الدواوين وفتوحات الوليد بن عبد الملك ثم إصلاحات عمر بن العزيز وما تلاها من سياسة يزيد بن عبد الملك والفتن التي ظهرت في عهد أخيه هشام ، كما بين ذلك أحول الدولة الأموية بعد عهد هشام بن عبد الملك وما واجهته الدولة من أحداث وفتن أدت في النهاية إلى سقوطها.

3. محمد كرد علي:

وله مجموعة قيمة من الكتب التي رجعت إليها في جميع المجالات الاقتصادية والاجتماعية ومنها ما يعتبر موسوعة من بلاد الشام أو الحضارة العربية بشكل عام ويأتي في مقدمة هذه الكتب كتابه عن :

أ/ **خطط الشام : يعتبر موسوعة شاملة لتاريخ بلاد الشام وجغرافيتها.**

4. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية

وكان لهذا المرجع أهمية خاصة عن الفتوحات الإسلامية لبلاد الشام والفتوحات الإسلامية في عهد الدولة الأموية وكذلك النظم المالية والإدارية والحياة الاجتماعية.

5. إبراهيم أحمد العدوي: الأمويون والبيزنطيون :

ولهذا الموضوع أهمية في دراسة أحوال الشام على عهد البيزنطيين واعتماد الدولة البيزنطية على القبائل العربية في حماية حدودها ضد الغزوات والحروب الفارسية.

6. **نعيم فرج** : أضواء على الصناعة والتجارة في بلاد الشام في العهد البيزنطي ومن حملة الإسكندر المقدونيعلى الشرق.

الحادي عشر: هيكل البحث:

يتكون البحث من المقدمة وتمهيد وخمسة فصول وشمل أيضاً خاتمة تحتوي على النتائج والتوصيات.

تناول الفصل الأولبعنوان العوامل المؤثرة في الحياة الاقتصادية في بلاد الشام وفيه أربعة مباحث تناول المبحث الأول العوامل الجغرافية ، والمبحث الثاني العوامل الداخلية، والمبحث الثالث العوامل الخارجية، والمبحث الرابع الصراع بين الدولة الأموية والبيزنطية، فيما تطرق الفصل الثاني إلى الزراعة والنشاط الرعوي وفيه أربعة مباحث تناول المبحث الأول الاقطاعات والملكيات الزراعية، والمبحث الثاني أصناف الأرض، المبحث الثالث:عيد النيروز وارتباطه بجباية الخراج، والمبحث الرابع تنظيم، الريأنواع المحاصيل. أما الفصل الثالث فهو عن أهم الصناعات والحرف والثروة المعدنية وفيه أربعة مباحث تناول المبحث الأولالحرف والصناعات في بلاد الشام في العصر الأموي قبل الفتح الإسلامي ، والمبحث الثاني أهم الصناعات والحرف والثروة المعدنية، والمبحث الثالث الصناعات الأخرى مثلاً دباغة الجلود، المبحث الرابعأوضاع الصناع والحرفيين، فيما تطرق الفصل الرابع عن النشاط التجاري فيه ثلاثة تناول المبحث الأول التجارة الداخلية، المبحث الثاني التجارة الخارجية، المبحث الثالث تجارة الحرير وتأثيرها على مسار التجارة العالمية لبلاد الشام.

فيما شمل الفصل الخامس النظم المالية وفيه أربعة مباحث المبحث الأول الموارد المالية ، والمبحث الثاني المصروفات، والمبحث الثالث: تطور العملة،المبحث الرابع إصلاحات عمر بن عبد العزيز المالية.

وشمل البحث على خاتمة تضمنت النتائج والتوصيات ، والمصادر ،الملاحق.

تمـــهـيد

تمهيد:

بسم اله الرحمن الرحيم ، قال تعالي: (الّم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ)[1].

بعد فترة من الصراع الطويل بين الفرس والروم انتصر الفرس الوثنيون على الروم المسيحيين ، ولكن الله وعد المسلمين بنصر الروم على الفرس وكان وعد الله حقا.

على الرغم من أن بلاد الشام قد عرفت منذ أمد بعيد بأنها تمثل مركزاً حضارياً قديماً, إلا أن هذه البلاد قد تعرضت قبل الفتح الإسلامي لعدة كوارث منها الطبيعية ومنها السياسية والاقتصادية ، فمن الكوارث الطبيعية التي حلت ببلاد الشام وباء الطاعون التي حدث في عهد الإمبراطور جستنيان (سنة 524م) والذي كان من جلائه تدهور الحالة الاقتصادية والاجتماعية خاصة في الريف بين الفلاحين الذين تفشى بينهم المرض, وأصبحت المنازل والطرقات مليئة بجثث الموتى، وفي الوقت الذي كانت فيه المحاصيل الزراعية تحتاج إلى من يقوم بحصادها إلا أنه لم تكن هنالك على قيد الحياة أيد عاملة كافية ليمكنهم حصد ودرس القمح وجمع العنب وعصره وقطف الفاكهة كما عانت المدن من هذا الوباء مثال ذلك ما نال مدينة القدس ، وقد تسبب هذا الوباء في انكماش عدد السكان في بلاد الشام مما كان له أبلغ الأثر على الأوضاع الاقتصادية فيها.[2]

ثم عاد الوباء وظهر في بلاد الشام مرة ثانية حوالي سنة (557-558م), متنقلاً من القسطنطينية عبر البحر إلى سوريا وكان له تأثير سيء في مدينة (عنطيوش السورية، فقد تسبب في وفاة الكثير من أبنائها ومنها أمتد إلى شمال سورية متسبباً في حدوث خسائر اقتصادية واجتماعية بنفس المستوى الذي سببه الوباء منذ ظهوره السابق سنة (542هـ) استمر في منطقة بلاد الشام بصورة منتظمة إلى الفتح الإسلامي لها سنة 630م).

1- سورة الروم, أية رقم (1).

2- ياقوت الحموي, معجم البلدان , ج 3 , طبعة دار صادر - بيروت , 1395هـ, 1970م , ص 150.

وتشير المصادر العربية إلى طاعون عمواس.[3] حين خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فبلغه أن الطاعون قد كثر خرج[4]، كان عمر بن الخطاب أشار للصحابة من المهاجرين والأنصار الذين كانوا معه، فاختلفوا فيما بينهم، فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال: (إني في هذا علماً ، سمعت رسول الله صل الله عليه وسلم يقول: إذا كان بأرض (أي الطاعون) وأنتم بها ، فلا تخرجوا فراراً منه وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه).[5]

ولعلنا بهذه البداية نوضح أن بلاد الشام قد تعرضت للوباء عدة مرات قبل الفتح الإسلامي مما تسبب في تدهور أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية، هذا فضلاً مما عانته من تصرفات أباطرة الدولة البيزنطية ، والتي يمكننا أن نختصرها في أمور رئيسية هي:

1. الاضطهاد الديني.
2. الجور في جمع الضرائب والمكوس.

1/ الاضطهاد الديني:

كانت بلاد الشام تنعم بمركز الصدارة في العالم المسيحي ببيت لحم من أرض فلسطين بالشام.[6]وكانت الشام قبل ظهور الإسلام خاضعة للدولة البيزنطية التي تدينب المسيحية، وكانت هذه الدولة منذ أن شيد قسطنطين الأكبر (324 – 337م) عاصمتها القسطنطينية ذات وجهين أحدهما روماني بتقاليده صليبي بثقافته.[7]

وتعتبر البداية الحقيقية للعصر البيزنطي منذ اعتراف الإمبراطورية الرومانية بالديانة المسيحية كديانة رسمية للدولة، انتقال العاصمة الرومانية إلى الشرق الصليبي في

3- عمواس : ضيعة جليلة على ستة أميال من الرملة على طريق بيت المقدس، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، المصادر السابق ، ج2، ص 211.

4- اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، دار صادر ، بيروت ، 1290هـ – 1970م ، ص 149.

5- ابن قيم الجوزية زاد المعاد في هدي خير العباد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط3 ، 1406هـ – 1989م ج4 ، ص 45.

6- صبحي الصالح ، النظم الإسلامية (نشأتها وتطورها ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط5 ، 1980م ، ص 19 – 20.

7- إبراهيم العدوي ، موقف الإمبراطورية البيزنطية من الفتح الإسلامي لبلاد الشام ، المؤتمر الرابع بلاد الشام ، الجامعة الأردنية، عمان ، 1404هـ – 1983م ، ص 4.

القسطنطينية ، وكان لانتقال العاصمة أثره الكبير في تمركز النقل الاقتصادي في الولايات الشرقية من الإمبراطورية وبخاصة مصر والشام.(8)

كان الإمبراطور جنستيان شديد الاضطهاد لليهود والوثنيين والهراطقة بشكل عام، كما منع الوثنيين من الأشتغال بالتدريس في أي مدرسة من مدارس الإمبراطورية.(9)

وقد خضعت بلاد الشام لعدة تقسيمات وتسميات إدارية خلال الحكم الروماني ثم البيزنطي.(10) وكانت القضايا الدينية في بلاد الشام نشطة تعددت فيها المذاهب والأديان ودخلت مدينة أنطاكية – ببلاد الشام – حلبة التنافس المبكر بين مركز المسيحية الأولى وهي روما والإسكندرية.

2/ الجور في جمع الضرائب والمكوس :

عرف الخراج على أنه ما يوضع من الضرائب على الأرض أو محصولاتها، وهو أقدم أنواع الضرائب والأصل في وضعه أن الناس كانوا يعتبرون الأرض ملكاً للسلطان أو الملك، وهكذا كان نشأة الأرض في كل الممالك القديمة، فالأرض للحاكم، وللفلاحين أن يقوموا بزراعتها نظير حصة يدفعونها له وهي الخراج. وكان رؤساء الجرمان القدماء يؤكدون ملكيتهم للأرض كان الرومان يرفضون الضرائب على أرض مملكتهم في جملتها مصر والشام.(11)

8– نعيم فرح ، أضواء على الصناعة في العصر البيزنطي في مدن بلاد الشام ودورها في التجارة العالمية في العصر البيزنطي ، الجامعة الأردنية . عمان ، 1404هـ – 1983م ، ص 5.

9– عمر كمال توفيق ، الروم وصلاتهم بالعرب ، دار المكشوف ، ج1 ، ص 79.

10– لطفي عبد الوهاب يحيى ، بعض المصادر البيزنطية لتاريخ سورية في العصر البيزنطي ، الجامعة الأردنية ، عمان ، 1404هـ – 1983م ، ص 1.

11– أحمد شلبي ، السياسة والاقتصاد في التفكير الإسلامي ، موسوعة النظم والحضارة الإسلامية ، ط3، مكتبة النهضة ، المصرية ، القاهرة ، 1974م ص 228 – 229.

إن الرومان ضربوا الجزية على أهالي بلاد الشام ، على الذكور عن سن الرابعة عشر ، وعلى الإناث سن الثانية عشر إلى سن الخمس وستين من عمرهم جميعاً وفرضوا عليهم خراجاً جبوه عن الأملاك يبلغ في المائة واحد.

هو أحد أيضاً ضرائب المكوس الواردات والصادرات من السلع ، إلا أن هذه الرسوم مع ثقلها كانت أخف على عاتق أهل الشام التي حملهم إياها ممولهم سابقاً. (12)

أما في عهد الدولة البيزنطية فقد كان الإمبراطور هو الذي يعين مقادير الضرائب بعد تقديرات نفقات الإمبراطورية، فيصدر أمره بتحديد المبالغ الكلية على الولايات الرئيسية التي تنقسم إليها الإمبراطورية، فكانت هذه الضرائب ثقيلة على كاهل الشعب وأهمها ضريبة الأرض والرأس.

وكانت الحالة في ولاياتها الشرقية تزداد سوءاً فالفلاح ربط بالأرض ولا يجوز له تركها. (13)

في النظم التي اتبعها قسطنطين ودقلديانوس في التنظيم الضرائبي على الأرض تعرف ما وصل إليه حال الفلاحين في الولايات الشرقية ، وفي بلاد الشام خاصة. فقد أمر دقلديانوس بإجراء إحصاء للأرض والناس ، وتبع ذلك تقسيم البلاد تقسيماً أوليا إلى وحدات لا تتساوي في المساحة، وإنما في قيمة المحصول الذي تغله وكانت الوحدة تسمى (Iuguo) وهي سورية كانت تتكون من عشرين أو أربعين أو ستين فداناً من الأرض الصالحة للزراعة وخمسة أفدنة من الكرم أو (225) من أشجار الزيتون وفي المقاطعات الجبابية و450 قد كانت الرأس وهي وحدة الإنتاج بالنسبة للأفراد ، وكانت المرأة تعتبر نصف وحدة.(14)

12- محمد كرد علي ، المرجع السابق ، ج5 ، ص 48

13- عبد العزيز الدوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، دار الطابعة بيروت ، ط2 ، 1987م ، ص 23.

14- عبد العزير ، المرجع السابق نفسه ، ص 23.

وقد سجل الإحصاء عدد من الوحدات في كل مدينة ذات حكومة محلية وما يتبعها من أرض أو قرى أو ضياع ، وفي كل سنة عند إعلان الضريبة الأساسية عن الوحدة كان على موظفي الحكم الذاتي في المدينة أن يقوموا بجمع مقدار من المال يساوي مقدار الضريبة الأساسي عن الوحدة مضروباً من المال يساوي كل مدينة، ومن الواضح أن الأساسية في هذا البناء المالي كان ذات الحكومة الحلية.

وقد تنوعت الضرائب في عهد الدولة البيزنطية في بلاد الشام ، فمن ضرائب على الرؤوس والمواشي، ومكوس على التجارة والأشياء والممتلكات ، وبذلك أرهقت الدولة البيزنطية رعاياها واستنزفت قواهم ومواردهم، هذا الإضافة إلى استنزاف قوى الفلاحين بسبب الوباء الذي اجتاح بلاد الشام على فترات متتالية مات فيها الكثير من الناس ، حتى أنه كان يأتي موسم حصاد الثمار فلا يوجد من يقوم بجنيها، وبذلك نستطيع القول بأن الله قد أراد لأهل الشام الخلاص من المعاناة التي لاقوها على أيدي أولئك الحكام العتاة.(15)

15- صبحي الصالح ، المرجع السابق ، ص 24.

الفصـل الأول

العوامل المؤثرة في الحياة الاقتصادية في بلاد الشام

- ❖ المبحث الأول : العوامل الجغرافية
- ❖ المبحث الثاني : العوامل الداخلية
- ❖ المبحث الثالث: العوامل الخارجية
- ❖ المبحث الرابع: الصراع بين الدولة الأموية والبيزنطية

المبحث الأول

العوامل الجغرافية

كانت بلاد الشام، تقع ضمن حدود طبيعية واضحة المعالم تماماً من الجنوب يحدها الصحراء، ومن الشرق نهر الفرات والصحراء كذلك ، وشمالاً جبال طوروس، وغرباً البحر الأبيض المتوسط ، ولم تتغير هذه الحدود بعد الفتح العربي، فبقيت كما كانت عليه في العهد البيزنطي[16]وبوحدتها الإقليمية وبحدودها الطبيعية الواضحة إلاأن التناسق لم يكن إلا في مظهرها العام فسطح هذا المستطيل الجغرافي، يبدو كأنه ينعدم فيه التناسق كلياً ، فقد تمكنت الصدف الجغرافية أن ترسم على سطحه تناقضات عميقة ، ومختلفة في أوضاعه العامة الطبيعية، فمن تضاريس معقدة ، وتقسيمات جغرافية متباينة، وبروز كثيرمن العوائق والموانع على سطحه، ثم اختلف في المناخ، مما جعل هذه البلاد تبدو مجزاة اى مناطق عديدة مختلفة، تضاريس الشام يخترقها كثير من الجبال والسهول الخصبة، بتناوب الأرض المنخفضة والأرض المرتفعة التي تتجه من الشمال إلى الجنوب بحيث تحاز بعضها على بعضاً.

وقد اشار المقدسي بصورة شاملة وموجزة طبيعة بلاد الشام بوصفه قائلاَ : هي أربعة صفوف فالصف الأول يلي البحر الروم وهو السهل ، والصف الثاني الجبل مشجر ذوقري وعيون ومزارع ، الصف الثالث الأغوار ذو القرى وأنهار ونخيل ومزارع ، والصف الرابع سيف البادية وهي جبال عالية باردة معتدلة مع البادية ذات القرى وعيون وأشجار ، ومع يتبين أن هنالك انعدام التناسق في طبيعة هذه البلاد ، إلا أن ذلك يوحي تكاملاً في جغرافيتها.[17]

16- حسين عطوان ، الجغرافيا التاريخية لبلاد الشام في العصر الأموي ، بيروت ، دار الجيل ، 1987م ، ص 20.

17 – المقديسي ، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن احمد البشاري (ت 38هـ – 1993م) ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (د، ط) ، دار صادر – بيروت (د ، ت)، (ص53).

وفي أوضاعها الاقتصادية عامة في الغور الطويل أحد المنخفضات ، يمتد بشكل متوازي على الساحل ، ويخترق الشام غي الوسط بدءاً من جبال طوروس شمالاً حتى منطقة هبوطه في البحر الأحمر جنوباً ، وتبدأ أجزاء هذا الغور بالانخفاض سهول الحولة ، وبحيرة طبرية إلى أن يصل انخفاض عند جهات البحر الميت 400 متر[17]، عن سطح البحر.

وفي شمال هذا المنخفض سهولاً خصبة ، وهي سهول القاع وحلب ، وسهول حمص وحماة ، وأيضاً البقاع الذي ينحني من جهة أخرى ، نحو الشمال ونحو الجنوب ، ويبلغ ارتفاع من الوسط عند بعلبك 3400متراً، وتعتبر هذه المنطقة نقطة توزيع المياه.[18]

وترفع سلسلات جبال عالية غربية وشرقية حول جانبي هذا المنخفض فالسلسلة الغربية تمتد من جبال الأمانوس في الشمال من جبال القدس والخليل[19]وفي الجنوب تنحدر تدريجياً نحو صحراء سيناء لتنخفض هناك، ويبلغ أعلى ارتفاع لها في الوسط حوالي 3066 متراً، وتطل هذه الجبال عمودياً على الساحل الشرقي للبحر المتوسط وذلك بفعل الكتل المتصدعة، لتفسح المجال لظهور سلسلة من السهول الساحلية الضيقة، وتمتد هذه السهول الساحلية من الأسكندرونة في الشمال حتى رفح في الجنوب.

أما سلسلة الجبال الشرقية ، فيبدأ امتدادها جنوبي حمص وتصل زروة ارتفاعها في جبل هرمون، ثم تنحدر هذه الجبال بسرعة نحو الهضبة ، وتعتبر هذه السهول الساحلية. خصبة في جميع أجزائها، حيث تغطى بفراشات من الرواسب النهرية الفيضية والرمال والطمي، والحصى، وذلك بفعل التآكل الذي تسببه الأمطار الغزيرة والسيول التي تحملها معها.[20]

وتشكل الهضبات الشرقية الخصبة ، والتي تصلح لقيام زراعة بغلية بسبب هطول الأمطار الكافية عليها ، وفي الشمال الشرقي من بلاد الشام ، تمتد هضبة فسيحة مغطاة

17- فيليب حتى ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، بيروت دار الثقافة ، ج1 ، 1982م ، ص 31.

18- عبد الرحمن حميدة ، جغرافية الوطن العربي ، بيروت : دار الفكر المعاصر ، 1990م ، ص 276.

19- محمد سعودي ، الوطن العربي ، دراسة لملامحته الجغرافية دار النهضة العربية ، بيروت ، 1967م ،ص 360 – 361.

20- فيليب حتى ، المرجع السابق ، ج1، ص 43 – 44 .

بالسهول مناسبة للمراعي، وفي الواقع فأن بادية الشام ليست جرداء تماماً ، ففيها المنخفضات والأودية والمياه فلذلك تنشط فيها الحياة الرعوية بفضل بعض المراعي الموجودة فيها ولذا تصلح لتربية الجمال ، والخيل والأغنام .

التضاريس الطبيعية والمناخ ، قد عملوا على تجزئة بلاد الشام الي مناطق متباينة، فالمنطقة الوسطى، لهاقسم جبلي مرتفع ، والمنطقة الجنوبية أقل ارتفاعاً تضم هضاب ومنحدرات، وأما المنطقة الشمالية فهي جبال غير مرتفعة تضم سهولاً وهضاب فسيحة، وتظهر هذه المناطق الثلاثة شبه منعزلة عن بعضها، وذلك بسبب التضاريس التي تقف عائقاً أمام التواصل[21]،من المناطق من جبال ومنخفضات وانهر غير صالحة للملاحة وبذلك تبدو هذه المناطق المختلفة ، كملجأ طبيعي لأقليات سياسية وأعراق مختلفة، وفي العصر الأموي في سنة 689م حيث سببوا القلق والمضايقات الكثيرة للعرب .

موقع بلاد الشام الجغرافي :

بلاد الشام التي تحيط بها الصحراء من الجنوب والشرق، ومن الغرب البحر المتوسط ، ومن الشمال جبال طوروس، تتباين في مناخها، فيسود فيها مناخ البحر المتوسط. [22]

في المناطق التي تقترب من الساحل، أما في المناطق الداخلية القريبة من الصحراء فيسيطر عليها المناخ القاري، وهذا الموقع الجغرافي لبلاد الشام جعلها تقع بين منطقتين تباين في درجة هطول أمطارها، تسيطر على بلاد الشام الرياح الغربية الشمالية المحملة بالرطوبة التي تاتي من الشمال على الطريق البحر المتوسط ، فتجلب معها المطر، أما في فصل الصيف فتهب على بلاد الشام الرياح التجارية الجافة، ومصدرها الصحراء الكبرى الأفريقية .

21- عبد الرحمن حميد ، المرجع السابق ، ص 315.

22- عاطف رحال ، تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي ، ط1 ، بيسان للنشر والتوزيع بيرون ، 2000م ، ص 15.

في غرب وشمال الشام تزيد كمية الأمطار الهاطلة عن 1000ملم ، تتناقص هذه الكمية من المطر تدريجياً كلما تقدمنا من الغرب إلى الشرق أو من الشمال إلى الجنوب حتى تصبح كمية الأمطار السنوية الهاطلة في بادية الشام تتراوح بين 100 و200ملم.[23]

وكانت الدولة البيزنطية تقيم مراكز محصنةعلى سيف البادية لحماية أطراف الشام من خطر القبائل الرحل وإيقاف زحفهم نحو الأرض الزراعية ، وبالتالي لإتاحة الفرصة أمام الزراع للتراجع إلى الداخل ، وهكذا كانت الدولة البيزنطية تبذل ما بوسعها من خلال اتخاذ الإجراءات الأمنية الفعالة لحماية أراضي الشام [24] .

ولكن في القرن السادس عشر الميلادي ظهرت أثار بارزة في الهضبات الشرقية لبلاد الشام وبالتحديد على الحدود السورية ، تشير إلى تخريب كبير للأرض الزراعية على أطراف الصحراء نحو المناطق المزروعة ، ويبدو واضحا هذا الأمر يعود بسبب انشغال الدولة بحروبها المستمرة في أواخر العهد البيزنطي في بلاد الشام بالإضافة إلى الخلاف الذي وقع بين البيزنطيين والغساسنة في ذلك الوقت ، مما أدى إلى إن الغساسنة في ذلك الوقت ، لم يتخلوا عن دورهم في حماية اطراف الشام [25] .

الظروف العسكرية والأمنية التي سادت بلاد الشام نستطيع القول بأن الإجراءات الأمنية التي اتخذتها الدولة البيزنطية في ذلك الوقت لم تكن كافية او رادعة ، بينما نجدها في العصر الأموي اشد وأعظم وقاية لحماية الأرض الزراعية [26] .

مصادر المياه :

من المعروف ان توافر المياه يشكل عامل أساسي في ازدهار الزراعة في أي إقليم، لذلك أولى الولاةوالخلفاء الأمويون اهتمامهم بمشاريع الري في الدولة الأموية فقاموا بتوزيع الأنهار وحفر الآبار، وشق القنوات كما أقاموا القناطر والجسور معتمدين على مناطق

23- البلاذري (ت 379هـ) فتوح البلدان، مراجعة وتعليق محمد رضوان، دار الكتب العلمية بيروت، 1200 هـ – 1978م، ص142.

24- عاطف المرجع السابق، ص 20 .

25- سعد عاشور ، تاريخ اوربا في العصور الوسطى ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1976 ، ص، 175.

26 – عبدالعزيز الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي ، دار مشرف ،بيروت ، 1974 م ، ص 26.

معينة من المياه في محاصيلهم حيث تختلف من منطقة الى أخرى حسب الظروف المناخية والتضاريسية لكل إقليم ولعل من أهمها مياه الأمطار والأنهار والآبار الجوفية والينابيع [27] .

1 – **مياه الأمطار :**

إن مياه الأمطار تؤثر في الإنتاج ويشير الجغرافيون إن العبرة ليست بكمية الأمطار الساقطة في منطقة ما إنما في القيمة الفعلية للأمطار وانتظام سقوطها وعدم تذبذبه، فقد اختلفت مياه الأمطار في حجمها من منطقة إلى أخرى فبلاد الحجاز ، تمتاز بقلة الأمطار بصورة عامة لاسيما في المناطق البعيدة عن البحر مثل مكة والقرى المحيطة بها فقد جاء في وصية قائد الجيش الذي وجهه يزيد بن الزبير بمكة فقال : (أحفظ عن ماأقول لا تطيلين ، المقام بمكة فإنها ارض محترمة الحر لاتصلح الدواب بها) ولايعني قلة الأمطار عدم وجود مناطق في الحجاز تعتمد عليها فالطائف مثلاً أكثر المناطق اعتماداً على مياه الأمطار بالإضافة إلى الأمصار الأخرى[28] .

رغم ميائها فإنها مؤقتة ولاتدوم طويلاً لهذا عرفت الطائف بزراعة الرمان والكروم وغيرها من الفواكه .

وفي العصر الأموي، حرص الخليفة سليمان بن عبد الملك على تتبع أخبار سقوط الأمطار وكمياتها في الأقاليم الإسلامية ، فقد روى يزيد بعثة المهلب سريعاً... إلى سليمان عبد الملك قال سريع : فعلمت أنه يسألني عن المطر فأعطيت إعرابياً درهماً وقلت : كيف أقول إن سئلت عن المطر ؟ فقال: قل جاء مطر غزير درير فعمر الري واخطر العمير واستئصال العراق ولم أر واديا ولا دارياً فلما دخلت على سليمان سألني عن المطر فقلت هذا الكلام [29] .

27 – عاطف رحال ، المرجع السابق ، ص 34 .

28 – محسن خليل ، في الفكر الاقتصادي العربي ، دار الرشيد ، العراق ، 1982 ، ص 40.

29 – فالح الصيني ، الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الاموي ، عمان ، (د – ط) ، 1978، ص 39 – 42 .

ولعل غرض سليمان من هذا أهميته الاقتصادية لارتباطه بالخراج فكلما كان نزول الأمطار بكميات مناسبة زاد وارد الخراج والعكس، لما وجدت مناطق اعتمدت على مياه الأمطار بشكل أساسي في عملية ري أراضيها خاصة في جنوب شبه الجزيرة العربية الأمطار الموسمية التي تنحدر عبر الوديان في اليمن.[30]

مياه الأنهار:

نجدأن مياه الأنهار ومايتفرق عنها من الجداول الصغيرة هي المصدر الرئيسي للري في مختلف أنحاء العالم الإسلامي في العصر الأموي لذا كانت مراكز الإنتاج الرئيسية من المحاصيل الزراعية في العراق ومصر والشام حول هذه الأنهار.فمياه الأنهار يعتمد عليها في زراعه مساحات شاسعة في جهات الدولة الأموية وشقها علي شكل انهار دائمة الجريان مثل دجلة والفرات والنيل[31]، وفي هذه الجهات يتم التحكم في المياه عن الطرق إقامة القناطر والسدود وإنشاء شبكة من الترع والمصارف وتتمتع الأراضي التي تزرع معتمدة على الري من مياه الأنهار بميزات لا تتوفر في الأراضي التي تروى بمياه الأمطار وأهمها تجديد خصوبة التربة بصفة مستمرة كما أن الولاة الأمويين اهتموا بحفر الأنهار وتوسيعها وإنشاء الجسور والقناطر في العراق لتوسيع المساحة الزراعية بكل التكاليف وكل التكاليف هذه العملية على عاتق الدولة والمعروف أن جل الأراضي البصرة مناخ لا تصلح للزراع. بسبب تفرغ نهر دجلة عن مصبه.[32]

أنها أنهار كثيرة قليلة العمق، مما يجعلها تفيض على الجانبين وتغرق الأراضي الزراعية المجاورة له الذا هذا الوضع يحتاج إلى إصلاح من خلال توسيع الأنهار وتطهيرها أو هو

30- الجاحظ عمر بن بحر ، (ت 255 هـ – 854م) ، تاريخ خليفة بن خياط ، ترجمة أكرم ضياء العمري ، ط2 ، دار طيبة الرياض ، 1985م ، ص 162 – 164 .

31- البلاذري ، المصدر السابق ، ج1 ، ص ص 536 – 537.

32- صلاح طهبوب ، موسوعة التاريخ الإسلامي في العصر الإسلامي ، دار أسامة للنشر ، الأردن ، عمان ، ط1 ، 2006م ، ص 157

بذلك خطوة كبيرة في سبيل إنعاش الحياة الزراعية في الإقليم، فقد حفر زياد نهر الأساورة ونهر أم حبيب كما قام بإنشاء قنطرة في الكوفة.[33]

كما بنى زياد بن أبيه جسراً كبيراً في الكوفة لمنع فيضان المياه ، وظل هذا الجسر قائماً طوال العصر الأموي.

كما ان مسح الأرض من أهم السياسات الزراعية في مجال الري ، وإن كان يبدوا ظاهرياً أنه يتعلق بالأرض فهو يهدف إلى تنظيم موارد الخراج من خلال بيان أصناف الأرض وإقطاعها، فيذكر أن زياد بن أبيه كان يقوم بمسوحات في مناطق مختلفة من ولايته . [34]
ولعل من أهمها السواد بل وصل الحد إلى ضبط الزراع التي يقاس بها عند إجراء المسح ، واعتمادها في الدولة الأموية وفي العصور التالية لها، وعرف هذا الزراع بالزيادية نسبة إلى زياد بن أبيه، لهذا فقد اعتبرت هذه المسوحات في ظاهر الأمر اهتماماً بالأرض لكنها في الوقت نفسه وفي واقع الأمر متابعة الأحوال الكبرى خشية انكسار سد أو تصدع قنطرة تؤثر على عملية الري. [35]

بزل الحجاج جهوداً كثيرة في هذا المجال، فقد حفر أنهاراً عديدة شملت المناطق الواقعة بين الكوفة ووسط البصرة مثل الزابي والنيل.[36] وقد أدى حفر هذه الأنهار إلى إحياء الأرض التي حواها ليستفيد منها سكان تلك المناطق ، وهذا يدل على اهتمامه بالأرض وتنمية موارد الدولة.

33- ابن عبد ربه ،أحمد بن محمد (ت328هـ – 940م) العقد الفريد ، ترجمة عبدالمجيد الطريحاني ، ط1، ج4 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1983م ، ص 120

34- القلقسندي ، صبح الأعشى في صناعة الأنشاء ، ج1 ، ص 140.

35- القلقسندي ، المصدر السابق ، ص 218.

36- وقد سمي بالزابي بهذا الاسم لأخذه من الزاب القديم ، لنيل فكان يأخذ من الفرات إلى دجلة ، ياقوت الحموي المصدر السابق ، ج5، ص 348.

كما حفر سعيد بن عبد الملك والي الموصل نهر سعيد بالشمال لدى المناطق المحيطة بالمدينة كما حفرت ووسعت عدة قنوات تأخذ ماءها أحد النهرين منها نهر دجيل الذي يأخذ ماءه من دجلة ونهر عيسى الذي يأخذ ماءه من الفرات. [37]

ويعتبر نهر بردي من أهم الأنهار في الشام ، والذي ينبع من جبال لبنان الشرقية وقد شق الخلفاء والولاة الأمويون مجموعة من الأنهار والقنوات الفرعية التي تنطلق من مجرى النهر لتروي الأراضي التي تصل لها مياه النهر ولعل من أهمها نهر يزيد الذي استحدثه في العصر الأموي لتزويد نواحي دمشق والغوطة بالمياه مستعملين في ذلك الآلات لإيصال الماء إلى الأراضي الزراعية بسبب انخفاض مجراه من الأرض المجاورة.[38]

ولعل ذلك كان من أسباب شهرة المحاصيل الزراعية بالغوطة وتصديرها إلى كافة أرجاء العالم الإسلامي في ذلك الوقت.[39]

37- شحاتة الناطور ، تجديد الدولة الأموية في عهد عبد الملك ، ط1، دار الكندي للتوزيع ، أربد ، 1996م ، ص 258.

38- ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج4 ، ص 214.

39- القلقشندي ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 362.

المبحث الثاني

العوامل الداخلية

أ / الأيدي العاملة :

كانت الدولة حريصة جداً على زيادة مواردها الضريبية ، وخاصة ضرائب الأرض الرئيسة فلذلك كانت تولى عنايتها لأمور الزراعية لتحسين مستوى الإنتاج الزراعي ، الأمر الذي يحافظ على استمرار تدفق الضرائب إلى خزينتها ، ومن هنا كان اهتمام الدولة الأمنية لحماية الأراضي الزراعية الخصبة[40] ، التي تقع أطراف الشام من خطر بدو الصحراء إلا أن الموضع الرئيسي الذي كان يشغل تفكير السلطة العليا في البلاد هو العمل على تأمين الوسائل الضرورية للسكان لزراعة الأرض وبخاصة ، توفير الأيدي العاملة لها بأقل كلفة ممكنة ، حيث كانت الدولة تنظر إلى سلوك الفلاحين الأحرار الذين يعملون مع غيرهم عن طريق التعاقد مع من يعطيهم أكبر أجر ممكن ،على أنه خطر اقتصادي [41] أي إن الدولة كانت ترى أن عقود العمل المبرمة على أساس العرض والطلب،لم تكن تخدم مصلحة أصحاب الأرضوبالتالي تهدد موارد الخزينة، وبالتالي زيادة الطلب لليد العاملة لزراعة الأرض إتاحة الفلاحين أن يحققوا فائدة من خلال فرص، تواجدهم للعمل بدفع أجورهم ، لذلك حاولت الدولة أن تبحث عن طرق كفيلة لتوفير اليد العاملة لزراعة الأرض ضمن شروط مناسبة لأصحاب الأرض[42]، اليد العاملة في العصر الأموي تتكون من العرب، والموالي، والرقيق، حيث كانت لتدفق الآجير على اختلاف أجناسه في العصر الراشدي وبداية العصر الأموي دور كبير في تطويرها، وكما أن هؤلاء الرقيق استعملوا في مختلف الأعمال الزراعية وساهموا في تحسين أساليب الزراعية بخبرتهم ومعرفتهم التي اكتسبوها في بلادهم[43] التي نقلوها فيما بعد إلى إقليم الدولة

---

40 – عاطف ر حال ، المرجع السابق ، ص 42 .

41 – فليب ، المرجع السابق ، ص 183 .

42– عاطف رحال ، المرجع السابق ، ص42.

43 – البلاذري ، المصدر السابق ، ص ، ص 173.

الأموية وخاصة في الحجاز والعراق تحتاج الدولة يد عاملة كبيرة في البطائح ، حيث كانوا يعملون بالأرض جانب أسيادهم العرب ، فما كان الملكقبازين فيروز [44]، أنفتح في اسافر كسكر بثق عظيم عقل أمره حتى غلب ماؤه وغرق من العمارات ما علاه وغرق كثير من الأرضي العامرة [45] ، نرى هنا إن البطائح تحتاج إلى اليد العاملة .

كما تركز الثورة على قلة اليد العاملة من سكان المنطقة ، حيث كان معظم التركيبة السكانية من الموالي مما يترتب عليها ضعف حركة النقود داخل المنطقة فضعفت حركة تبادل السلع أي حدوث كساد اقتصادي بالمنطقة [46] .

ب / رأس المال :

يعتبر رأس المال وتوفير السيولة النقدية من أهم العوامل المساعدة على تطوير اقتصاد الدولة الأموية ولذلك نجد أن الدولة اعتنت بتوفير رؤوس الأموال الزراعية فقد تضخمت الثروات في العصرالراشدي وبلغت أوجها في العصر الأموي نتيجة الفتوحات التي عرفتها الدولة الأموية في الشرق والغرب خاصة العرب بصفة عامة والحجازين بصفة خاصة باعتبارهم مادة الجهاد .

وبالتالي المستفيد الأكبر بفوائدها لهذا نجد الأموال متوفرة بدرجة كبيرة لدى أشراف العرب والأسرة الحاكمة او من أنصارهم ومعاونين ، وترتب على هذا الوضع النمو السريع للثروات ارتفاع في المستوى المعيشي وازدهار الزراعة نتيجة للطلب المتزايد على المنتجات الزراعية واهتم كذلك الأمويون بالأمور المعنوية المساعدة على وفرة الإنتاج ورخائه استتباب الأمن من خلال أغلب فترات الحكم الأموي، دوراً من ازدهار الزراعة وتسويق المنتجات الزراعية، حيث أصبحت الطرق أمنة وتنقل الأشخاص والسلع دون خوف، كذلك ساهموا أساساً في

---

44 – قباذ بن فيروز ، تولى ملك فارس وعمرة خمس عشر سنة ، وتوفي وعمره ثلاثة واربعون ، خلفه ابنه كسرة ، البلاذري ، المصدر السابق ، ص21 .

45 – الماوردي ، ابو الحسن علي بن محمد بن الحسن ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، واولادة ، القاهرة ، 1960 م، ص234 .

46 – عصام هاشم الحضري ، التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، (د – ن) ، (د – ت) ص 196.

تحقيق العدل والأمانة في تقدير الخراج لأن ذلك من أسباب إخراج الأرض لمحصولها ، ولهذا ينصح قرة بن شريك عاملة قائلاً : (وتعهد أمر من قبل ولا تكن أمانتك وما تلي إلى احد سوى نفسك فإن للحسن معان بأرضك في عملة .... ويحذره من عاقبة ظلم أهل الأرض لأن هذا من أسباب خراب الأراضي وقلة مردودها ، ونتيجة ذلك أموال الجباية فجاء في الرسالة كما يلي : .... واتفق الذي فيما يلي ، فأنما أمانتك ودينك ، ثم احجز عملك ونفسك عن ظلم أهل الأرض الظالم والأضاعة من قبل ما يلي أمرهم فإن ذلك خرابهم ...) .

نرى بأن البردية قد اثبت أن قرة كان حريصاً على إحقاق الحق في رغبة وهي إن تقوى الله سبب نزول الرزق والخير قال الله تعالى : (وَلَوْ أَنَّ أهل الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) [47] ، كما أن الفتوحات الإسلامية كان لها الأثر في مظاهر الغنى التي ظهرت أول الأمر في عهد الخليفة عثمان بن عفان في المدينة المنورة ، ثم انتقل الترف إلى دمشق حاضرة الأمويين ، حيث كانت عائدات الفتوحات الإسلامية تتدفق على الدولة، مما أدى إلى ازدهار الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في بلاد الشام في العصر الأموي ، وقد ظهر ذلك في قصور الأمويين وفي حياتهم العامة والخاصة وفي المظهر الحضاري العام لدمشق خاصة أو بلاد الشام عامة، ويعد هذا العرض المطول للمظاهر الحياة الاقتصادية [48]. ، في بلاد الشام في العصر الأموي ، بصفة خاصة ، تستطيع أن تستنتج أن المسلمين قد نعموا في ظل هذا الرخاء الاقتصادي بما نتج من خراج الأرض والجزية ، وتوفر الأيدي العاملة بحسن معاملة أهل الزمة ، إضافة إلى عائد الفتوحات الإسلامية التي أغرقت خيراتها على الدولة ، وكان هذا الخير قد عم الولايات ، سواء كان في عهد الخلفاء الراشدين [49] ، أم الأمويين ، فعمرت الأرض ، وبنت القصور ، وظهر أثر هذه الخيرات على المجتمع الإسلامي غير ان طبيعة

47 – سورة الأعراف ، الأية (96) .

48 – عاطف رحال ، المرجع السابق ، ص 81 .

49 – عصام الدين عبد الرؤوف ، الحواضر الإسلامية الكبرى ، دار الفكر العربي ، ط ، 1976، ص 88.

النفس البشرية ، قد طغت على نفس النفوس ، سواء كان من الخلفاء بني أمية أو من ولاتهم ، فظهرت مظاهر الثراء الفاحش لدى بعض الولاة ، كما ظهر بينهم التعصب القبلي، وبدا الظلم يطفى في معاملة أهل الذمة في الولايات من حيث أخذ الجزية منهم بغير حق بعد إسلامهم ، كما زاد من وجود التفرقة بين العرب والموالي مالياَ واستئثار العرب بالمناصب الكبيرة ، فعمت الإضطربات والفتن والصراعات القبلية في أنحاء الولايات الإسلامية ، مما كان له أسوأ الأثر على خزانة الدولة الأموية [50] .

ج / ارتفاع مستوى المعيشة :

نتيجة لهذه الظروف والأوضاع الصعبة التي يعيشها الفلاحون، معاناة البؤس وسوء العيش بالإضافة إلى تعرضهم لفتك الأمراض الوبائية ، فكان طبيعياَ، في نفوسهم مشاعر القلق واضطراب ، والنقمة إلى حد الإثارة ضد هذا الواقع الذي يعيشونه ، إلى أن جاء عهد الخليفة عبد الملك مروان ، حيث اشتغلت الخلافة الأموية بفتنة الحرب الأهلية ، فكان توجه الخليفة مع جيشه الى العراق المحاربة قوات عبدالله بن الزبير الذي كان قد أعلن نفسه خليفة في الحجاز، ثم امتدت سيطرته إلى العراق بعد ذلك [51] مما أتاح المجال أمام البيزنطنيين أعداء الأمويين أن يتقدموا بجيش لهم مع فلول أخرى مسلحة في محاولة اختراق بلاد الشام مستغلين انشغال الأمويين بالحرب الداخلية لتحقيق مسعاهم بإثارة الاضطرابات في الشام وزعزعة الحكم الأموي هذه الظروف والتطورات التي أخذت تعصف بالحكم الأموي ، تحرك العبيد والفلاحين الذين وصلت حالة الإثارة إلى ذروتها ، حيث راوا أن الفرصة قد أصبحت مواتيه لهم لإعلان تمردهم ومحاولة التخلص من الواقع المرير الذي يعيشونه، فقاموا بثورتهم، وانضموا إلى هذه القوات المغيرة التي دخلت إلى بلاد الشام، فلما كانت أيام ابن الزبير وموت مروان بن الحكم وطلب عبدالملك الخلافة بعده لتوليه إياه عهده واستعداده للشخوص إلى العراق لمحاربة مصعب بن الزبير خرج خيل الروم إلى جبل

---

50 – عاطف رحال ، المرجع السابق ، ص197.

51 – المرجع نفسه ، ص 255 .

اللكام وعليها قائد من قوادهم ثم صارت إلى لبنان وقد ضمت إليها جماعة كثيرة من جراجمة وأنباط وعبيد و أباق من عبيد المسلمين [52] .

وقد احتلت هذه الجماعات المسلحة التي امتدت سيطرتها حتى تخوم فلسطين جميع المواقع الإستراتيجية [53] .

ويقول المسعودي إن الثوار أخرجوا المساجينمن السجون ثم توجهوا بعد ذلك الى جبل مطل على دمشق فاعتصموا فيه وكان الخليفة في هذا الوقت مع جيشه في بطنان بجوار قنسرين يتأهب لمحاربة ابن الزبير، عندئذ الخليفة ان يعود مسرعاً إلى دمشق لمعالجة الموقف الخطير الذي باد يهدد كيان الحكم ، فعقد هدنا مع الإمبراطور البيزنطي أن يدفع له مالاً ثم تولى جيشه بقيادة سجيم بن مهاجر محربة الثوار ،حيث حسم الموقف بسرعةونجح بقمع الثورة ، فانتشرت فلول الجراجمة في قرى حمص ودمشق وعادت أكثريتهم إلى مقرهم والعبيد إلى أسيادهم ، ويتضح أن هذه الثورة لم يكن مقدراَ لها النجاح فقد حملت معها بزور فشلها منذ البداية ، حيث إنها حركة عفوية غير منظمة ، كباقي ثورات العبيد التي حدثت في السابق [54] .

ثم هذه الثورة اندلعت في بلاد الشام وفي دمشق بالذات عاصمة الخلافة الأموية وحصنهم الحصين لابد أن تواجه بقوة قمع شديد وأن تتعرض للفشل، وبخاصة ان هذه الثورة لم تكن تعتمد على قواها الذاتية، وبالفعل لأن الأمويين الذين يعتمدون على جيش كبير مخلصاَ لهم من اليمانية [55]، قادر على سحق أي معارضة التي تهدد حكمهم في الشام ، قد أقدموا على التصرف بسرعة بشدة في قمع الثورة على الرغم من انشغالهم بالحرب الأهلية التي لم تكن تعني أن قواهم استنزفت ، وأصبحت ضعيفة .

---

52 – البلاذري المصدر لسابق ، ص 164 .

53 – عاطف رحال المرجع السابق ، ص 256 .

54 – المرجع السابق نفسه، ص356 .

55 – الجاحظ ، عمر بن بحر ان 255 هـ، (868م) البيان والتبيين، ترجمة عبد السلام هارون، ط 7 ، مكتبة الخانجي لقاهرة ، 1998 ، ص 437 .

ولجميع هذه الأسباب فأن الثورة كان متوقعاً لها أن تفشل ومع ذلك فأن جيش الخلافة قد حافظ على أرواح الثائرين وأعادهم إلى أسيادهم باعتبارهم القوى المنتجة الرئيسة التي تستغل لصالح الفئات الأرستقراطية .

وقد اندلعت ثورات أخرى في مناطق متعددة في الشام في عهد الخليفة مروان بن محمد127 – 132) م في أواخر العصر الأموي، وشملت هذه الثورات بعض المدن والقرى في حمص، والغوط، وطبرية، وبعض جهات فلسطين كذلك ، وفي نواحي قنسرين ، وكانت هذه الثورات من العنف والقوة، بحيث شكلت تهديداً فعلياً لسلطة الخليفة مروان الثاني في الشام، الذي كان يقوم بنفسه أحياناً على رأس قوات عسكرية كبيرة لإخضاع المناطق الثائرة [56] .

وبالرغم من أن هذه الثورات كان يتزعمها أصحاب طموح سياسي من اليمانية الذين يستندون إلى الخلفيات من الصراعات القبلية ضد القسيسين المتحالفين مع الخليفة إلا أنه يظهر أن الأعداد غفيرة من العمال والفقراء كانوا ينضمون إلى هذه الثورات ، إن تحرك هؤلاء الثوار لم يكن سبب فداحة الضرائب والظلم الذي كان ينزله الجباة بالمستضعفين فقط، بل كذلك سبب أعمال السخرة التي كانت تفرض عليهم في أخر عهود الخلفاء الأمويين حيث كان عدداً كبيراً من السكان يرغمون على القيام بالأشغال الشاقة المتمثلةفي بناء السفن ومعسكرات الجيش كما أنهم كانوا يرغمون على القيام بخدمة القوافل العسكرية [57] .

---

56 – الطبري (ا ت : 310)، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد اثر الفصل نشر دار المعرف – مصر ، ط ، ج ، 7 ، 1961 ، ص 312 .

57 – ابن الأثير (ت : 630 هـ) الكامل في التاريخ ، دار بيروت للطابعة والنشر ، دار صادر ، بيروت ، 1385 / ج5 ، ص328 .

المبحث الثالث

العوامل الخارجية

أ – الصراع بين المسلمين والبيزنطيين : –

بعث معاوية رضي الله عنه سنة(47 – 48 هـ) سرايا من قواته لتغير على الأرض البيزنطية لتمهيد الطريق في سبيل إلى القسطنطينية فتمكن مالك بن هبيرة السكوني من قضاء الشتاء في الأرض البيزنطية[58]، وكادت القوات الإسلامية أن تحرز انتصاراً لولا إنهم واجهوا صعوبات منها الشتاء والبرد القارس مما أدى إلى نقص الطعام والأغذية ، وتفشي الأمراض واستطاع معاوية أن يضيق الخناق على الدولة البيزنطية بالحملات المستمرة والاستيلاء على جزر رودس وأرواد واتخذوا المسلمين أرواد لقربها من القسطنطينية قاعدة للأسطول الإسلامي[59] . اعد أسطولا ضخماً وأرسله ثانية لحصار الفلسطينية، وظل مرابطاَ أمام أسوارها من سنة(54ه – 65 هـ)، فكانت الأساطيل تنقل الجنود من هذه الجزيرة البر لمحاصرة أسوار القسطنطينية على حين يكمل الأسطول الحصار، واستمر الحصار البري والبحري من شهر أبريل إلى سبتمبر ، تتخلله مناوشات، المسلمين وجنود البيزنطيين من الصباح إلى المساء، واستمر هذا الوضع طيلة سبعة سنوات، حتى أرهقت البيزنطيين ، وأذاقتهم ألوان القتل والخوف وأنزلت بهم خسائر فادحة، وبالرغم من كل ذلك لم تستطيع اقتحام المدينة أو التغلب على حراسها المدافعين عن أسوارها، وكانت العوامل التي ساعدت القسطنطينية على الصمود عديدة منها .

1 – استعمال البيزنطيين النار الإغريقية وهي عبارة عن مركب كيميائي مكون من النفط والكبريت، كان يزداد اشتعالاً إذا لامسه الماء، وشغل هذا الاختراع عقول العلماء المسلمين فراحوا يبحثون، حتى عرفوا سره القرن الحادي عشر والخامس الهجري ، وادخلواعليه

58 – الطبري ، المصدر السابق ، ج 6، 148 .

59 – احمد دحلان ، الفتوحات الإسلامية ، دار صادر للنشر ، ج 1،1998 ، ص125 .

تعديلات جعلته اشد فتكاً ، واستخدام المسلمين هذا السلاح في حروبهم مع الصليبين بأرض الشام [60] .

2 – الأسوار الداخلية والخارجية الضخمة المزودة بعدد كبير من ابراج المراقبة .

3 – ضعف التجربة الأموية في حرب الحصار للمدن المتداخلة مع مياه البحر ، حيث تطلب ذلك أسلحة متطورة بأساليب جديدة في القتال لم تكن في متناول القوات الأموية حتى ذلك الحين [61].

4 – دبلوماسية الدولة البيزنطية والإسلامية :

وهنالك عدة عوامل ساهمت في سقوط القسطنطينية منها مناعة المدينة الطبيعية وقوة تحصينها والنار الإغريقية ، ورداءة الطقس وقسوته ، والتيارات المائية ، يقال إنها أرسلت إلى دمشق رجلاً يدعى يوحنا من أشهر رجالها الدبلوماسيين وأكثرهم ذكاء وفطنة وحضر هذا الرجل جلسات كثيرة تضم خيرة أبناء البيت الأموي ، وأبدى فيها الإجلال الدولة الإسلامية [62] ، مما اكسبه تقدير معاوية واحترامه ونجحت مفاوضات في عقد صلح بين الطرفين وبعد إبرام المعاهدة أخذت القوات الإسلامية المرابطة براَ وبحراَ أمام القسطنطينية طريق العودة إلى الشام [63]وعلى العموم ، فإن عصراَ جديداَ قد بدأ في بلاد الشام في ظل الحكم الأموي ، حيث اتصف ذلك العصر بسمات معينة خاصة ميزت تلك المرحلة عن غيرها من المراحل التاريخية فهي كانت مليئة بالحركة والنشاط ، وبتفاعل القوى والعناصر المتعددة في المجتمع تفاعلاً ايجابياً فانخرطت مختلف القوي في علاقات للإنتاج تقدميه ومتطورة مما أغني الحياة الاقتصادية و الاجتماعية في البلاد،حتى أن الحكم الأموي قد أعتبر من أهم العهود التي مرت علي بلاد الشام .

---

60 إبراهيم العدوي ، الأمويين والبيزنطيين ، الدارالقومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط2 ، 382 / 1962 م ، ص 176 .

61 – إبراهيم حركات ، السياسة والمجتمع في العصر الأموي ، مطبعة فضالة المحمد7ية ، المغرب، ط 1 ،. 1410 هـ / 1990 م ، ص 53 – 57 .

62 – نور سعد محسن ، البحرية الإسلامية ودورها في محاولات فتح القسطنطينية خلال العصر الأموي (41 – 132 هـ) / 66 – 750 م ، ص 208 .

63 – نور سعد محسن ، المرجع نفسه ، ص 208 .

فقد أبدوا تسامحهم حيال أصحاب الديانات الأخرى وعملوا علي تهدئه الأوضاع واستقرارها في أرجاء الدولة العربية، كما أنهم اهتموا بأمور الإنتاج، فحافظوا على أطره وأساليبه السائدة ، وعملوا على تطويره، ومن الخطوات الهامة التي تدل تشجيع العرب للتجارة والاهتمام باستمراريتها على طرق التجارة القديمة فاستفادت التجارة من كل ذلك فانطلقت إلى الأمام ونشطت حركتها.

وكان أمراً طبيعياً إلى الأمام أن تصادف حركة التجارة عقبات في صدر الإسلام، يسبب حروب الفتح ، مما جعل نقل البضائع وحريات التجارة تتوقف من نفسها بعد حروب الفتح تسببت الأمور وهدأت الأوضاع فانطلقت التجارة ونمت أعمال التبادل التجاري.

فأصبحت الدولة الأموية مسيطرة على أغلب الطرق التجارية الأساسية في العالم القديم، وسيطرت على الكثير من المراكز الزراعية والصناعية الهامة التي أغنت وأثرت اقتصادها، مكه توسعها وأتاح نمو حركة تجارية ضخمة بين ولاياتها بدون عوائق، جعلت نقل البضائع والمتاجرة بها سهلاً يسيراً ، فازدهرت الحركة التجارية في الدولة.[64]

ب/ أثر البلاد المجاورة في الحياة الاقتصادية في بلاد الشام:

شهدت الدولة الأموية تجارة نشطة عبر أنحائها المختلفة ومع الدول والإمبراطوريات الأخرى المجاورة على حد سواء. ولم تقم الدولة أي قيود من أي شكل على كافة أشكال التجارة بين ولايات الدول نفسها ، كما لم تفرض قيوداً بأي على شكل التداولات التجارية مع الدول المجاورة ولم تحتكر أي نوع من البضائع التجارية.

في الحقيقة فإن الفتوحات الإسلامية لم تعطل الحركة التجارية في العالم القديم، أنها حركت اتجاهها وغيرته لتغذي الدولة نفسها أكثر من خارجها، والمناطق الوحيدة التي استمرت فيها الحركات التجارية نشطة بشكل ملحوظ خارج الدولة الأموية بعد فتوحاتها الكبيرة بيزنطية إيطاليا بلاد الخزر، بشكل عام فقد كانت أغلب المبادلات التجارة في العالم القديم تدور

64- ابن الأثير ، ج5 ، مرجع سابق ، ص 330.

بين أراضي الدولتين الأموية والبيزنطية المتنازعتين، وقد أدت القطعية بينهما نتيجة الحرب إلى شلل كبير في الحركة التجارية خصوصاً في منطقة حوض المتوسط.[65]

عقد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان في سنة 69هـ صلحاً مع البيزنطيين التزموا بموجبه بدفع مبالغ كبيرة من المال إلى الإمبراطور البيزنطي ، حيث كان عبد الملك مشغولاً بنزاعات الدولة الداخلية وعاجزاً عن الدفاع عن حدودها.[66]

لكن عندما جاء وقت تأدية الأموال أرسل عبد الملك إلى الإمبراطور جسنتيان ضد الأمويين ، وقد تقلصت أثر هذه الحرب المبادلات التجارية كثيراً بين الدولتين ، مثل ورق البردي الذي أوقفت مصر تصديره إلى البيزنطيين ، وفي نفس الوقت في الولايات البيزنطية غير أن الولايات البيزنطية في آسيا الصغيرة رفضت موقف الإمبراطور ولم تلتزم بالمقاطعة، فاستمرت بتصدير الخشب إلى مصر، ولاحقاً زادت المقاطعة أكثر، ففي القرن الثامن الميلادي دخلت الإمبراطورية البيزنطية في قطعية كاملة مع الدولة الأموية وحظرت تصدير كافة أشكال السلع التجارية إليها.

على الرغم من أن الأمويين لم يردوا على ذلك بأي إجراءات ، مع الوقت ازدادت سيطرة البيزنطيين على الحركة التجارية في المنطقة وتمكنت أساطيلهم البحرية من الهيمنة على الحركة البحرية عسكرياً وتجارياً في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود خلال فترات كبيرة من القرن الثامن ، خصوصاً بعد حملة القسطنطينية والبحر التي استنفذت أساطيل الدولة الأموية ولم تلتئم من جراء هذه الحملة حتى عهد هشام بن عبد الملك في منتصف القرن الثامن منذ ثلاثينيات هذا القرن بدا البحر الأحمر بالانقسام إلى شطرين منفصلين معزولين عن بعضهما تجارياً، واحد تحت السيطرة الإسلامية والآخر تحت السيطرة البيزنطية، ويعد المؤرخون أن الإمبراطورية البيزنطية كانت تستخدم العزلة الاقتصادية كسلاح ضد عدوتها الدولة الأموية إنهاكهما في الحرب. [67]

65- عاطف رحال ، المرجع السابق ، ص 50.

66- عبد العزيز الدوري ، المرجع السابق . ص 34.

67- مسحن خليل ، المرجع السابق ، ص 50.

المبحث الرابع

الصراع بين الدولة الأموية والبيزنطية

أ/ نتائج الفتوحات الإسلامية الكبرى في عهد الخلفاء الراشدين والعهد الأموي وتدفق الأموال في بلاد الشام:

فتح الله على المسلمين بلاد الشام والعراق وفارس ومصر، في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فكان ذلك فاتحة عهد جديد على المسلمين بخروجهم من أرض الجزيرة العربية إلى آفاق واسعة كثرت بها الخيرات العميقة.

وتوالت الفتوحات على أرض العراق بقيادة خالد بن الوليد، وتوالت الغنائم على المحاربين حتى بلغ نصيب سهم الفارس في معركة يوم ذات السلاسل بالعراق ألف درهم ، وبلغ الراجل الثلث من ذلك(68)، وعن فتوحات خالد بن الوليد في العراق وما غنموه من الأراضي.

كما اندفع المسلمون العرب إلى فتح بلاد الشام لمواجهة إمبراطور الروم هرقل وجيوشه الكثيفة في موقعة (اليرموك) وانتهت المعركة بنصر المسلمين ، ورحيل هرقل إلى القسطنطينية مودعاً بذلك سورية،(69) وقدر الله المسلمين فتح دمشق صلحاً ثم تلتها ايلياء (بيت المقدس) حيث سلم أهلها مفاتيح بيت المقدس لعمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ومن الأرقام التي أوردتها المصادر عما أفاء الله به على المسلمين من أموال في فتوح الشام ما ذكره قدامة بن جعفر من أن أهل حمص صالحوا خالد بن الوليد على مائة وسبعين ألف دينار، أن خراج الشام ارتفع في عهد عمر بن الخطاب إلى خمسمائة ألف دينار.

68- الطبري ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 32.

69- السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الدول العربية ، ص 196.

الفتوحات في عهد بن عثمان عفان مما ذكر عن فتح قبرص بقيادة معاوية بن أبي سفيان، فقد ذكر أن أهلها قد صولحوا على سبعة آلاف ومائتي دينار يؤدونها كل عام. [70]

وكان من ضمن الفتوحات في عهد عمر بن الخطاب فتح مصر وأفريقية فقد فتح عمروابن العاص مصر صلحاً وقيل عشرة (فوضع على كل حالم دينارين جزية إلا أن يكون فقيراً وألزم كل ذي أرض دينارين وثلاثة أرادب حنطة وقسطي عسل وقسطي خل رزقا للمسلمين). وجبى خراجها وجزيتها ألفي ألف . وجباها عبد الله بن سعد بن السرح أربعة آلاف ألف[71]، كما صالح أهل الاسكندرية على ثلاثة عشر ألف دينار على كل حالم من القبط دينارين، كما امتدت الفتوحات إلى شمال أفريقيا فغزا عمرو بن العاص برقة وبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف ديناركما صالح أهل طرابلس على ثلاثة عشر ألف دينار جزية.[72]

وامتدت فتوح أفريقية في عهد عثمان بن عفان إلى بلاد النوبة على يد عبد الله بن أبي السرح فلم يتمكن من أخذ الجذية وإنما صالح أهلها المسلمين (على أن يهدوا في السنة أربعمائة رأس يخرجوا بها يأخذون بها طعاماً). ويذكر البلاذري أن غزوات عبد الله بن أبي السرح في بلاد أفريقية وتفرقة السرايا في البلاد حيث أصابوا غنائم كثيرة واستاقوا من المواشي ما قدروا عليه فلما رأى ذلك عظماء أفريقية اجتمعوا فطلبوا إلى عبد الله بن أبي السرح أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطار ذهب على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم فقبل ذلك.

كما صالح بطريق آفريقية على ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار أما في عهد عبد الملك بن مروان فقد دخل حسان بن النعمان بلاد أفريقية، وقتل الكاهنة بعد أن استنجد الأهالي به

70- البلاذري ، فتوح البلدان ، ج3 ، ص 158.

71- البلاذري ، المصدر السابق ، ص 217.

72- ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج3، ص 26.

وخرجوا إليه بالذهب والفضة على أن يبقيهم في أرضهم ومزارعهم، وكان من نتائج ذلك كثيرة السبي من أفريقية.[73]

2/ نتائج الفتوحات الإسلامية في العهد الأموي:

استؤنفت الفتوح بعد أن استقرت قواعد الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان في أفريقية وبلاد ما وراء النهر ، في الحملات البحرية ضد القواعد البحرية البيزنطية في شرقي البحر الأبيض المتوسط ضد القسطنطينية إلا أنها لم تتمخض عن فتوح المسلمين.

كما تحدثت المصادر عما أفاء الله به من أموال في المعارك التي خاضوها في هذه الفتوح في عهد معاوية، إلا القليل فمن ذلك ما ذكره ابن الأثير أنه فتح رامني ، ونسف، وبيكند ، وغنم منهم غنائم كثيرة.[74]

ثم جاءت الموجة الثانية من الفتوح في العصر الأموي ، وخاصة في الربع الأخير من القرن الأول الهجري لتطلق طاقات العرب من جديد فتمتد الرقعة الإسلامية إلى أواسط آسيا وحوض الهند وفي بلاد البنجاب ، وتتمثل بلاد المغرب الشمالية وتجوز إلى الأندلس ، ثم جبال البرانس إلى جنوب ووسط فرنسا حتى توقفت موجتها بعد هزيمة العرب سنة 114هـ في موقعة بلاط الشهداء. [75]

وقد حصل المسلمون في هذه الفتوحات العظيمة في الشرق والغرب في عهد الوليد بن عبد الملك على مغانم عظيمة عادت بالثراء الكبير والترف العظيم على الدولة الأموية ومما أوردته المصادر في هذا الصدد أن قتيبة بن مسلم الباهلي لما استولى على قطعة نيزك غنم منها من الأموال والسبي وصالح ملك خوارزم على عشرة آلاف رأس ومتاع.[76]

73- المصدر السابق نفسه، ج4، ص 37.

74- ابن الأثير ، المصدر السابق، ج3، ص 499.

75- ابن كثير ، المصدر السابق ، ج9، ص 81.

76- الطبري ، المصدر السابق ، ج6، ص 470.

وصالح أهل الصف على ألفي ألف ومائتي ألف مثقال في كل عام أو أن يعطوه في ذلك العام ثلاثين ألف فارس ، وقيل أنه صالحهم على مائة من ألف فارس وبيوت النار وصية الأصنام فقبض ذلك وأتى بالأصنام فكانت كالقصر العظيم فأخذ ما عليها وأمر بها فأحرقت واستخرج من مسامير الذهب منها ما يساوي خمسين ألف مثقال ، كما حلف قتيبة أن يطأ تراب الصين ويخيم على أعناق أبناء ملوكها أثناء توغله في مناطق تلك البلاد حيث غنم مغانم عظيمة ، إلا أن ملك الصين استرضاه فأرسل إليه (تنفيذ اليمينة) بتراب من أرضه في صينية من ذهب ليطأها، وبعثت بجماعة من أولاده وأولاد الصين ليختم على أعناقهم وبعث إليه من الهدايا والنفائس.(77)

كما توغل محمد بن القاسم في بلاد السند ووصل البلقان في بلاد الهند وقتل سدنة معبودهم الاكبر وحصل على الذهب الذي بالمعبد في بيت سمية بيت الذهب، قيل أن طوله عشرة أذرع وعرضه ثمانية، يلقي إليه الذهب من كوة في وسطه ، فذكر المقدس أنه أصاب بها أربعين بهاراً من الذهب والبهار ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون من الذهب،(78) وحددها ابن خرداذيه تسعين ألفاً وستمائة مثقال. (79)

وبعد أن دانت أفريقية للخلافة الأموية خرجت الجيوش الإسلامية إلى جذر البحر المتوسط وبلاد أوربا حيث دانت جزيرة (ميورقة) للعرب وظفروا منها بكثير من الغنائم والسبي حيث بلغ الخمس ستين ألف رأس من السبي.(80)

مما حصل عليه طارق بن زياد موسى بن نصير من فتح بلاد الأندلس ما حصلوا عليه في مدينة المائدة من أصناف الدرر والجوهر ومنها مائدة سليمان بن داؤود عليه السلام ، التي وصفت أنها من زبرجد أخضر وحافاتها وأرجلها مكللة باللؤلؤ ولها ثلاثمائة وستون

77- ابن كثير ، المصدر السابق ، ج9، ص 142.

78- المقديسي، المصدر السابق ، ج4، ص 77.

79- ابن خرداذية ، المسالك والممالك ، المصدر السابق ، ج4، ص 56.

80- ابن خلدون ، المصدر السابق، ج4 ، 54.

رجلاً ، كما حصلوا على قاعة عظيمة في إحدى مدن الأندلس فيها من اليواقيت والجواهر والذهب والطنافس الحريرية المنسوجة بقصبان الذهب المنظومة باللؤلؤ ما ليس له نظير.

أراد موسي بن نصير أن يناله الفخر بما أحرزه طارق بن زياد في فتوحات الأندلس فسار إليه وشاركه في الفتوح ، ولما انتهينا من الفتوحات سار بنفسه إلى الوليد بن عبد الملك في دمشق محملاً بالأموال والكنوز التي تم الحصول عليها ومعه ثلاثون ألف فتاة من بنات ملوك القوط وأعيانهم ومن نفائس الجوهر فورد الشام وقد مات الوليد.(81)

وتذكر المصادر والمراجع كثيرة إنفاق الوليد بسعة في عهده فيقول في ذلك محمد كرد على: (كان يهتم بعمران البلاد وإقامة المصانع والجوامع واقتناء الضياع ، فقلده رعاياه في ذلك بقوله : وكتب أحد عمال الوليد بن عبد الملك أن بيوت المال قد ضاقت من الخمس ، فكتب إليهم أن يبنوا المساجد).(82)

كما فتح المسلمون في عهد الوليد بن عبد الملك جزيرة سردينية وغنموا منها مغانم كبيرة.(83)، وفي عهد سليمان بن عبد الملك تم فتح جرجان وطبرستان فبعث الجراح بن عبد الله من فتح جرجان ودغستان إلى سليمان ملايين من الدراهم.(84)

وقد أصاب يزيد بن المهلب في غزواته هذه أمولاً وكان معظم جيشه من أهل الشام ستون ألف فارس(85)، وفي عهد هشام بن عبد الملك أوغل الجلراح بن عبدالله الحكمي في بلاد الترك وصالحوه على الخراج والجزية كما استطاع مروان بن محمد سنة 914هـ وخول بلاد الخزر وفتح القلاع والحصون، ودان له ملكها وصالحة على ألف رأس وخمسمائة غلام، وخمسمائة جارية سود الشعر، ومائة ألف مدى كما دخل قلعة (غوميك) وبها سرير الملك

81- ابن الأثير ، المصدر السابق ، جد4، ص 566.

82- ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج9، ص 173.

83- ابن الأثير، المصدر السابق ، ج4 ، ص567.

84- الطبري ، المصدر السابق ، ص 69,

85- عصام الدين عبد الرؤوف ، المرجع السابق ، ج6، ص 535.

فصالحه على أن يؤدي له في كل سنة ألف رأس ومائة ألف مدى ، وفتح الكثير من (المدن في تلك البلاد)[86] كما استعمل هشام بن عبد الملك عبيد الله بن الحبحاب على أفريقية والأندلس 117م فبلغ أرض السوس الأقصى فختم من غزواته من السبي.

ومن هذا نرى أن عائد الفتوحات الإسلامية كان له أكبر الأثر من مظاهر الغنى التي ظهرت أول الأمر في عهد الخليفة عثمان بن عفان في المدينة المنورة، ثم انتقل الترف إلى دمشق حاضرة الأمويين، حيث كانت عائدات الفتوحات تتدفق على الدولة الأموية مما أدى إلى إذدهار الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في بلاد في العصر الأموي.

وقد ظهر ذلك في قصور الأمويين وفي حياتهم العامة والخاصة أو في المظهر الحضاري لدمشق خاصة، ولبلاد الشام عامة، ويعد هذا العرض لمظاهر الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي بصفة خاصة، نستطيع أن نستنتج أن المسلمين قد نعموا في ظل هذا الرخاء الاقتصادي بحياة طيبة ابتعدت عنها قسوة الكد في سبيل لقمة العيش بما نتج خراج الأرض والجزية وتوفر الأيدي العاملة بحيث معاملة أهل الذمة إضافة إلى عائد الفتوحات الإسلامية التي أغرقت خيراتها على الدولة وكان ذلك في عهد الخلفاء الراشدين.

في عهد الخلفاء الأمويون فعمرت الأرض وبنيت القصور، وظهر أثر الخيرات على المجتمع الإسلامي غير أن طبيعة النفس البشرية قد طغت على بعض النفوس، سواء كان من خلفاء بني أمية أو من ولاتهم، وظهرت مظاهر الثراء الفاحش لدى بعض الولاة، كما ظهر بينهم التعصب القبلي وبدأ الظلم يطعن في معاملة أهل الذمة في الولايات من حيث أخذ الجزية منهم بغير حق بعد إسلامهم ، كما زاد من ذلك وجود التفرقة بين العرب والموالي ، واستثناء العرب بالمناصب الكبيرة، فمن الاضطرابات والغش والصراعات القبلية في أنحاء الولايات الإسلامية ، مما كان له أسوا الأثر على خزانة الدولة الأموية.[87]

86- ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج5، 240.

87- عصام الدين عبد الرؤوف ، المرجع السابق ، ص 88.

الفصل الثاني

الزراعة والنشاط الرعوي

- ❖ المبحث الأول: الاقطاعات والملكيات الزراعية
- ❖ المبحث الثاني: أصناف الأراضي
- ❖ المبحث الثالث: عيد النيروز وارتباطه بجباية الخراج
- ❖ المبحث الرابع تنظيم الري أنواع المحاصيل

المبحث الأول

الاقطاعات والملكيات الزراعية

عرفت القطائع [88] منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وقد اقطع تميم الداري في قريته بيت لحم واقرها له عمر بن الخطاب بعد فتح الشام، ويثبت ذلك أنه: كما توسع عثمان بن عفان في منح القطائع، وعاونه في ذلك وإليه على الشام معاوية بن ابي سفيان، بعد أن أمره الخليفة بإنزال العرب بمواقع نائية من المدن والقرى،انزل معاوية بني تميم الداري، ووطن القبائل في منطقة الرها، وجل أهل بالس وقاصر ين والقرى القريبة من الفرات حيث وطنها أبو عبيدة لجماعة من المقاتلة، ووطن القبائل على السواحل السورية بعد أن صدر الأمر إلى معاوية بتحصين السواحل وشحنها بالمقاطعة فأقطعهم انطاكية، وكذلك يذكر ابن عساكر بعض الصوافي [89] التي حولت إلى اقطاعات إلى أن هنالك بعض من القرى الصافية التي استضافها المسلمون من الروم[90] ،منها اندركيسان بدمشق، وقبيس بالبلقاء، وما على باب حمص من جيعان، وأنها ظلت خلال عهد عمر وجزء من عهد عثمان تدخل قبالتها من الأموال إلى بيت المال وتخرج أموالها من أرض الخراج إلى أن كتب معاوية إلى عثمان بن عفان بأن الأموال التي لديه لا تقوم بالمؤن ووفود الروم، وسأله إقطاع هذه الأراضي وسمح له بها. وبقت على هذه الحال إلى أن قتل عثمان، وافضى الأمر إلى معاوية فأقرها لأهله من الفقراء والمساكين، وفي عهد الدولة الأموية، انحرفوا عن الأسباب والغايات الأساسية التي سار عليها المسلمون الأوائل، توسع معاوية بن ابي سفيان في منح الأراضي، فقد سأله الناس من قريش وأشراف العرب أن يقطعهم من أرض الصوافي ففعل، كما قام بمسح كامل للصوافي في الشام والجزيرة، وأعطى منها الإقطاعات لأهل بيته وخاصته.

88- الإقطاع نظام يقوم على السلامة والسادة وثوابهم، المعجم الوسيط ج2 ، ص 745.

89- بن عساكر، المرجع السابق، ص108.

90-عبد العزيز الدوري ، العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الإسلام، المرجع السابق، ص28.

فمن هذه الإقطاعات قرية النمرانية بالغوطة، وأقطعها لنمران بن يزيد المرجحي، واقطع يزيد بن معاوية ، سعيد بن مالك بن بحدل الكلبي إقليم بيت الآبار كما اقطع مروان بن الحكم لعمر الأزدي قرية من غوطة دمشق.[91]

وكان الأشراف يلحون في طلب الإقطاعات، فنفدت أرص الصوافي في عبدالملك بن مروان، وبدا هذا الخليفة يقطع من أراضي الخراجية التي صارت لبيت المال لوفاه أصحابها دون ورثة، فاقطع عبد الملك ضيعة زملكة لحفص بن عمر الأزدي، والقعقاع قرية قرب حلب، وداؤود بن مروان بن الحكم الداودية، واقطع الوليد بن يزيد ضياعاً بالبثينية [92] ، واقطع الوليد بن عبد الملك جند انطاكية أرض سلوقية كما أقطع مروان بن محمد القطائع للجند بالمصيصة ويبدو أن حكم بني أمية لم يستقر في بلاد الشام، كانت غوطة دمشق موزعة بين قبائل اليمن وبين قبائل قيس، وكان اليمنيون أغلي في قرى الغوطة، أما دارياً فكانت أعظم قرى أهل اليمن بغوطة دمشق[93]وأصبح الإقطاع في العصر الأموي يمنح للأعوان ، أو المقربين والأصحاب النفوذ، وكذلك الأشخاص قدموا خدمات خاصة للحكام، كما أن الإقطاع كان يمنح للشعراء، وأصبحت القطائع تعطى من الأراضي التابعة للدولة التي تعتبر فيا للمسلمين كأراضي الصوافي والأراضي الخراجية التي بالغ الأمويون بالتصرف فيها، إلى حد أن ذلك أصبح يشكل تهديداً لموارد الدولة.[94]

91- عاطف رحال، المرجع السابق، ص 115.

92- البثينة: هي قرية بين دمشق وادرغان أو ناحية الشام ، ياقوت الحموي ج1. ، ص338 .

93البلاذري، المصدر السابق ، ص 107.

94- القاضي عبد الجبار الخولاني ، تاريخ ذاريا ، دار الفكر ، دمشق ، 1404هـ - 1984م ، ص 9.

الاقطاعات الخاصة بخلفاء بني أمية وأمرائها:

كانت هنالك إقطاعات للخلفاء الأمويين في بلاد الشام وإلى جانب الإقطاعات في جميع أنحاء الولايات الإسلامية، ومن هذه الإقطاعات كان لمعاوية بن أبي سفيان ضيعة بالبلقاء كانت لأبيه سفيان بن حرب أيام تجارته إلى الشام في الجأهلية[95].

كما كانت له أرض في فلسطين وكورة عسقلان كما كان قرية سام[96]. في الغوطة وقرية طرميس، كما كان لإبنه عبد الله بن معاوية المرج [97]. وكانت قرية السطح قرب دمشق لعيينة ابن خالد بن أبي سفيان وورثه أبنه عمرو، وكانت الصفوائية[98]. من نواحي دمشق لخالد بن يزيد [99]، وكان لسليمان بن عبد الملك مزرعة تعرف بالسليمانية.

وترك عمر بن عبد العزيز ضيعتي بدأ وجزأين في منطقة بعلبك كما كانت له عين تروى ضياعاً بالسويداء أما هشام بن عبد الملك فقد كانت ضياعاً بالأردن وذكرها قدامة بن جعفر باسم الهني والمرئ، كما اقطع ابنة عائشة براسيفكا تعرف باسمها وكانت قرية ريسون قرية بالأردن ضيعة لمحمد بن مروان [100].

إقطاعات للأمراء والأشراف والقبائل:

منح خلفاء الدولة الأموية للأراضي إلى أمرائهم وخواصهم، فأصبح كثير من الأمراء والأشراف من العرب يهتمون بالري والضياع سواء كان بأرض الشام أو غيرها من الولايات.

95- البلاذري ، المصدر السابق، ص 300.

96- ياقوت الحموي، ج1، المصدر السابق ، ص172.

97- نفس المصدر، ج5 ، ص 100.

98- نفس المصدر ج3، ص 144.

99- عبد العزيز الدوري، المرجع السابق ، ص29.

100- محمد ضياء الدين الرئيس، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، دار الأنصار القاهرة ، ط4،1977م ، ص259.

ومن الإقطاعات التي كانت موجودة في أيدي هؤلاء في بلاد الشام وفي هذه الفترة قرية تنهج لعبادة بن زياد بن أبي سفيان، ولسعيد بن عمر بن عثمان بين عفان قرية الغرين في حوران، ولمسلمة بن عبد الملك أرض بغراس(101). وقرى وضياع شمال سوريا مثل الإسكندرونة إضافة إلى بالس وقراها، التي حفر لها نهراً مقابل الثلث من واردها. بعد العشر، ثم صارت ملكاً لورثته، كما كانت هناك ضياع بيد الأمراء والأشراف، فكان لعمرو بن العاص ضيعة عجلان، وكان لحميدة بن عقبة إقطاع بدمشق وكانت لأبان بن مروان بن الحكم أرض أبان. وكانت من ناحية خولان بالغوطة عدة قرى فيها ضياع لجماعة من أشراف بني أمية، وقد وزعت الأراضي التي لا مالك لها قبل الفتح الإسلامي لبلاد الشام على ملاك جدد وادي ذلك إلى وجود طبقة كبيرة من الملاك الكبار في بلاد الشام، كما تم إحياء كثير من الأراضي الموات على أيدي جماعات قبلية أحيتها وتمتلكتها في مناطق واسعة من مدن وقرى الشام، مثل حمص والرسن على نهر العاص ويبدو أن جماعات كبيرة من هذه القبائل عملت بالزراعة فانتقلوا من ملاك غائبين أو مقاتلة متمركزين في مراكز معينة إلى طور الاهتمام بالزراعة ومزاولتها(102).

- **أراضي الوقف والأحباس:**

كانت هنالك أيضاً بالشام أراضي الوقف والأحباس ويقصد بها الأراضي التي خصصها المسلمون للأغراض الدينية للصرف. على المساجد والمؤذنين والقراء والمنقطعين للعلم، والمجاهدين والفقراء والمحتاجين واليتامى، وفك الأسرى ولبناء المساجد والحصون أو المنافع العامة في بلاد الشام حبس معاوية منطقة الصوافي مصدراً للفقراء المسلمين، كما كانت بغراس في منطقة انطاكية وقفاً للفقراء والمساكين. وكانت الدولة تقطع قطائع متنوعة لفئات مختلفة من الناس، ومنها إقطاعات تمنح إلى أفراد عاديين وإلى أشخاص كانوا

6-عبد العزيز الدوري ، المرجع السابق ، ص 20.

102- عبد العزيز الدورى ، المرجع السابق ، ص 31.

أحراراً، فأصبحوا من المعمرين الرحُل الذين ساءت أحوالهم وهؤلاء الآخرين كانت الدولة تقدم لهم أرضاً[103]. مقابل على أن يدفعوا لها إيجاراً سنوياً وقد عرفت هذه الأراضي في الشام باسم Demos ، كما أنه منحت إقطاعات لبعض الأفراد العاديين كمكافأة عن خدمات قدموها للدولة، ونفترض أن يكون استغلال هذه الأراضي لمدة محدودة ، ولكن ذلك في الواقع كان يستمر طيلة الحياة ، إلا أن هذه الأراضي لم تكن وراثية [104]. وكانت هنالك بعض أنواع الأراضي التي تقطع للفرد فيتمتع صاحبها بملكيتها المطلقة وبحق توريثها ، دون أن يكون مسئولاً عن أية الخدمات فقد اعتادت الدولة منذ أمر بعيد أن تقطع أرضاً بإيجار دائم ، ثم تطور هذا الأمر فيما بعد فنشأ نظام يتيح للفرد الحصول على أرض خلاء غير مزروعة ، على أساس ملكية له ولورثته من بعد ، دون أن يكون ملزماً بزراعة الأرض، ويدفع إيجاراً محدداً ، وهكذا يتبين أن هذه الإقطاعات غير المزروعة ، كانت من المصادر الهامة في تكوين الملكيات الخاصة وتوسعها، وكانت الدولة تساعد كذلك على ازدياد الملكيات الكبيرة واتساعها عن طريق منح الإقطاعات التي كانت تدفعها على الجماعات الموالية لها، من كبار الموظفين الحكوميين والمقربين في الدولة[105] .

وقد أتيح المجال واسعاً أمام كبار الملاك للتمدد لأملاكهم على حساب الملكيات الصغيرة وهكذا أصبحت الأرض في وضع ممتاز إلى جانب الإمكانية التي تتيح للأغنياء وأصحاب النفوذ من الملاك الكبار أن يستخدموا الرشوة للحصول على الإعفاء من الضريبة بينما كان الفلاحون أصحاب الملكيات الصغيرة لا حول لهم بقفون عاجزين أمام تزايد الضرائب المفروضة ولم يكن أمام هؤلاء سوى البحث عمن يحميهم من مطالب الدولة فوجدوا ضالتهم في جيرانهم الملاك الأقوياء ، فقدموا أراضيهم وأنفسهم كموالي في رعاية وحماية هؤلاء الملاك، بما ينطوي عليهم ذلك بتحقيق فائدة كبيرة لهم، من خلال وضع أيديهم على

103- محمد علي نصر الله ، تطور نظام ملكية الأراضي في الإسلام ، دار الحداثة ، بيروت 1982م ، ص 22.

104- عاطف رحال ، المرجع السابق، ص 33.

105- عبد العزيز الدوري ، المرجع السابق، ص6.

أراضي الفلاحين بأن يتنازل الفلاح عن حقه في أرضه لمصلحة المالك الكبير، وبالتالي يصبح مزارعاً يعمل عنده.

لم يكن ضغط الضرائب الباهظة المرهقة للفلاحين هو الذي يرغمهم إلى الخضوع الإقطاعي وفقدان أراضيهم فقط، بل كان هنالك ظروف وأوضاع صعبة تواجههم تؤدي بهم إلى ذات الأمر ، من كوارث وعوامل طبيعية وغيرها تلحق بهم ، كالجفاف والفيضانات ورداءة المحاصيل ثم الحروب المستمرة، وبخاصة مشكلة الديون التي كان يقع فيها الفلاحون، وما يترتب عليها من فوائد كبيرة ، فكان عجزهم عن سداد هذه الديون.

وبمقابل ذلك كانت الملكيات الصغير تتقلص على الدوام ولكن هذا الأمر كان يضر بخزينة الدولة التي عانت بسبب النقص في مواردها الضريبية[106].

أما بالنسبة للعدد النسبي أو الفئات النسبية للأراضي المختلفة في الشام، فقد تبانيت أراء بعض الباحثين حول هذا الموضع إلى أن دانييت يرى أنه لا يوجد اصلاً أي دليل يستند إليه للبحث في هذا الموضوع.

أما كايتاني فيعطى تقريرات تقريبية مقارنة بين أحجام فئات الأراضي المختلفة، وقد استند كايتاني في بناء رأيه على أن الأمويين كانوا كثيراً ما يمنحون القطائع في العراق، ولكنهم نادراً ما أقطعوا في سوريا، والقطائع تمنح أساساً من أرض الصوافي، أي أن الأملاك الخاصة التي تركها أصحابها، لم تكن مساحتها واسعة في سورية وإلا لأقطع منها الأمويون. وعلى العموم لأن السياسة التي اتبعها الأمويون وغالوا فيها في تقديم القطائع والتمادي في منحها حتى من الأراضي التابعة للدولة، بهدف خدمة مصالح السياسة وتحقيق مآربهم الخاصة، قد استفاد منها أشراف القبائل بصورة رئيسية، نظراً أهمية مراكزهم وقدرتهم المالية على الاستثمار الزراعي، فهؤلاء لم يكونوا بأقل رغبة من أفراد الأسرة الأموية نفسها في امتلاك الأراضي الواسعة ، واستثمار أموالهم في الزراعة التي كانت تحقق لهم الإيرادات الضخمة [107]

106- عاطف رحال ، المرجع السابق، ص 36.

107- عبد العزيز الدوري، المرجع السابق ، ص 26.

المبحث الثاني

أصناف الأراضي

- الأرض: تعتبر المورد الثالث واهم مصادر الثروة للمسلمين وغيرهم وكثرت المشاكل حولها، منذ بداية عهد المسلمين في بلاد الشام وقد تركت الأراضي لأهلها يقوموا على فلاحتها ودفع الخراج (108)

أولاً: أنواع الأراضي:

أ/ أنواع الأراضي في حكم الشريعة الإسلامية :

يقول الماوردي في أحكامه : (والأرضون كلها تنقسم إلى أربعة أقسام): على النحو التالي:

أ. ما استأنف المسلمون إحياءه فهو أرض عشر لا يجوز أن يوضع عليها خراج.
ب.ما أسلم عليه أهله فهم أحق به أرض عشر ولا يجوز أن يوضع عليه خراج.
ج. ما ملك من المشركين عنوة وقهراً فاختلف عليها الفقهاء.

1/ فتكون على مذهب الشافعي : غنيمة تقسم بين الفاتحين وتكون على أرض عشر يجوز أن يوضع عليها الخراج.

2/ جعلها مالك وقفاً على المسلمين بخراج يوضع عليها.

3/ وقال أبو حنيفة الإمام مخير بين الأمرين .

د. أرض المشركين التي صالحوا عليها فهي مختصة بوضع الخراج عليها على نوعين:
- أن ينزلوا عن ملكها لنا عند الصلح فتصير وقفاً المسلمين كالذي انجلى عنه أهله، ويكون أحق بها ما قاموا ويكون الخراج المضروب عليهم أجرة لا تسقط بإسلامهم ولا

108- سعيد أبو الفتوح محمد بسيوني ، الحرية الاقتصادية في الإسلام وأثرها في التنمية ، دار الوفاء للنشر ، ط1 ، 1408 هـ ، 1988م ، ص 27.

يجوز لهم بيعها ويكونون أحق بها ما أقاموا على صلحهم ولا تنتزع من أيديهم سواء أقاموا على شركهم أم أسلموا كما لاتنتزع من يد مستأجرها ولا يسقط عنهمالخراج جزية رقابهم إن صاروا أهل ذمة مستوطنين.

- أن يستبقوها على أملاكهم ولا ينزلوا عن رقابها ويصالحوا عنها بخراج يوضع عليها فهذا الخراج جزية تؤخذ منهم ماأقاموا على شركهم فتسقط عنهم بإسلامهم ويجوز أن لا يؤخذ منهم جزية رقابهم. [109]

هذا وقد وضع المسلمون قواعد تعامل وفق أرض الخراج فخراج الأرض يجرد سنوياً ويراعى عند تحديده عدة أمور منها:

سهولة الري وصعوبة زيادة الغلة ونقصانها ، وما يسقي بماء المطر ، ويسقى بماء النهر وهذه الأمور تؤكد حرص المسلمين على صالح زرع الأرض وصالح الأقاليم ذاته وقد طبقت هذه القواعد على الأرض الخراجية في العراق، والجزيرة، وفارس والشام.[110]

- **أرض الخراج:**

كما سبق وأشرنا أن غالبية بلاد الشام وقد فتحت صلحاً على أن يعطي أهلها الخراج والجزية للدولة الإسلامية، إضافة إلى ذلك فإن عمر بن الخطاب لم يقسم الأراضي[111]وإنما جعلها في أيدي أهلها يزرعونها على أن يؤدهاعنها الخراج ، ومن أسلم منهم يعفى من أداء الخراج، ونقل ما بيده من الأرض إلى يد الذميين من أهل قرينة يؤدي منها خراجها إلى المسلمين، وكان عمر بن الخطاب قد أوقف الأراضي على المسلمين حتى لا ينصرفوا إلى الزراعة، وامتلاك العقار الثابت مما يؤدي إلى انصرافهم من الجهاد وفتور الروح العسكرية[112]. ولذكر المعارضة الشديدة التي واجهت عمر بن الخطاب

109- الماوردي ، المصدر السابق ، ص 147.

110- فتحية النيراوي ، المرجع السابق ، ص 145.

111- المارودي ، أو الحسن علي بن محمد بن حبيب ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، المصدر السابق، ص 147.

112- فتحية النبراوي، تاريخ النظم والحضارة الإسلامية ، دار الفكر العري ، 1429هـ، 2008م ،ص 145.

رضي الله عنه من الصحابة رضوان الله عليهم وخاصة بلال بن رباح وذلك عند فتح سواد العراق [113]. حيث ذكر أبو يوسف أن لم افتتح السواد شاور عمر رضي الله عنه، فرأى أن عاصمتهم أنه يقسمها وكان بلال أشدهم في ذلك ، وكان رأي عبد الرحمن بن عوف أن يقسمها وكان رأي عثمان وطلحة ، وكان رأي عمر رضي الله عنه أن يتركه ولا يقسمه حتى قال عند إلحاحهم عليه في قسمته اللهم اكفيني بلال وأصحابه، فمكثوا بذلك أياماً حتى قال عمر رضي الله عنه لهم: قد وجدت حجة في تركة وأن لا أقسمة قول الله تعالى: " لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا " فتلا عليهم حتى بلغ قوله تعالى: "وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ" [114] .قال كيف أقسمه لكم وأدع من يأتي بغير قسم فأجمع على تركه وجمع لخراجه وإقراره في أيدي أهله، ووضع الخراج على أرضهم والجزية على رؤوسهم[115].

كما روى أبو يوسف أن جماعة من المسلمين أرادوا من عمر بن الخطاب على يقسم الشام كما قسم رسول الله (ص) خيبر ، وأنه كان أشد الناس عليها في ذلك الزبير بن العوام وبلال بن رباح، فقال عمر:أذن أترك بعدكم من المسلمين لا شيء لهم!ثم قال اللهم أكفني بلال وأصحابه. قال وتركه عمر ذمة يؤدون الخراج إلى المسلمين[116].

فأوقفها عمر بمشورة الصحابة وموافقتهم، ومنهم علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل، وطبقت نفس القاعدة التي مسح بها سواد العراق على أرض الشام وارتفع خراج الشام، في عهد عمر إلى خمسمائة ألف دينار وفقاً للعملة البيزنطية[117]. وقد ظلت الأراضي الخراجية الزراعية الواسعة موقوفة[118] ، وتدخل قابلاتها إلى بيت المال في عهد الخلفاء

113 – ابن عساكر، المرجع السابق ، ص 186.

114– سورة الحشر ، آية رقم 108.

115– محمد ضياء الدين الرئيسي ، المرجع السابق ، ص 35.

116– أبو يوسف ، المصدر السابق ، ص 71.

117– النظم الإدارية والمالية في الدولة العربية الإسلامية ، ص 135 – 136.

118– عبد العزيز الدوري ، المرجع السابق ، ص 27.

الراشدين، حيث أنهم حرصوا على أن يستعملوا على الخراج عمالاً لا يكلفون الناس فوق طاقتهم ومن ذلك أبا عبيدة بن الجراح فقال: له عمر : يا أبا عبيدة إذا لم استعن بأهل الدين على سلامة الدين فيمن استعين؟ أما إن فعلت فأغنهم بالعمالة على الخيانة، ويقول إذا استمأنتهم على شيء فأجزل لهم العطاء والرزق لا يحتاجون.

وكان يجبي في عهد بن الخطاب من العراق مائة ألف أوقية في كل سنة، ثم يخرج إليه عشرة من أهل الكوفة وعشرة من أهل البصرة يشهدون أربع شهادات بالله أنه من طيب ما فيه ظلم مسلم ولا معاهد. فنجد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قد حرص على حسن معاملة العمال حيث كتب إلى عماله يقول: أما بعد فاستخلف على عملك وإخراج في طائفة أصحابك حتى تمر بأرض السواد كورة كورة فتسألهم ، وتنظر في سيرتهم.. ولكن توزيع هذه الأراضي إلى إقطاعات أدى إلى انتهاء هذه الأراضي إلى أراضي الخراج ، في بيعها يقول في ذلك عبد العزيز الدوري (ألح الأشراف على عبد الملك والخليفتين بعده بإقطاعهم من ارض الخراج فرفضوا ، ولكنهم سمحوا لهم بشراء الأرض الخراجية ، والتي تحولت من عشرية ، وتشمل ذلك ضياعاً واسعة وقرى ، وجاء عمر بن عبد العزيز وأخبره عماله على الأردن والغوطة بانتقال أرض أهل الذمة إلى المسلمين ، فأمر بإيقاف البيع وأصدر أمراً عاماً يمنح الأراضي الخراجية حماية لبيت المال، وربما للحد من تكوين الملكيات الكبيرة)[119]. ويشير عصام الدين عبد الرؤوف إلى هذا المنع يقول(ترك الأرض العشرية إلى ما كانت عليه قبل، كما لم يجعلها أرض خراج ن بل تركها أرض عشر) وأقر بقائها في يد من آلت إليهم، لتعذر إعادتها إلى وضعها الأول ، كما ابقي الأرض التي اشتراها المسلمون بغير إذن ولاة الأمر على حالها لنفس السبب[120]. بل أمر برد الإقطاعات التي أخذت بدون حق مثل الأرض التي قطعت لبني نصر وكانت تابعة لأحدى الكنائس بالشام. أما إن عساكر فقد ذكر أن هذا القرار الذي أقره عمر بن عبد

119- العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الإسلام ، ص 29.

120- ابن عساكر، المصدر السابق، ج1 ، ص ، 596.

العزيز سار إلى سنة مائة من الهجرة (وأن بيع أي أرض خراجية بعد سنة مائة مردود)، وهذه يعني أن عمر قد حصر هذا الأرض التي تم التصرف بها.

وقد سار على هذا النظام الذي طبقة عمر بن العزيز كل من يزيد وهشام بن عبد الملك بن مروان، واستمر هذا المنع إلى أن توفى هشام سنة 125هـ، فعاد المسلمون إلى شراء الأرض الخراجية حتى نهاية الدولة الأموية، وهكذا كان الشراء واضح في تكوين الملكيات، وفي ظهور طبقة ملاك جدد ، فقد كلن هشام بن عبد الملك يحاسب عماله على شراء الأرض الخراجية بشدة، فمن ذلك بلغه أن خالد القسرى اشترى أرضاً من أرض الغوطة ، بدون إذن فرض عليه غرامة مقدارها أربعمائة ديناراً [121].

وكان للالتجاء إضافة إلى الشراء أثر في تكوين ملكيات كبيرة في الدولة الأموية ، فمن أمثلة ذلك انتقال بالس وقراها إلى ورثة مسلمة بن عبد الملك بعد أن اهتم به أهلها [122]. وطلبوا إليه حفر قناة من الفرات إلى أرضهم ، ويقول ذلك عبد العزيز الدوري: (لم يقتصر هذا الاتجاه على بداية الفترة الأموية كما ينظر بعد الفتوح ، ولكنه استمر ولعله ازداد قوة واتساعاً في الفترة الأموية المتأخرة).

2. الأرض العشرية:

هي الأرض التي اسلم أهلها وهم عليها بدون حرب والأرض التي فتحت عنوة وقسمها الخليفة على الفاتحين، والأرض التي أخذت عنوة من المشركين وملكها المسلمون ودفعوا العشر من غلتها، وكان تحديد ضريبة الخراج يتوقف على حالة الأرض ومقدار

121- عبد المنعم صالح نافع ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في الشرق الإسلامي في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك ، رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، 1972م ، ص 149.

122- محمد علي مختار ، دراسات في تاريخ العرب ، دار النهضة العربية للنشر، القاهرة ، 1976م ،223.

خصوبتها[123]. وهي جميعها ملكية خاصة للمسلمين يدفع من ثمرها العشر زكاة ويجوز فيها البيع والشراء [124].

وتعتبر النظرة في الأراضي في الشام، تلك الأراضي التي تركها أصحابها عند الفتح، أو الأرض الموات التي ليست لها مالك فأقطعت للمسلمين فأحيوها بالإضافة إلى أرض الصوافي التي أقطعها الخلفاء الأمويون فأصبحت عشرية.

وهكذا توسعت الأرض العشرية في الشام، وتوزعت في أنحاء مختلف البلاد، فكانت أرض بعض القرى والضياع التي تقع في دمشق وجوارها عشرية كأرض اندركيسان بدمشق، وأرض قبس في البلقاء ، كما أن أرض بعض قرى الغوطة، فقد كانت تدفع ضريبة للصوافي.

ومن الأراضي العشرية كذلك الأراضي المحيطة بأنطاكية. وعموماً فقد كان يتوجب على أصحاب الأرضي العشرية أن يؤدوا عشر المحصول ضريبة على المزروعات، أي أنها ضريبة تجبي بالزيادة أو النقصان حسب إنتاجية الأراضي.

وهكذا يثبت أن أراضي العشر التي كانت تتميز بخصوبتها ووفرة إنتاجها وتنتشر في مختلف نواحي الشام، كما أنها كانت تزداد وتتوسع باستمرار بطرق متعددة ، غير أن ذلك جعل ضريبتها أعلى من ضريبة العشر، مما كان يؤثر على وارد بيت المال وينقص من دخلها [125]

123- السيد عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ، مؤسسة شباب الجامعة ، 2008م ، ص 239.

124- محمد أمين صالح ، النظام العالمي والاقتصادي في الإسلام ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، 1984م ، ص 93 – 94.

125- عاطف رحال ، المرجع السابق ، ص 293.

3. أرض الصوافي:

هي أرض كانت في الأصل ملكاً للأكاسرة أو الملوك الروم أو للمعابد والدهاقين ، وهرب أصحابها منها حين الفتح، فأصبحت لا تعد ملكاً لأحد معين ، وليست كالأراضي التي يقنطها أصحابها.

وهذه الأراضي فالخليفة ينقل ملكها إلى أناس جديدين يستثمروها ويؤدوا عنها الضريبة [126]. لمصلحة بيت المال ولا يتمتع صاحب هذا الإقطاعبحق ملكيته وتوريثها، لأرض الصوافي ما اصطفاها الإمام لبيت المال من أرض ألفي كما فعل الرسول (ص) أو من البلاد المفتوحة عنوة بحق الخمس،[127] أو باستطابة نفوذ الغانمين كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه [128].ثم أقطعت أجزاء منها لما كان يتولى استثمارها، على أن يؤدي لبيت المال ما عليها ، وأول من أقطع عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وكان في بلاد الشام صوافي أخرى، فلما هزم الله الروم وهربت تلك البطارق عما كان في أيديهم من تلك المزارع، فلحقت بأرض الروم، ومن قتل منها في تلك المعارك فصارت تلك المزارع والقرى صافية للمسلمين، وقد حظيت الصوافي بنصيب وافر من سياسة معاوية بن أبي سفيان[129].

وأشار المؤرخ اليعقوبي إلى أن معاوية بن أبي سفيان جعل هذه الأراضي وضياع الملوك في الشام والجزيرة واليمن والعراق خالصة لنفسه عندما أفضى الأمر إليه فأقطع منها فقراء أهل بيته، وخاصته وأعتبر بذلك كانت له الصوافي في جميع أرجاء الدنيا، هذه الإشارة من اليعقوبي تلفت الإشارة إلى الالتباس الواضح، فقد ذكرت صوافي في الجزيرة واليمن علماً

126- يوسف العش، الدولة الأموية والأحداث التي سبقها ومهدت لها ابتداءً من فئة عثمان عثمان ، دار الفكر ، دمشق ، ط1 ، 1965م ، ص 271.

127- عواد مجيد الدلميظي، الزراعة والإصلاح الزراعي في صدر الإسلام ، 1هـ – 132 هـ – 622 – 750م ، مطبعة الجامعة ، 1997م ، ص 12

128- يوسف العش، الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فئة عثمان، دار الفكر، دمشق،ط1، 1965م ص 271.

129- الماوردي ، المصدر السابق ، ص192.

بأن عمر بن الخطاب كان قد أصفى مجموعات خاصة في أرض السواد وأراضي الشام لم يدخل فيها صوافي الجزيرة واليمن ،كما أشار اليعقوبي إلى أن معاوية جعل هذه الأراضي خالصة لنفسه فأقطع منها فقراء أهل بيته وخاصته ، وبمقارنة هذا النص [130] . بنص بن عساكر على الموضوع نفسه ، يظهر مدى المبالغة في تلك الرواية ، يقول بن عساكر عن تلك الأراضي: فلم تزل بيد معاوية حتى مقتل عثمان بن عفان، وأفضى إلى معاوية الأمر، فأقرها على حاله ثم جعل من بعده حبساً على أهل بيته والمسلمين، أي أن معاوية لم بتصرف فيها بل تركها على حالها، ولكن يبدو أن هنالك ضروريات سياسية نشأت في الشام دفعت الدولة إلى اتخاذ ضرب جديد في التنظيم والسعي لخدمة مصالح الدولة، ومن هذه الضروريات محاولة توازن قبلي في بلاد الشام بين اليمانية وبين القيسية، ولذلك أقطع معاوية إقطاعات واسعة في هذا المجال، ولقد أساءفهم هذا الإجراء وفسر بعض المؤرخين كاليعقوبي، موضوع مصالح الدولة بأن يعني مصالح الأسرة الأموية وبالتحديد معاوية، وبلا شك أن معاوية استخدم هذه الأموال في تثبيت دعائم الدولة، وحفظ وحده الأمة، فان يتصرف ما يراه مناسباً لصالح العام ولا يمنع ذلك الإحسان إلى أسرته والمقربين إليه بالمعروف، وقد أمر معاوية بإعادة مسح الصوافي في عهد الدولة الأموية وأضاف أراضي واسعة بعد العشور على سجل الضياع الساسانية ، التي أصبحت تحت تصرف معاوية المباشر، فكان يسد منها بعض حالات العجز في النفقات العامة ، فقد بلغ صوافية بالعراق وما يتبعه مائة مليون درهم، وكذل فعل بصوافي أرض الشام والجزيرة واليمن حتى فدك اصطفاها لنفسه، ثم أقطعها لمروان بن الحكم ، وظلت كذلك طيلة العهد الأموي ، باستثناء عصر عمر بن عبد العزيز الذي أعادها للملكية العامة [131]. وشجع القطاع الخاص على استثمارها ، كما رد فدك لبيت المال ووضع ما يأتي

130- اليعقوبي ، المصدر السابق ،ص 152.

131- علي محمد الصلابي ، أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان شخصيته وعصره ، دار الأندلس للنشر ، ط1،1429هـ ،2008، ص 290.

منها في بناء السبيل، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدين من بعده، كما أمر باستثمار أراضي الصوافي حين كتب إلىواليه على العراق [132].

أرض الموات:

هي أرض ليست من مرافق البلد ولا مملوكة لأحد ولاحقاً خاصة له، وكانت خارجة من البلد سواء كانت قريبة أو بعيدة، وقيل الموات ما ينتفع به من الأراضي لانقطاع الماء عنه أو لقلة الماء عليه أو شابه ذلك ما يمنع الزراعة[133]. ورأى ذلك في أرض الخراب بالكوفة موات وقال عمر: من أحيا أرضاً ميتة فهي له.

الموات هي التي لم تعمر، شبهت العمارة بالحياة وتعطليها بفقد الحياة [134].

وكان إحياء الأرض الموات يعتبر عاملاً مهماً في تكوين الملكيات الخاصة وفي تكوين اتساعها، وتعرف الأرض الموات بأنها الأرض التي لم تزرع سابقاً ولم تكن في ملكية احد، وليست حديا لأهل القرية أو تابعة لهم، أو تستعمل من قبلهم لأي غرض من قبلهم كان[135].

ويفترض لكي يصبح إقطاع هذه الأراضي فمن ملكية صاحبة شرعاً ، أن تقوم بتنفيذ بعض الالتزامات العملية. كشروط تدل على إحياء هذه الأرض فقد كان عليه أن يعمل على إيصال المياه إلى هذه الأرض أو احتفار بئر ماء فيها ، والقيام بتجفيف المستنقعات إذا كانت تغمرها المياه ثم مباشرة فلاحة الأرض وزراعتها بعد ذلك يعطى صاحب الإقطاع حق الملكية التامة للأرض، إلا أنه كانت تعطى مهلة ثلاث سنوات لإحياء الأرض وإلا استرجعت من صاحبها، ثم حررت المهلة بعد ذلك لمدة عامين ، وأصبح إحياء الأرض

132- علي محمد الصلابي ، المرجع السابق ، ص 113.

133- شحاته الناطور وآخرون ، مدخل إلى تاريخ الحضارة العربية والإسلامية، دار الأمل ، ألبد، ط1، 1989م ، ص256.

134- إبن حجر العسقلاني ، الإمام الحافظ احمد بن علي بن حجر العسقلاني، ترجمة محمد فؤاد عبد الباقي ، محي الدين الخطيب ، فتح الباري صحيح البخاري ،852هـ مؤسسة الفرقان – بيروت ، ج5 ، ص18.

135- البلاذري، المصدر السابق ، ص 154.

بحاجة إلى إذن من الحكام. وقد أدى ذلك بل شك إلى اهتمام المسلمين باستقلال الأراضي لتكون ملكاً لمن يستصلحها ويعود خيرها إليه، وبالتالي ينتفع المجتمع بأكمله[136]. وعلى العموم فإن إحياء الأرض الذي أصبح في العصر الأموي يستدعى إذن من الولاة ، ثم جعل المهلة لمدة عامين فقط لإحيائها، وقد يجد تبريراً له، بشدة الإقبال على اقتناء الأراضي أو لندرة الأراضي الموات، وبخاصة في بلاد الشام ، وفي البداية كان المجال واسعاً أمام الفاتحين يملكون ما يرغبون من الأرض في بلاد الشام ، إلا أن المقاتلة القادة من عرب أهل الشام، كان اهتمامهم في امتلاك الأراضي ضعيفاً في بادئ الأمر، لانهماكهم بالغزو والجهاد، وكثرة ما أصابوا من الغنائم في الفتوح والحروب [137]. ما عدا فئة قليلة من الارستقراطية القبلية، وخاصة من أشراف قريش الذين كانوا مدركين منذ البداية لأهمية استثمار أموالهم في استغلال الأراضي. وقد ساهم رجال بني أمية في ذلك الإنجاز، فأحيوا أراضي أموات عديدة بعد أن أنفقوا عليها نفقات طائلة، وبعض الأخبار الواردة عن ذلك تدل على غزو أكبر وتضحية كبيرة ، لا عجب أن عادت على أهلها بعد ذلك على أصحابها بالخير.

تعود عملية إحياء الأرض وزراعتها إلى عهد الخليفة معاوية بن سفيان وواليه زيادة بن أبيه فحيث ربط زياد بن أبيه عملية إقطاع الأراضي وبين إحيائها، فكان لا يقطع أرضا لشخص حتى يقوم بأحيائها وإذا أقطع الرجل وتمضي سنتان ولم يعمرها يأخذها منه، وهكذا استمر ولاة بني أميه في الاهتمام بالزراعة، ففي العراق أولى الحجاج بن يوسف الثقفي عناية واهتماماً وانه قام بدور مهم وأساسي في استصلاح البضائع وخاصة عندما تقدم مسلمة بن عبد الملك وعرض عليه ثلاثة ملايين درهم لاستصلاحها ، وكان الحجاج[138]، المشرف المباشر على الصرف والإنفاق ولما بنى الحجاج مدينة واسط احتفر النيل والتراب

136- محمد محمد عبد القادر الخطيب، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، مطبعة الحسين الإسلامية للنشر، ط1، 1991م ص، 121.

137- حسين عطوان ، المرجع السابق ، ص 154.

138- صلاح طهبوب ، العصر الأموي ، دار اسامة للنشر، الأردن، ط1 ، 2006م ، ص 153.

وأحيا هذين النهرين الأرض وكان الحجاج يقوم بجولات تفقدية في الحقول الزراعية ويستفسر من الفلاحين على أحوالهم وأحول غلاتهم الزراعية ولم يكتف بذلك فحسب إنه كان يأمر بإقامة حفلات رسمية في مدينة واسط في أوقات نضوج بعض الغلات الزراعية، وفي مصر أولى عبد العزيز بن مروان في خلافة أخيه عبد الملك عناية كبيرة لشئون مصر الزراعية فشجع الوليد بن عبد العزيز وأخوه مسلمة زراعة النخيل والكروم والتين.

وفي الجزيرة شجع الوليد بن عبد الملك وأخوه مسلمة على إحياء بعض أراضي الجزيرة وزرعها وحفر الأنهار فيها ، وكذلك اهتموا بالأرضي الزراعية في ازربيجان والواقع أن الأمويين أسهموا من بيت المال إلى جانب رؤوس الأموال الفردية مساهمة في إحياء الأراضي وزراعتها. واهتم الأمويون بتجفيف المستنقعات بين البصرة والكوفة[139]. وهكذا اجتمعت جهود الدولة مع جهود القادرين من أفرادها على إحياء الأرض الموات واستغلالها لمصلحة بيت المال في النهاية. ولكن ذلك العمل العظيم لم يخل من سلبيات وتجاوز كشأن أعمال بني البشر... كما لم يخل محاولات لشئون بني أمية، واختلاف الأخبار عليهم. ومن النوع الأخير ما يرويه البلازري عن عباس بن هشام الكلبي عن أبيه أن يزيد بن عبد الملك كتب إلى عمر بن هبيرة أنه ليست لأمير المؤمنين بأرض العرب فرصة، فأخذ فضولها لأمير المؤمنين، ففعل حتى ضج الناس، فأمسك، وابن الكلبي معروف بمقالاته في التشيع، بغضته بني أمية، ويدل على فساد روايته، أن الخليفة أقطع ابن هبيرة ألف وخمسمائة جرين من أراضي آل المهلب، ولو كان يرغب في اقتناء القطائع لأخذها لنفسه وقد تعرض تاريخ يزيد كتسوية كبيرة كما مر بنا، من أمثلة السلبيات والتجاوزات أن بعض الولاة استباح لنفسه استصلاح هذه الأراضي ، وهذا في الأصل أمر مباح فإن من أحيا أرض موات فهي له ولكن من المرجح أن يفتح هذا الباب أمام الولاة الفرصة لأستغلال مناصبهم في ذلك العمل الذي يعود عليهم بربح عظيم .... ومن الأمثلة الصادقة

139- صلاح طهبوب، المرجع السابق ، ص 154.

على ذلك ما فعله خالد القسري في استثناء ولايته على العراق، فقد استصلح أرضاً غلت عليه، ثلاثة عشر ألف درهم، ويبدو أنه استغل في ذلك منصبه، حيث كثر الخراج في العراق فعزله هشام، وأمر واليه الجديد يوسف بن عمر بحبسه. ولكن هكذا دائماً تظل أي محاولة للخلفاء أو الولاة موضع شك ما دام الغرض منها تكثير الأموال وهم مازالوا في دائرة الحكم مسلطة عليهم الأضواء غير أنه لا يصلح بحال أن تجعل من هذه الاستثناءات السمة العامة للممارسات الاقتصادية في العصر الأموي[140].

140- حمدي شاهين، الدولة الأموية المفترى عليها دراسة الشيهاب ورد المفتريات، دار القاهرة للنشر، ط2، 25، ص 113 – 114.

المبحث الثالث

عيد النيروز وارتباطه بجباية الخراج

عيد النيروز وارتباطه بجباية الخراج في العهد الأموي:

ظل النيروز كما في العهد الساساني والبيزنطي أول السنة المالية طوال حكم الخلفاء الراشدين والأمويين، فكان النيروز هو موسم جباية الخراج وربما هذا الموعد من كل عام قد طبق في الولايات الإسلامية التي تم فتحها على عهد عمر بن الخطاب، ويتم فيها مسح السواد وحدد فيها ضريبة الجزية والخراج.[141]

وإذا كان النيروز هو بدء السنة المالية إلا أن الخراج كان يجبى في عهد الساسانيين في ثلاثة أنجم .[142]

وربما طبق العرب ذلك في العراق وفي مناطق أخرى ، أو يذكر الطبري أنه في كتاب الصلح الذي كتبه عمرو بن العاص لأهل مصر "إن عليهم ما عليهم ثلاثاً فيكل ثلث جباية ثلث ما عليها". وإذا كان الخليفة عمر قد قام بمسح السواد ، فلا بد أن يكون قد قام بهذه العملية في الشام والجزيرة ، بالرغم من أن المصادر العربية لا تذكر سوى أن القادة فرضوا الجزية والخراج. ولكن ليس هنالك ذكر آخر لمقدار الخراج المفروض على أرض إلا إذا اعتبرنا أن الخراج كان يؤخذ عيناً في الجزيرة والشام وأن مقداره كان مدين من الحنطة وثلاثة أقساط من الزيت في كل شهر لكل إنسان وودك وعسل. [143]

وقد كان الفرس يكبسون السنين شهراً كل مائة وعشرين سنة ، وكان من الممكن أن يضيفوا يوماً واحداً كل أربع سنوات بنفس طريقة الروم، ويعتبر يوم النيروز هو يوم يجمع فيه

141- أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ، دار المسرة ، بيروت ، ص 71.

142- الطبري ، المصدر السابق ، ج4 ، ص 109.

143- البلاذري ، فتوح البوات ، المصدر السابق ، ص 131.

الخراج ، ولم يكن لعيد النيروز في صدر الإسلام ، ونشأت في المجتمع الإسلامي (خاصة وأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد نهى عن الاحتفال به).

إلا أن معاوية بن أبي سفيان بعد أن تولى الخلافة أعاد الاهتمام به لبعض العوامل الاقتصادية، فقد أعاد معاوية هدايا النيروز والخراج وأمر أن تحمل إليه ، فكان يحمل إليه في السنة عشرة الآلاف درهم (عشرة ملايين درهم) .

أما عمر بن العزيز فقد رفض أن يقبل من المسلمين هذه الهدايا ، وكان يكتفي في خراج النيروز بجمع الخراج وحده ، ويرفض ما عدا ذلك من الهدايا.[144] إلا أن الخلفاء قد عادوا فقبلوا هذه الهدايا ، وكانت هدية حسان النبطي إلى هشام بن عبد الملك من الكثرة والفخامة حتى أن هشام استكثرها لنفسه ، وأمر أن تضمن لبيت المال.[145]

وأما عن علاقة جباية الخراج وأعياد النيروز في الدولة الإسلامية، فتوضح بأن جباية الخراج كانت في السنة الهجرية في عهد الخلفاء الراشدين على الرغم من أن جني المحصول يتم حسب فصول السنة ، ولكن تعاقب الفصول واختلافها مع السنة الهجرية جعل أمر جباية الخراج عسيراً في نهاية السنة، بحيث أصبح استحقاق جباية الخراج في نهاية العام الهجري لا بدايته ، الأمر الذي دعا إلى تحويل السنة الخراجية السابقة إلى السنة التالية لها. [146]

ومن هنا وجد سبب رئيسي لبقاء النيروز في الدول العربية باعتباره عيد رأس السنة، التي اختارها العرب مقياساً لزمانهم ، وعليه يتوقف تحصيل الخراج ، كما أضاف سبباً آخر لبقاء هذا العيد في الدول الإسلامية بقوله لقد استدعى هذا التقليد انتباه خلفاء بني أمية ،

144- اليعقوبي، المصدر السابق، ج4، ص 306.

145- ابن عساكر ، المصدر السابق ، ص 21.

146- القلقشندي ، المصدر السابق ، ج13، ص 54.

ووجدوا فيه فرصة سانحة لأن تكون الهدايا التي تقدم في أيام عيد النيروز مورداً آخر من موارد الدخل للدولة. [147]

على أن يبدو أنه لم تكن له الصفة الرسمية حيث أبطل الإسلام كبس السنين، ونشأ من ذلك أن حل معاوية جباية الخراج قبل نضج الزرع وأدرك هشام بن عبد الملك ما يحلق بالزرع من ضرر نتيجة لذلك.

وقيل أن الدولة الأموية قدمت جباية الخراج نحو من شهر فاجتمع أصحاب الأراضي في عهد هشام بن عبد الملك (105 – 125هـ) وطلبوا إليه أن يؤجل معياد الخراج هذا الشهر.[148]

ولكن الخليفة ، رفض محتجاً بقوله : (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلِّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ).[149]

147– القلقشندي ، المصدر السابق ، ج13، ص 54.

148– حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن، النظم الإسلامية ، ص 244.

149– سورة التوبة ، الآية 37.

المبحث الرابع

تنظيم ري المحاصيل

فهو بالغ الأهمية إذ عليه تتوقف وفرة الإنتاج الزراعي وبذلك اهتمت السلطات في الدولة الإسلامية بنظام الري [150]. كانت لعمليات مسح الأراضي أهمية أساسية في كشف طوبوغرافية الأرض وتمهيد الطريق إلى معرفة قابلية الزراعة والإنتاجية وإلى إقامة العديد من مشاريع الري فيها[151].

بعد أن فتح الله على مسلمين بلاد الشام والعراق ومصر كانت أهداف عمر بن الخطاب رضي الله عنه تنشيط الزراعة في البلاد المفتوحة، حتى تجني البلاد الإسلامية والأمة الإسلامية جميعاً من خيرات هذه البلاد، فعلى سبيل المثال فإنه خص ثلث إيراد مصر لعمل الجسور والترع لإصلاح طرق الري كما يشترط على أهل الذمة إصلاح الجسور والطرق[152]. وقد اعتنى العرب الذين وفدوا إلى هذه البلاد بالزراعة فيذكر محمد علي كرد على لسان أحد علماء الأفرنج قوله عن العرب! (والعرب عمال زراعة ورجال براعة برعوا في سقي الجنائن واخترعوا النوافير العجيبة ووطنوا النباتات)[153]. وقد اعتنى الخلفاء الأمويون والولاة في الأقاليم بإصلاح وسائل الري وإقامة السدود والقناطر[154]. وتطهير الترع وردم المستنقعات وحفر الأنهار والجداول والعناية بالطرق.

وكان يصرف من بيت المال في عهدهم مبالغ لتحسين هذه الوسائل القديمة التي صممت منذ العصر الروماني ، ومنها مدينة دمشق التي أجروا فيها القنوات لتوصيل المياه إلى داخل المدينة ، من هذه المنشآت الرومانية لبتي حفظتها لنا أمهات الكتب

150- حسين علي المسيري، أساسيات الحضارة العربية والإسلامية ، مكتبة الفلاح للنشر، ط1،1420هـ 2000م، ص 132.

151- صلاح طهبوب ، المرجع السابق ، ص 155.

152- البلاذري ، المصدر السابق ، ص 178.

153- المصدر نفسه ، ص 146.

154- محمد عادل عبد العزيز ، الحضارة الإسلامية عوامل الازدهار وتداعيات الأنهار ، درا غريب للنشر ، 2000م ، ص، 250.

الإسلامية ، وما ذكره المقدسي عن مدين (مور) فذكر أن لها قناة معلقة يدخل منها الماء إلى المدينة.

كما ذكر إبن شداد عن قناة أخرى لمدينة حلب: أن هذه القناة كانت من قبل هي عين إبراهيمالخليل (وتأتي من حيلان شمال حلب) . أن الملك الذي بنى حلب وزن ماءها إلى وسط المدينة وبنى عليها ، وقد وصف تركيب هذه القناة وصفاً دقيقاً ، كما ذكر أن قد جددت في عهد عبد الملك وإنما هي في الأصل من المنشآت الرومانية القديمة.

ولما تولى الأمويون الخلافة الإسلامية عنوا كثيراً بطرق الري الزراعية ، سواء كان القديم منها أو الحديث، وفي ذلك يقول عبد القادر عياش : أن الأمويين اعتنوا بالري في وادي الفرات في سوريا وأخرجوا من الفرات الجداول والترع، العديد التي روى التاريخ الإسلامي أسماءها وأوصافها في ضفاف الفرات بالذات بأن بها إنشأوا للري منذ عصر الأكاديين السومريين حيث أنشئوا السدود وشقوا الجداول ونظموا الري وبنو خزانات المياه واستخدموا الري المنظم، فأخرجوا بذلك العديد من المحاصيل الزراعية ومنها الشعير والقمح والذرة والتمور والزيتون.

وقد ظهرت عناية الخلفاء الأمويين بمنشآت الري الزراعية ومياه الشرب في العديد من مدن بلاد الشام [155].

سواء كانت هذه المنشآت تخدم العامة أو الخاصة، فعل سبيل المثال نذكر أن قصر الحليات وهو احد القصور التي أنشأها خلفاء بني أمية في الشام، (شرق مدينة الزرقاء بالأردن) وأنشئت إلى الشمال الشرقي منه بركة كبيرة ووجد عندها بعض المنشآت المهدمة الان تماماً.

155– دونالدو هيل، ترجمة خالد ساري ، التقنية في الحضارة الإسلامية، مكتبة الفلاح للنشر ، (د – ت)، ص 179.

ولا يستبعد بأن الماء كان يجلب إليها من الأزرق أو من وداي الخليل بالإضافة إلى ما يجتمع فيها من مياه الأمطار، وإذ أسمته بالأستصلاح الزراعي أن هذه المنطقة هي على تخوم البادية كانت ولا تزال أرضاً زراعية،

ويقول عبد العزيز الدوري في ذلك: (وتجدر الإشارة إلى أن قصور الأمراء الصحراوية لم تكن للنزهة فقط بل مراكز للاستثمار الزراعي) ويضيف إلى ذلك قوله : (وكانت منشآت الري حولها من قنوات وصهاريج وصحارى لإرواء حقول ومشاريع زراعية في المنطقة بين الصحراء والأرض المزروعة على الحد الشرقي جهة بادية الشام) ، وهي أن كانت على أثار مشاريع سابقة إلا أنها تدل على تقرير الأمويين لأهمية الأرض وعلى إحياء أرض خالية بعد الفتح [156].

ومن الإنشاءات أن التي أنشأها في بلاد الشام الخليفة الأول معاوية بن ابي سفيان من أجل العناية بالزراعة حفر الأبار وإقامة السدود للإنتفاع بالمياه[157]. وإنشاء المصانع على الطرق.

ومن الأعمال الجليلة التي خلدها التاريخ ليزيد بن معاوية هو حفر نهر سماه باسمه في سفح جبل قاسيون[158]. ويذكر ياقوت الحموي ، أنه انه يبقى أملاً يصل إليه ما بردى وماء ثورى.

وقد ذكر إبن عساكر عن أسباب إنشائه (إنه كان نهر صغير "ببناطي") يجرى فيه شيء من الماء يسقي ضفتين في الغوطة لقوم يقال لهم : بنو غوطة ولم يكن لأحد غيرهم، فماتوا في خلافة معاوية بن سفيان ولم يبق لهم وارث، فأخذ معاوية ضياعهم وأموالهم، فلم يزل كذلك حتى مات معاوية في رجب سنة ستين وولى أبنه يزيد فنظر إلى أرض واسعة

156-زكي محمد حسين ، فنون الإسلام ، دار الفكر العربي ، دار الكتاب الجديد – الكويت ، 1394هـ ، 1974م ص 44 -53.

157- يوسف العش، الدولة الأموية، المرجع السابق ، ص 158.

158- ياقوت الحموي ، المصدر السابق، ج5، ص 426.

ليس لها ماء – وكان مهندساً، فنظر إلى النهر فإذ هو صغير ، فأمر بحفره ، وفمنعوه من ذلك أهل الغوطة ودافعوه، فلطف بهم على أن ضمن لهم خراج سنتهم من ماله ، فأجابوه إلى ذلك ، فاحتفر نهر سعة عرضه ستة أشبار في عمق ستة أشبار. أما عهد الوليد بن عبد الملك فقل قبل أن نجد مصدراً من أمهات الكتب الذي لم تتحدث عن المنشآت في عهده ، فقد كان مهتماً بالعمارة والبناء وقلده في ذلك رعاياه، فأقام المصانع والجوامع وحرص الناس في أيامه على التشييد والتأسيس[159].

ويقول الثعالبي في ذلك (كان الأغالب على الوليد بن عبد الملك حسب البناء ، واتخاذ المصانع واعتقاد الضياع ، كما ذكر الطبري في رسالة الكتب إلى أعمال الولايات بإصلاحات طرق الري)[160].

وقد اهتم الوليد بالعناية بطرق وصول الماء إلى المسجد الأموي عن طريق القنوات من جميع أبوابه ، وإنشاء فوارات المياه بداخله، وكان الوليد بن عبد الملك لما بنى المسجد اشترى ماء من نهر السكون يقال له (الوافية فجعله في القناة إلى المسجد).

ولما بنى سليمان بن عبد الملك مدينة الرملة شكا إليه أهالي المنطقة قلة الماء لديهم، وذكر القلقشندي أنه كان لديهم قناة ضعيفة قد أهداها لهم عبد الملك، يبدو ان هذا غير صحيح لأن المدينة بناءها سليمان بن عبد الملك، فربما هناك خطأ غير مقصود من ذكر القلقشندي ، لعبد الملك ، أو أن الفئات التي ذكرها كانت خارج المدينة ، أما البلاذري فقد ذكر أن سليمان (احتفر لأهل الرملة قناتهم التي تدعى بردة ، واحتفر آبار أخرى، وولى المنطقة على بنائها بالرملة مسجد الجماعة كاتباً نصرانياً يقال له البطريق) [161] .

159– محمد كرد علي ، المرجع السابق ، ج2 ، ص 170.

160– الطبري ، المصدر السابق ، ج6، ص 437.

161– القلقشندي ، المصدر السابق، ص 100.

وذكر إبن عساكر أنه: (انه قلة الماء في خلافة سليمان بن عبد الملك حتى لم يبق في بردا إلا شيء يسير ، فشكوا ذلك إلى سليمان ... فأمر سليمان بن عبد الملك بكراء الماء من أصل ماء العين وظل العمل بهذا الكراء طوال خلافة سليمان) [162]. كما ذكر أن عمر بن عبد العزيز كانت عين ماء السويد تروى ضياعاً له[163]. واهتم هشام بن عبد الملك بالإنشاء والتعيمر والعناية بالزراعة وطرق الري [164]. فقد قال المسعودي عنه : (كان يجمع الأموال ويعد الأرض والضياع.... واتخذ البنى والبرك ، بطريق مكة) [165] .

ولما بنى قصر الحائر في بادية الشام أجرى بها قناة تمتد حوالي 40 كيلو متراً ، كما أمر بحفر نهيرات صغيرة من دمشق لتزويد أهلها بالمياه اللازمة للري والشرب [166].،وامر بحفر ترع دمشق لما شكا إليه الناس من قلة الماء.

كما أمر ولاته على الأقاليم بشق الأنهار والاهتمام بطرق الري الزراعية[167]. كما شكا الناس من أهل (حرستا) إلى هشام قلة المياه ، وسألوه شرب سائقهم وماء لمسجدهم، ومن ماء نهر يزيد ، فكلم هشام فاطمة بنت يزيد في ذلك فأجابته (على أن يحتفر نهراً صغيراً يجرى إلى مسجدهم للشرب)، وفتح الحجر الذي يمر منه الماء بقرية حرستا ، ويجرى لهم من الأرض على مقدار شبر من ارتفاع بطن الأرض، وسأله عبد العزيز مولى هشام – أن يجرى أهم شئ ويسقى ضيعته ، فأجابه بعد أن سأل في أمره يوم الأربعاء ، وصيرت لهم ماصية ، فتحتها شبر في أصغر من شبر ، ثم سأله خالد على أن يسقى ضعيته فاجابه إلى يوم الخميس ، فهيئت عليه ماصية كحكايته).

162– البلاذري ، المصدر السابق ، ج4 ، 149.

163– إبن عساكر، المرجع السابق، ص 346.

164– عبد العزيز الدوري ، المرجع السابق، ص20.

165–حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السيسي ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة، ط7، 1465هـ ، ص333.

166– حسن إبراهيم حسن ، المرجع السابق، ص 161.

167– عبد المنعم صالح ، المرجع السابق ، ص 153.

كما أحيا هشام أرض وأسعة بالرصافة، وحفر نهرين لإروائها[168].

ويذكر لنا فواز طوقان عن طرق الري بقصر الحائر الغربي (رصافة هشام) عن أبنية تتواجد معها أعمال مائية ضخمة للسقاية والري التي تستمد من سد حديقة على بعد 16.5 كيلوا متراً جنوبي القصر، وكان هذا السد قد بنى منذ عهد الرومان، ويذكر أن وراء هذا السد كانت تتجمع المياه في بحيرة صناعية، بلغت مساحتها 1500X800 متر تقريباً ، ويشير أنه بوصول المياه إلى هذا السد من السيول قد تكونت مع الزمن رواسب طينية داكنة، وبالتالي أصبحت أرضاً خصبة صالحة للزراعة وما زالت تستخدم حتى اليوم، كما يشير إلى طريق وصول مياه السد إلى القصور كانت تتفرع منها عدة قنوات في ري المزروعات وغيرها.

ولم تتوقف الإنشاءات الخاصة بالري وطرق الزراعة بعد عهد هشام بن عبد الملك – فذكر على سبيل المثال حفر نهر في الأردن في عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك [169]. وهذا ولم يقتصر بناء الإنشاءات الخاصة بالري على خلفاء بني أمية ، فقد قام الأمراء وكبار الدولة أيضاً بهذا الدور الهام في الدولة الأموية مما يذكر في هذا الصدد ان مسلمة بن عبد الملك حفر نهراً من الفرات ليسقى أراضي أهل بالس والقرى القريبة منها، بعد أن سأله أهلها أن يحفر لهم النهر على أن يجعلوا له الثلث من غلاتهم بعد تسديد العشر ، فحفر لهم النهر الذي سمي باسمه[170].

كما ذكر محمد علي كرد أنه كان للغوطة حظ عظيم من العناية في العصر الأموي حيث تركها رجال بني أمية وعمروا فيها القصور وأنشأوا المزارع وشقوا الجداول وعنوا باستثمارها. ويضيف عصام الدين عبد الرؤوف عن دمشق ومنشآت الري بها بقوله: (وكانت بيوت دمشق تصل إليها مياه الشرب)، ومع أن نهر بردى كان يمد المدينة بما تحتاجه من الماء،

168- إبن الأثير ، المصدر السابق ، ج5 ، ص 241.

169- الطبري ، المصدر السابق ، ج7 ، ص 248.

170- البلاذري ، المصدر السابق ن ص 155- 156.

فإن الأمويين أظهروا مهارة منقطعة النظير في تجهيز بيوت المدينة بما تحتاجه من ماء وذلك بإقامة أحواض تنشق منها الماء الصافية كما أقاموا سبعة جداول تجري في أنحاء المدينة بالإضافة إلى المجاري العديدة التي كانت تربط كل منزل بالمجرى الرئيسي.وتذكر المصادر عدة أسماء لآلات الري التي كانت تستعمل في بلاد الشام ، الدلو، والقرب، والناضح، والسانية. بالإضافة إلى آلات أخرى كالنواعير والدوالي والدواليب(171).

أما النواضح أو السواني فهي الإبل التي كانت تستخدم لتحمل القرب وهو دلو الماء الكبير الذي يستعمل في ري الأرض. ويدل ذلك أن هذه الأرض لم يكن يتوفر فيها العديد من أبنية وسائل الري، في مدينة الرملة في فلسطين التي يكثر فيها الآبار والصهاريج (172).وكذلك الأفنية فكان الدلو أكثر من غيره يستعمل في الري أما الآلات الأخرى للري فكانت تأتي أهميتها في ري الأرض المرتفعة عن مستوى مجاري الأنهار لاسيما أن أكثر الأنهار كانت فائدتها الطبيعية في الري قليلة لأنها تجري في أودية عميقة لنهر العاصي ونهر الأردن(173). فكانت الناعورة عبارة عن دولاب يديره ستار النهر، ويحمل كاسات مصنوعة من الخشب ، ومسبوكة بحبال ، تصل إلى الماء فتمتلئ ثم تتفرغ ما حملت من الماء في المكان المخصص لصبها ، وكانت تسمى النواعير. أما الميدالية فهي تشبه الناعورة، من حيث أنها دولاب تحمل الدلاء الصغار، ولكن الرحى الموجودة على الأنهار هي التي تديرها ، وكان الدولاب أو ما يسمى بالمدار، تديره الحيوانات فيرفع المياه من النهر لتجمع في أحواض، ثم تجري المياه في المجاري إلى الأرض المطلوب ريها، وعند حدوث فجوة أو تقاطع في مجرى الماء ، تستعمل ألواحا من الخشب لها حافتين تجري فيها

171–الماوردي ، المصدر السابق، ص 149.

172 إبن عساكر ، المصدر السابق ، ص 91.

173–فيليب حتى، مرجع السابق، ص 121.

مياه[174]. فقد كانت منطقة دمشق ، أكثر ما استعمل فيها الدولاب، وبخاصة على نهر يزيد[175].

أنواع المحاصيل والري وتربية الماشية في بلاد الشام:

كان الشرق الأدنى أقرب إلى الغرب الذي يعتمد في غذائه على القمح، منه إلى الشرق الذي يعتمد على الأرز. فالقمح والشعير من الحبوب التي تزرع وتنمو في الأرض الغير مروية ، ويعتبر من المزروعات الرئيسية في بلاد حوض البحر المتوسط.

وبخاصة في بلاد الشام التي تعتمد في ري مزروعاتها على مياه الأمطار بصورة رئيسية كما ذكرنا سابقاً، فقد كان طبيعياً أن تنشط في هذه البلاد زراعة القمح والشعير التي تعتمد على مياه الأمطار فقط ، فلا تحتاج إلى ري أو مزيد من الماء ولهذا فقط كان منتوج القمح والشعير من أهم المحاصيل الزراعية في بلاد الشام، بالإضافة إلى أهمية إنتاج الأشجار المثمرة كالكروم والزيتون والنخيل وتأتي أخيراً بعض الغلات الأخرى من باقي الحبوب والفواكه والخضر التي كانت تقل في أهميتها بالنسبة للإنتاج الزراعي، وكان إنتاج بلاد الشام كبيراً من القمح ، بدرجة أن بعض مناطقها كانت تنتج أكثر من حاجة البلاد لاستهلاكها المحلي، وبذلك اعتبر هذا المحصول المورد الرئيسي في الزراعة في بلاد الشام.

وكان أهم مناطق زراعة الحبوب، وخاصة القمح والشعير في مناطق حمصوحواران ، وشرق الأردن[176] وتعتبر منطقة البلقاء في جنوب دمشق بمزارعها الواسعة مهمة جداً في إنتاج الحبوب وجودته ، حيث كان يضرب المثل بجودة حنطتها وخاصة عمان عاصمة البلقاء التي كانت مركزها مهماً في إنتاج الحبوب[177].واشتهرت قرية البثينية التيتقع بين

174- كلود كاهن ، المرجع السابق، ص121.

175- عاطف رحال ، المرجع السابق ، ص 147.

176- عاطف رحال ، المرجع السابق ، ص 148.

177- ياقوت الحموي ، المصدر السابق . ج1 ، ص 151.

دمشق وأزرعات بجودة حنطتها وكذلك فحبة قمحها كانت كبيرة أو مدحرجة كما كانوا يصفونها، فكانت شهرتها أن نسبت حنطتها إلى اسم البلدة فعرفت باسم بثنية الشام، وكانت منطقة حمص تنشط فيها زراعة الحبوب وبخاصة القمح في أرض إنطاكية فإنهم كانوا يزرعون القمح والشعير تحت شجرة الزيتون(178). ولم يكن سهل البقاع يقل أهمية عن إنتاج القمح كذلك، أما زراعة الشعير فيبدو بأنها كانت نشيطة في دومة الجندل(179). فقد كانت تتركز زراعة الشعير والقمح في أرض مدينة بالس التي تقع على شطري الفرات(180). أما الذرة فإنها كانت تزرع في بعض نواحي حلب(181).

ويعتبر الأرز من المزروعات الاستوائية التي كانت زراعته مستوطنة في نطاق المحيط الهندي قبل الإسلام ، كان يزرع الأرز في بعض أرض الشام المناسبة، في مناطق غور الأردن وعلى ضفاف نهر الأردن والبحر الميت وبحيرة طبرية، ويقول المقدسي لأن مدينة بيسان في جنوب الأردن كانت مركزاً مهماً لزراعة الأرز.(182)

أما أشجار الزيتون فكانت منتشرة في مناطق واسعة في بلاد الشام، وتعتبر أشجار الزيتون من المزروعات القديمة في هذه البلاد، حيث ارتبط التوسع في زراعتها بمناخ البحر المتوسط وقد كانت الشهرة لبلاد الشام بزراعة أشجار الزيتون والتوسع فيها يمتد من فلسطين جنوباً إلى قنسرين شمالاً، ومن أهم أمكانها التي اشتهرت بزراعة أشجار الزيتون، وكانت مدن فلسطين الساحلية في عسقلان وأرسوف ويافا(183) وعكا ومدينة نابلس وما يجاورها من القرى كانت شهرتها كبيرة بزراعة أشجار الزيتون. وكان النخيل من الزراعات الرئيسية والهامة في بلاد الشام، حيث كان التمر يعتبر غداءاً رئيسياً لغالبية الناس في ذلك

178- ياقوت الحموي ، المصدر نفسه ، ص 267 و 388.

179- ابن عساكر ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 91.

180- ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص 156.

181- ياقوت الحموي ، المصدر السابق . ج2، ص 284.

182- المقديسي ، المصدر السابق . ص 162.

183- الإدريسي ، محمد بن محمد بن عبد اله بن علي الشريف ، نزاهة المشتاق في اختراق الآفاق ج1 ص 364.

الوقت، ولهذا فإن إنتاج النخيل كان يشكل أحد الموارد الهامة اقتصادياً في البلاد، وكانت أشجار النخيل تزرع في المناطق الحارة التي تلائمها، حيث تركزت زراعته في جنوب الشام قبل الإسلام، ومن المراكز التي عرفت بأهميتها بزراعة النخيل في الشام، فكانت بيسان اريحا ، حيث تنتشر أشجار النخيل بكثافة في أراضيهم، وكانت أشجار النخيل تغطي بقعة كبيرة تمتدمن منطقة أرض الشراة إلى الحولة بالإضافة إلى قرى كبيرة حول طبرية اشتهرت بزراعتها لأشجار النخيل[184]. وفي منطقة القدس والرملة التي كان يزرع فيها ، أما الكروم من الزراعات القديمة في بلاد حوض البحر المتوسط كالزيتون مثلاً، وقد كان الكروم منتشراً في مختلف جهات بلاد الشام قبل الإسلام، ومن الزراعات الرئيسية الهامة التي اعتبر إنتاجها مورداً اقتصادياً مهماً في البلاد، ومع مجئ الإسلام الذي حرم الخمر على المسلمين فقد استمرت زراعة الكروم نشطة ورئيسية في بلاد الشام، واستمر أهمية منتوجها الاقتصادي، وكانت فلسطين من أهم مناطق الشام في زراعة الكروم ، حيث كانت أشجار الكرمة في كافة أراضيها[185]. ومن المراكز المهمة التي عرفت بزارعة أشجار الكرمة في الشام هي مدن عسقلان ويافا التي تزرع في أراضيها أشجار الكرمة بكثافة ، وكانت أشجار الفواكه منتشرة في أماكن عديدة وأراضي واسعة في بلاد الشام، حيث كان البعض منها يزرع في الحدائق والبساتين، ويأخذ نموه باعتماده على الري، وبعضها يزرع في الأراضي، وقد اشتهرت بلاد الشام بكثرة إنتاجها للفواكه على أنواعها.

ويعتبر إنتاج الفواكه لتنوعه وضخامته مورداً اقتصاديا مهماً في البلاد[186]. وحظيت بلاد الشام بشهرة كبيرة بجودة تفاحها الذي كان يضرب به المثل في الحسن والطيب [187]، فكان يزرع منه عدة أنواع في دمشق، أما تفاح لبنان فقد كان له شهرة خاصة، أما التين

184- ياقوت الحموي ، مصدر سابق، ج4، ص 184.

185- الأصطخري، المصدر السابق ، ص 852.

186- الأصطخري، المصدر السابق ، ص 20.

187- أبو زيد شلبي ، وتاريخ الحضارة الإسلامية ، والفكر الإسلامي ، مكتبة وهبة للنشر، ط11، 1425هـ -2004م ، ص 30.

فكان يزرع في أكثر جهات فلسطين[188]. حيث كان إنتاجها يقدر بأكثر من غيرها من مناطق الشام الأخرى، وهنالك نوع ممتاز من التين في بينا، واشتهرت معرة النعمان بزراعتها لأشجار التين التي كانت تنتشر بكثافة في أراضيها.

ويعتبر القطن من المحاصيل الهامة في الشام، وهو أصلاً من المزروعات الاستوائية التي جاءت من الهند عقب الفتوح الإسلامية، فأدخلت زراعته في بداية الأمر إلى شمالي العراق، ثم توسعت زراعته بعد ذلك باتجاه الجوار في بلاد الشام، حيث توطنت زراعة القطن في المنطقة الممتدة من الفرات إلى حلب وهو الامتداد الطبيعي إلى مناطق زراعته في شمال العراق المحاذية لها ، ثم بدأت زراعة القطن تتسع وتمتد إلى بعض مناطق الشام الجنوبية الملائمة لزراعته ، وذلك في منخفض غور الأردن الحار والرطب بعد ذلك بدأت تنتشر زارعته في الغوطة.

أما قصب السكر فهو من المزروعات الاستوائية كذلك، فقد عرفه المسلمون على شواطئ الخليج الفارسي، ثم أدخلت زراعته إلى بلاد الشام سنة 180م، وكان ساحل الشام يعتبر مركزاً هاماً لزراعة قصب السكر، وبخاصة في بيروت وطرابلس. وكانت زراعة البقول على أنواعها نشيطة في الشام، وكما يقول المسعودي، بأن هذه البلاد قد عرفت بأهمية زراعتها للبقول والرياحين في أراضيتها[189] . أما السمسم فقد كان يزرع في جبل السنماق، وفي بلاد الشام كان يزرع نبات الأصبغة كالزعفران والنيلة في أماكن ملائمة لزراعتها[190].

وكانت بلاد الشام غنية بأنواع الرياحين والزهور مثل النرجس والزنبق والمنثور والأقحوان، وقد حظيت الغوطة والحولة بشهرة زراعة الزهور[191]. وتنمو غابات الأشجار

188- الأصطخري، المصدر السابق، ص 58.

189- ا المصدر نفسه، ص 20.

190- ياقوت الحموي ، المصدر السابق، ج2، ص 102.

191- عاطف رحال ، المرجع السابق ، ص ،156.

على الساحل والسفوح المنخفضة والمرتفعات الغربية، فكانت بأشجار السندريات والصنوبر والزان والتوت[192].

الرعي وتربية الماشية في بلاد الشام:

تعتبر تربية الحيوان الداجنة من الجمال والغنم الموشي مورداً اقتصادياً مهماً في بلاد الشام فكان تنشط تربية هذه الحيوانات في المناطق التي تتوفر فيها المراعي والمياه , وبخاصة علي أطراف بادية الشام, وقيل إن المنطقة التي تمتد بين آيلة وتبوك كان سكانها يقومون بتربية الجمال والمواشي[193] , وفي منطقة عمان علي سيف البادي كان الاهتمام مركزاً علي تربية الغنم, اما منطقة حمص فكان يكثر فيها تربية الجمال والغنم [194] وتعتبر المواشي من اهم الثروات الحيوانية بالإضافة إلي الخيل والجواميس , وقد استعملت الإبل في النقل وكانت لحوم الغنم والماعز تصدر إلي المناطق المجاورة , وكذلك استخدام أصوافها ولحومها للألبسة حيث اعتبرت كمواد أولية هامة في الصناعة النسيجية وتوفر اللحوم والدهون ومنتجات الألبان واستعملت الأبقار في تدوير عجلات الناعورات والري والدرس والحرث , حيث في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي أمر بالاعتناء بها وعدم القيام بعمليات الذبح العشوائي لها[195].

ومن بين أكثر السياسات التي اعتمدتها الدولة الأموية في هذا المجال هي جلب الأنواع من منطقة إلى أخرى، ومرد ذلك تناقص الوسائل في منطقة العراق حيث تم نقل الجواميس إليها من بلاد السند لكونها تتأقلم في أي منطقة وضعت بها، شملت تربية الأغنام في

192- فيليب حتى ، المرجع السابق ، ج1، ص 52.

193- الادريسي , المصدر السابق , ج1, ص 352 – 353.

194- عاطف رحال, المرجع السابق , ص 157.

195- ابن عبد ربه, المصادر السابق, ج7 , ص 31.

شبهالجزيرة العربية وبلاد ما بين النهرين والتي اعتبرت خزانا للبن والصوف والجلود وكونه مصدراً لقوة السكان[196].

واستعملت مختلف الأنواع من الإبل والدواب بصفة عامة كأحد أهم العناصر في تدوير استثمار الثروة الحيوانية، واستعملت كذلك في الري والحرث والدرس والنقل والسفر وطحن الحبوب، وأولت الدولة الأموية أهمية بالغة للمجال الزراعي. حيث قامت بتنمية الثروة الحيوانية وعنت بها عناية خاصة ، لمالها من علاقة مباشرة بالزراعة مثل الأبقار والجمال والجواميس التي تستعمل في الري والحرث والماعز والأغنام التي تدخل أصوافها في الكثير من الميادين الصناعية والدهون في الكثير من الصناعات الدوائية.

وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز يقدم القروض للفلاحين من بيت المال مبرراً ذلك بقوله: (لا تزيدهم للعام أو عامين) ويعني ذلك ضرورة مد العون إلى الفلاحين حتى يتوفر لهم الحد الأدنى من مستلزمات المعيشة وتهيئة أدوات العمل ليساعدهم ذلك علي البقاء والاستمرار بعملهم في الأراضي ولا ينقص دخل بيت المال[197].

ومن جهة أخرى قيل أن جيشاً من أهل الشام قد مر بأرض مزروعة فاتلف زرعها فتقدم صاحب الأرض بشكوى إلي الخليفة, فأمر له الخليفة بمبلغ عشر ألف درهم تعويضا له عن خسارته بإتلاف مزرعاته، نظر في أحوالي الفلاحين وإيجاد مصدر تمويل لهم يساعدهم علي زراعة أراضيهم.

ان القدوة التي رسخ عمر مفهومها بين الولاة والجباة والرعية ووضع الأمور المالية في نصابها وعدم التلاعب بالأرض وتحويل ملكيتها وإعطائها صيغة الاستقرار وعدم الضغط علي الفلاحين ومعاونتهم علي استقلال أراضيهم , كل هذه الأمور ساعدت علي إظهارأرقام موازنة للدولة الأموية بمظهر تميل فيه لصالح بيت المال ووفرة ماله بالرغم من كثر أعبائه[198]

196–فالح حسين ، الحياة الزراعية في بلاد الشام ، د ط ، 1978م ، ص 80.

197– ابو يوسف بن ابراهيم, (ت982/798م) , الخراج, دار المعرفة للنشر, بيروت 1979م, ص 102.

198– فاتح دحماني ، السياسة الزراعية في العصر الاموي 41–132هـ– 661–749م , جامعة الاردنية, 2016–2017م, رسالة ماجستير غير منشورة, النت, ص56.

الفصل الثالث

أهم الصناعات والحرف والثروة المعدنية

- ❖ المبحث الأول: أهم الصناعات والحرف والثروة المعدنية
- ❖ المبحث الثاني : الصناعات الأخرى مثلاً دباغة الجلود
- ❖ المبحث الثالث: الصناعات الأخرى
- ❖ المبحث الرابع: أوضاع الصناع والحرفيين

المبحث الأول

الحرف والصناعات في بلاد الشام قبل الفتح الإسلامي

استخدم أهل الشام منذ القدم المعادن المستخرجةمنباطنالأرضفيالتصنيع وقد كشفت الحفائر الأثرية في بلاد الشام عن الصناعات التي قامت فيها في العصور القديمة ، ومن أمثلة ذلك ما وجد في تل حلف على نهر الخابور بمنطقة الجزيرة السورية من الفؤوس اليدوية المزدوجة وما عثر عليه من نماذج ورسومات الأول العربات من الخشب التي استخدمت في وسائل النقل أو عن استعمال العجلة في صناعة الأواني الفخارية منذ حوالي عام 1500 ق م، كما ذكرت التوراة خامات الحديد السورية واستخدم الحديد في فلسطين حوالي عام 1180 ق. م، مما يؤكد معرفة منطقة بلاد الشام لصناعة النسيج منذ أمد بعيد ما وجدته العالمة الأثرية (كاثكين كينون من آثار حيث وجدت تمثالاً يخص (آلهة الخصب) حسب معتقداتهم وقد ظهرت عليه عباءة فضفاضة مما يؤكد أن النسيج كان معروفاً قبل الميلاد ، هذا إضافة إلى ما وجد من آثار أبنية بأشكال هندسية وطرق ري زراعية).

وهذا يدل على أن بلاد الشام عرفت الصناعات الحضارية الراقية منذ عهود طويلة ، ولذلك فمن الصعب أن نحدد نشأة عهود صناعات بعينها في العصر الأموي ولكن نستطيع القول بأن العرب الفاتحين لبلاد الشام وغيرها من المناطق التي انضوت تحت راية الإسلام كان لها الفضل في رعاية هذه الصناعات التي ارتقت في العصر الأموي عما كانت عليه من قبل.(199) ولم يكن الفاتحون للشام بعيدين عن أعمال الصناعات كانعامر بن كريز خراز بن أي يعمل الخرز ، وهي نساجة نسيج من صوف.(200)

199- م – س – ديماند ، الفنون الإسلامية ، ترجمة أحمد عيسى ، دار المعارف ، القاهرة ، 1982م ، ص 24.

200- المرجع السابق نفسه، ص 25.

كما أحدث العرب الرحا الهوائية بالرياح المترددة وكان ذلك سنة 29 من الهجرة في خلافة عثمان بن عفان وكان أهل المدينة يقدمون على الشام واليمن لشراء الثياب.

وتشير المراجع التاريخية إلى أن خلفاء الدولة الأموية جلبوا مواد البناء واستخدموا مهرة الصناع من شتى الولايات لإقامة المدن الجديدة أو إنشاء القصور والمساجد ، واستعانوا في بناء مسجد دمشق بعمال من السوريين والبيزنطيين لتجميله وزخرفته بالفسيفساء في حين أشرف على عمارته مهندس إيراني.(201) ومعنى هذا أن الأمويين رعوا الصناعات التي كانت موجودة في بلاد الشام كما دخلوا عليها أنماط جديدة من الصناعات باستخدام الصناع من الولايات الإسلامية الأخرى التي كانت تحت لولاء الدولة الإسلامية إضافة إلى ما كان بجلب من أسرى الفتوح الإسلامية وبذلك أصبحت الصناعات والحرف في عهد الدولة الأموية طابعاً حضارياً مميزاً أو هذا ما يجعلنا نقول أن العرب احترموا منذ الفتح الأول الأمم التي ملكوها، وذلك خلاف لكثير من الأمم الفاتحة التي جاءت بعدهم.(202)

أنواع المعادن الموجودة في بلاد الشام والصناعات القائمة عليها:

إن كل المهارات التي تظهر في أي مجتمع لا بد أن تكون قد توافرت به الخامات التي يمكن للفرد أن يستخدمها ويطورها، وقد من الله على بلاد الشام بخيرات عظيمة سواء على ظاهر الأرض أم باطنها وكان لها دور كبير في الصناعات التي قامت في بلاد الشام.

أضف إلى ذلك أن الله خص هذه البلاد بوفرتفي المعادن المكتشفة واستفاد منها الأولون الذين سكنوها منذ عهود غابرة ، فمعادن الحديد توجد في جبال بيروت ، وكانت تحمل إلى مصر منذ عصر قدماء المصريين.(203)

201- زكي محمد حسن ، فنون الإسلام ، ص 32

202- المقدس ، أحسن التقاسيم ، المصدر السابق ،ص 184.

203- محمد كرد علي ، خطط الشام ، المصدر السابق ، ج4، ص 160.

كما اشتهرت فلسطين منذ العهود القديمة بخامي الحديد والنحاس،[204] حيث ذكرها الله عز وجل وعلا في القرآن الكريم فسيدنا داؤود عليه السلام كان يصنع الدروع ، وفي هذا المجال وفي هذا يقول تعالى: (وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ)[205] ، كما استخدم داؤود عليه السلام الجن في تشكيل كل ما يحتاجه في الصناعات واستخدم النحاس والزجاج والرخام ، وفي ذلك يقول الله تعالى: (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاء مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ) [206]، وتوجد معادن الحديد في سفوح جبال لبنان وأترابها وبطون الأودية ومنها البترون وكسروان ومجاري الأنهار : مثل نهر الكلب ونهر إبراهيم ، ومن هذه الاماكن تؤخذ مواد المسابك لمعامل الحديد ، كما يوجد في جبال اللاذقية معادن حديد بكميات كبيرة ، كما يوجد الطين الذي يعمل منه البواتق التي يسبك فيها الحديد في جبل البشر الذي يمتد إلى الفرات من أرض الشام من جهة البادية.[207]

أما النحاس فيوجد في جبل حوشن غرب حلب ومنه النحاس الأحمر، وتوجد دلالات على أن هذا النحاس كان يستخرج في العصر الأموي .

كما يوجد النحاس في قرية أهمج في كسروان ، وفي الجنوب الغربي من حلب ، وكان منه في عين جر الذي لكثرة ما استخرجت منه، وقد اعتمدت صناعة المصابيح والمرايا في العصر الأموي ، وما بعده على هذين المعدنيين استناداً على ما أوردته مصادر التاريخ.

وعرفت بلاد الشام صناعة الزجاج الذي يوجد بكثرة في رمال حلب ويعمل منه الزجاج وهو رمل ابيض كالاسفيراج (بياض الرصاص) ، كما يوجد معدن الزجاج في بيت حيرون

204- مرسي عبد الغفار أحمد ، الأحوال الاجتماعية والاقتصادية ، فلسطين في العهد الأموي ، 1399هـ - 1979م ، ص 24.

205- سورة سبأ الآية 10.

206- سورة سبأ الآية 12.

207- ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ص 426.

يستخرج ويباع في الأنحاء . كل ذلك يوجد بين عكا وصور ساحل رملي ويتوفر فيه رمل من نوع معين يستخدم لصناعة الزجاج ، وكانت هذه الرمال .[208]

أما معدني الذهب والفضة ، فقد توفرا في بلاد الشام واحتوت اللاذقية على معدن الرصاص الممزوج بالفضة [209]، كما تكثر الفضة في شمال بعلبك ومصياف ، وعلى ضفاف العاصي فيما يلي : انطاكية معدن ذهب ، ومعدن رصاص فضي ، ومعدن ثمد[210]وحجر الكحل ، ومعدن فحم ، ومعدن ذهب ، وفي أرجاء انطاكية توجد معادن الذهب ولكنها بكميات قليلة، كما كان يوجد معدن الذهب في مقاطعة جرش في أرض تسمى تلال الذهب وقد قيل إن سليمان عليه السلام كان يستخرج الذهب منها ، كما يوجد في الرملة ملح يصلح للصناعة بكميات كبيرة يسمى (الحمر) ويستخرج من البحيرة.[211] كما توجد معادن الكبريت بالأغوار، ويوجد بأرض فلسطين معدن الرخام ، والحجر الأبيض، وله مقاطع في منطقة السهل الساحلي من بيت جبريت ، كما توجد مقاطع لحجارة البناء في المرتفعات الشرقية.[212] وفي نواحي انطاكية توجد معادن الصبغ ، كما توجد في بيروت ، وكذلك في جبل البشر جهة بادية الشام.[213]

208- السيد عبد العزيز سالم ، دراسة في تاريخ صيدا ، المرجع السابق ، ص 47.

209- محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج4 ، ص 160 – 161.

210- الأثمد ، عنصر معدني بلوري الشكل قصديري اللون ، صلب ، هش ، يتكحل به

211- داين بن فرداء به ، المصدر السابق ، ص 79.

212- البلاذري ، المصدر السابق ، ص 163.

213- ياقوت الحموي . المصدر السابق، ج1 ، 326.

صناعة الخزف والفسيفاء والزجاج:

1/ صناعة الخزف:

كان الفتح الإسلامي لبلاد الشرق والأدنى بداية عهد جديد في تاريخ فنون الخزف ، وقد اتبع الخزافون المسلمون في أول الأمر الأساليب التقليدية السائدة في مصر وسوريا والعراق وإبران ، ثم بدأ الفنانون يبتكرون تدريجياً، أساليب جديدة في زخرفة الخزف ، وقد عرفت بلاد الشام صناعة الخزف منذ عهد الأنباط فقد كانت صناعة الأواني الفخارية أهم ما كانوا يشتغلون به من صناعات وكان فخارهم من الرقة كان لا يقل جودة عن الخزف الصيني.

كانت الجفاف الفخارية تزدان بنقوش دقيقة تدهن باللون الأسود وتعتبر القطع الخزفية التي اسفر عنها الكشف الأثري ، سواء كانت هذه القطع خاصة بالكؤوس أو الصحون عن تفوق في هذه الصناعة فهي من الدقة بحيث تشبه قشر البيضة.(214) وقد انتشرت تجارة البتراء بهذا النوع من التجارة.

وعرف أهل صيدا صناعة التحف الخزفية في العهد اليوناني ، والروماني ولكنهم لم يصلوا في إجادتها إلى ما وصلت إليه الشعوب الأخرى التي اشتهرت بهذا النوع من الصناعة.(215)

كما نقلت صناعة القاشاني (هو نوع من الخزف الصلب المملوءة وأصباغ بديعة أو نقوش رائعة منسوبة إلى بلدة كاشان بالقرب من أصفهان).

وربما أن هذه الصناعة قديمة في منطقة بلاد الشام فلا بد وأنها لم تندثر نظراً لاستمرار أطوار الحضارة في هذه المنطقة ومما يستدل به على أن هذه الصناعة استمرت خلال الفترة الإسلامية بقايا القاشاني الذي عرفت صناعته مدينة دمشق في الجوامع والحمامات

214- أنور الرفاعي ، تاريخ الفن عند العرب والمسلمين ، دار الفكر دمشق ، ط2 ، 1297هـ - 1977م ، ص 155.

215- السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق ، ص 47.

كذلك عرف من أنواع الخزف ، الخزف الغير المدهون وهو من الأشكال التي ضعت في أوائل العصر الإسلامي وهي نفس الأشكال المعروفة في العصر الساساني والتي تتكون من كلجات.[216]، كبيرة لخزن الماء. وأباريق صغيرة وزمازم عثر عليها بأماكن مختلفة بالعراق وسورية وإيران [217]

ب/ صناعة الفسيفساء:

كلمة مشتقة من اللغة اليونانية ، والمقصود بها الموضوعات الزخرفية المؤلفة بواسطة جمع أجزاء صغيرة ومتعددة الألوان من الزجاج أو الحجر ، وتثبيتها بعضها إلى جانب بعض فوق الجبص أو الاسمنت ، وقد تكون هذه الموضوعات الزخرفية هندسية ، أو نباتية أو رسوم كائنات حية ،واستخدمت الفسيفساء كذلك في كثير من الفنون مثل: الفن الإغريقي، والروماني، والفنون المسيحية.ومن تقنيات التصوير الجداري التي انتشرت كذلك، زخرفة السطوح الحجرية بنقوش غائرة وبارزة . وقد استعمل الفنانون في العصر الإسلامي المكعبات الحجرية والصدفية[218]، لذا فإن هذه الصناعة في العصر الإسلامي الأول كانت امتداداً لما كانت عليه في العصر البيزنطي فكانت منها الصناعات النفيسة التي ازدهرت بشكل خاص في القرن الثاني الهجري.

فقد استخدمت الفسيفساء في كثير من الأبنية من مساجد وقصور وحمامات في العصر الأموي، وحفظت لنا الآثار الأموية في هذه الفسيفساء التي تصورت ومدى دقة هذه الصناعة وجمالها ، فقد وجد علماء الآثار الكثير من المناظر البديعة التصميم والتي ما زالت تحتفظ بألوانها وبريقها الزاهي.[219]

216- السيد عبدالعزيز سالم ، المرجع السابق ، ص50.

217- م – س – ديماند ، المرجع السابق ، ص 180.

218- زكي محمد حسن ، فنون الإسلام.

219- م – س – ديماند ، المرجع السابق ، ص 35.

ولا ريب في أن ما وصل إلينا من الفسيفساء وفي العصر الإسلامي هي فسيفساء الصخرة ، وفسيفساء المسجد الجامع في دمشق وكانت الفسيفساء التي تعطي بعض الأجزاء الداخلية ، ولا ريب أن قسماً كبيراً من هذه الفسيفساء المحفوظة يرجع إلى سنة 72هـ كما تشهد بذلك كتابة الخط الكوفي البسيط من الفسيفساء المذهبية على أرضية زرقاء وتقع في أعلى التثمينة الداخلية بجوار السقف ، وتضم هذه الكتابة آيات قرآنية جاء في نهايتها النص التاريخي (بني هذه القبة عبد الله بن الإمام أمير المأمون في سنة أثنين وسبعين) تقبل الله منه ورضي الله عنه آمين رب العالمين والحمد لله.

ولا شك في أن هذه الكتابة كانت تمثل على اسم عبد الملك بن مروان ، ولكنه حذف وكتب اسم المأمون عوضاً عنه ، بغير أن يفطن الصانع إلى لزوم تغيير التاريخ فإن سنة 72 هـ لا تقع في حكم المأمون وإنما تقع في حكم عبد الملك، فضلاً عن اسم المأمون وألقابه مكتوبة بخط يخالف سائر الكتابة.[220]

ويؤكد م – س – ديماند بأن صناعة الفسيفساء والسورية بأيدي فنانين سوريين بقوله: (شاهد فسيفساء قبة الصخرة لبيت المقدس التي ترجع إلى سنة 72هـ، أنواعاً عديدة من الأشجار النخيلية، وأغلب هذه الفسيفساء من صناعة الفنانين المسيحيين السوريين الذين استعادوا ما استعادوه من الفنون السورية قبل الإسلام).[221]

كانت الفسيفساء قبة الصخرة من صنع عمال سوريين بوجه عام ، وليست من صنع عمال بيزنطيين وأنه من المحتمل أن يكون أجناس مختلفة قد أسهموا مع العمال السوريين ، وأن ذلك يفسر وجود بعض العناصر الساسانية في زخاريف هذه الفسيفساء.[222]

220- زكي محمد حسن ، المرجع السابق، ص 643.

221- م – س – ديماند ، المرجع السابق ، ص 35.

222- زكي محمد حسن ، المرجع السابق، ص 647.

أما فسيفساء الجامع الأموي في دمشق فإن معظمها أصابه التلف بسببب الحرائق المختلفة التي تثبت في الجامع فلم يتبق منها إلا أجزاء صغيرة، وأهم هذه الأجزاء المكتشفة ما يقع على مقربة من المدخل الرئيسي للجامع ، وقوام هذا الجزء الكبير رسم نهر في مقدمة المنظر.

وعلى ضفته الداخلية أشجار ضخمة تطل على منظر طبيعي فيه رسوم عمائر بين أشجار وغابات ومن هذه الحفائر رسم ملعب للخيل ورسوم ذات طابقين وأعمدة جميلة ، ورسم بناء مربع الشكل ، وله سقف صيني الطراز ، كما نرى رسم عمائر صغيرة تبدو كأنها موضوعة الواحدة فوق الأخرى .[223]

كما زينت جدران المسجد بفصوص من الذهب والفسيفساء ممزوجة بأنواع من الأصباغ العجيبة تتمثل في أشكالاً من الرسوم، وغطيت الجدران بالتلبسات النفيسية منها تلك الصفائح من الرخام المتعدد الألوان التي ارتفعت حتى مخارج الأقواس وفوقها الفسيفساء الرائعة من الزجاج.

إن زخارف الفسيفساء في الجامع الأموي رسوم العمائر والمناظر الطبيعية بذاتها تعتبر ثانوية في الصورة بالنسبة إلى صورة أدمية لها الصدارة كما يعرف في زخارف الفسيفساء البيزنطية والتأثر بالأساليب الفنية الهليستية ظاهرة جداً في رسوم الفسيفساء التي نحن بصددها ومن المحتمل أن صانعيها الزخرفية من نماذج قديمة لم يكونوا بعيدين من التأثير ببعض الأساليب الفنية الساسانية تأثراً بسيطاً وأنهم يمثلون المدرسة الفنية المحلية التي ازدهرت.

223- المرجع نفسه ، ص 647.

كما ظهرت أنواع من الفسيفساء في قصور الأمويين ومنها ما وجد في قصر هشام بقرية المفجر ، ثم ما كشف ضربة المنية بفلسطين.[(224)] فقد كانت جدران المسجد الأموي مغطاة بلوحات من الرخام وأرضه مفروشة بالمرمر.[(225)]

نظراً لتوافر معدن الرخام في منطقة الشام فقد تقدمت صناعة الرخام في العصر الأموي.[(226)]

إن صناعة الفسيفساء في بلاد الشام كانت موجودة وقديمة وتأثرت بطابع فني دخل من تواجد مؤثرات خارجية نتيجة وجود كثير الرقيق الذين لابد وأن يكونوا من الصناع في بلاد الشرق إلا أن الصناعة الأصلية موجودة في الإقليم.

صناعة الزجاج:

أما صناعة الزجاج فهي صناعة قديمة جداً وقد اختلف المؤرخون في منشأ صناعتها فقيل أن أول معرفتها كان في مصر في عصر ما قبل التاريخ.[(227)]

وقيل أن صنع الزجاج كان أول في فينيقية ثم صدرت مصر وسورية إلى حوض البحر المتوسط كل مصنوعاتها الزجاجية وسرعان ما ورث المسلمون عن الفينيقيين والسوريين والمصريين مهاراتهم في صنع الزجاج.[(228)] ويشير السيد عبد العزيز سالم عن دراسته صناعة الزجاج وشهرتها لصيدا التي ينسب لأهلها ابتكار الزجاج والمرايا وأن ما أسفرت عنه الحفريات الأثرية في مصر تدل على أن المصريين القدامى عرفوا هذه الصناعة قبل الفينيقيين بعهود طويلة ، كما يفيد بأن مادة الصناعة النطرون التي تدخل في صناعة الزجاج كانت متوفرة في مصر ولم تكن تتوفر في فينيقيا أو يرجح أن الفينيقيين تعلموها من

224- عفيف البهنسي ، الفن الإسلامي في بداية تكونه، دار الفكر ، دمشق ، ط1، 1403هـ - 1983م ، ص 150.

225- أنور الرفاعي ، تاريخ الفن عند العرب والمسلمين ، ص 67.

226- عبد المنعم ماجد تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة، ط4، 1978م ، ص 264.

227- المرجع السابق نفسه، ص 263.

228- عطية القوصي، المرجع السابق ، ص 113.

مصر وأنهم كانوا يستوردون هذه المادة منها ثم توسعوا في صناعة الزجاج على نطاق واسع حتى أصبحت صيدا وصور من أكبر مراكز صناعة الزجاج في حوض البحر المتوسط. [229]

وإذا كانت صناعة الزجاج وليدة الحضارة المصرية أو الفينيقية فإن الإثباتات المؤكدة تشير إلى أن بلاد الشام عرفت صناعة الزجاج على نطاق واسع فقد أثبتت الحفريات الاستعمال الواسع لصناعة الزجاج في العهد البيزنطي لأواني المائدة والشراب المصنوعة من الزجاج ، وقد نقلت الزجاج من صور الفينيقية إلى دمشق الأرامية فأنشئت المعامل واشتهر الزجاج الدمشقي مثل غيره من الصناعات الدمشقية.

هنالك بعض الآثار التي اكتشفها نقل علماء الآثار ومنهم علماء اختصوا بدراسة الزجاج وحدودها تواريخ معينة لينسبوا إليها أنواعاً من التحف الزجاجية فيؤكد بعدم الاطمئنان فيقول : الواقع أننا حين ندرس المنتجات في فجر الإسلام ، يجب أن تتذكر أن الشرق الأدنى منذ العصر الروماني اشتهر بالصناعة بل أن شهرة وادي النيل في هذا المضمار ترجع إلى العصور القديمة التي عرفه الشرق الأدنى في اسلوني الزجاجية الجمسلة في مصر والشامصناعة الزجاج قبل الإسلام ظلت سائدة فيه خلال القرون الأربعة الأولى بعد الهجرة أو كان التطور في هذا الميدان أبطأ منه.[230]في غيره من ميادين الفن الإسلامي ، وفضلاً عن ذلك فقد كان الإقبال على استعمال الزجاج في فجر الإسلام عظيماً ، وكانت الأساليب الفنية في هذا العصر مشتركة بين الأقاليم الإسلامية المختلفة فلسنا نستطيع أن ننسب بعض التحف الزجاجية إلى العراق دون مصر أو الشام أو إلى إيران دون أي إقليم إسلامي آخر اللهم إلا إذا قام على صحة هذه النسبة دليلاً يمكن الاطمئنان إليه. [231]

229- السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق، ص 46.

230- الأصفهاني ، الأغاني ، المصدر السابق ، ج1، 89.

231- زكي محمد حسن ، المرجع السابق ، ص 851 – 852 .

لذا فإن صناعة الزجاج كباقي صناعات بلاد الشام يصعب فيها تحديد نهاية العصر البيزنطي وبداية الفترة الإسلامية لهذه الصناعة ، فقد كانت الفترة الأخيرة للعصر البيزنطي تعتبر جيدة لصناعة الخزف والزجاج على السواء حيث كانت جودة الصناعة الحرفية اليدوية على درجة دقيقة حتى نهاية الحكم البيزنطي لبلاد الشام.

أن أنواع الصناعات الشامية للزجاج قد تعددت أصنافها وتنوعت ، فقد برع أهالي صيدا في صناعة الزجاج الشفاف غير الملون والقائم الذي يثبته الخزف ويسمح بنفاذ الضوء والزجاج الذي لا يخترقه الضوء.[232]واشتهرت دمشق قديماً بصناعة الزجاج الذي كان يضرب بصفائه المثل وكان يتخذ للزينة ومنه الألوان والآنية على اختلاف أنواعها.[233]وحفظت الآثار الزجاجية في العصر الأموي دقة صنع الكؤوس الزجاجية المموهة بالميناء وبعضها يجمل بالكتابة مثل سمير ومسافر.[234] كما اشتهرت دمشق وحلب وانطاكية وصور وعكا والخليل بأنواع الزجاج الشامي.[235]

ومن الآثار التي وجدت في قصور الأمويين ومساجدهم من أنواع الزجاج ما وجد الزجاج الملون في قصر هشام بن عبد الملك في الرصافة ، وما وجد في قبة الصخرة من الزجاج المذهب ، كما ذكر ياقوت الحموي أنه كان بجامع بني أمية كتابة بالذهب في الزجاج محفوراً سورة ألهاكم التكأثر.[236]

صناعة التحف المعدنية:

كان صناع التحف المعدنية في فجر الإسلام يسيرون على منوال زملائهم في العصر الساساني في إيران أو العصر القبطي في مصر ، وقد بلغت صناعة التحف المعدنية أوج

232- السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق، ص 46.

233- محمد كرد علي ، المرجع السابق ، 119.

234- أبو الفتوح العشي ، المرجع السابق ، ص 157.

235- أنور الرفاعي ، المرجع السابق ، ص 160.

236- ياقوت الحموي ، المصدر السابق، ج2، ص 466.

عزها في إيران قبل الإسلام ، كما يشهد بذلك ما عثر من الصواني والأربايق الصحون الذهبية والفضية ، ومعظمة في شمال إيران جنوب روسيا. [237]

هذه الصناعة في العصر الأموي قد تأثرت بالأساليب الفنية الساسانية والهليستية والمسيحية الشرقية التي كانت مزدهرة قبل الإسلام ، كما يمكن القول أن الأمويين استخدموا في هذه الصناعة وفي غيرها من الصناعات الفنية ، الصناع الفنيين المهرة في جميع الأمصار الإسلامية ، وإن كانت الصناعة المعدنية قد تأثرت بهذه الأساليب القديمة وما قبل الإسلام وتميزت هذه التحف بزخرفتها بالخز والتنزيل بالذهب والفضة. [238]

وأن الأواني المعدنية هذه كلها أدوات الاستخدام مثل المباخر وآنية الماء ، وليست تماثيل مجسمة يخشى منها التقديس والعبادة كما كان الحال قبل الإسلام.

ومن أبرز الصناعات المعدنية التي يمكن أن تؤكد وجودها في منطقة الشام سك العملة، ولعل صناع العملة الذين أتقنوا سكها كانوا من فارس حيث كانت الدولة الأموية تستخدم مهرة الصناع وقد ورث الأمويون المصانع القديمة بعماله المهرة (كما ضرب عبد الملك العملة الإسلامية الخالصة فلم يبق فيها أثر التصاوير والتقليدية). [239]

صناعة المجوهرات والتحف العاجية:

أما صناعة المجوهرات والتحف العاجية فقد عرفتها سورية منذ عهود قديمة ، وقد تأثر الفن الإسلامي بالزخارف المسيحية الشرقية المحفورة على العاج والمجوهرات ومن أمثلة الأسلوب السوري المشهورة الحشوات العاجية التي تزين كرسي الأسقف ماكسيمان في رافن. [240]

237- زكي محمد حسن ، المرجع السابق ، ص 508.

238- زكي محمد حسن ، الفنون الإيرانية في العمر الأموي ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1940م ، ص 237.

239- مرسي عبد الغفار أحمد ، المرجع السابق ، ص 48.

240- رأفن : مدينة في إيطاليا.

وبزخرفتها بفروع العين، قد اكتشفت حديثاً في ضرائب أحد بيوت بيروت في القرن السادس الميلادي وهو يعطي نماذج من صياغة ذلك العصر، الأقراط والخواتم والمدليات والأساور، ويوضح بأن حلب تدمر المنحوتة لابد وأن يكون لها مقابل في سائر أنحاء سورية في عهد الإمبراطورية الشرقية، وقد أشارت بعض المصادر والمراجع إلى صناعة الحلي السورية القديمة فذكر البدري أن دمشق تعمل صناعة الذهب المسبوك والمضروب والمجرور والممدود المرصع.[241] وكذلك صناعة التنزيل والترصيع وهي تنقيش الحديد أو الفولاذ بالذهب أو الفضة أو معدن آخر وتسمى بالأفرنجية نسبة إلى دمشق لأن الإفرنج أخذوا صناعتها وهي غالباً لتزيين السلاح وقد أتقن الدمشقيون القدماء هذه الصناعة وأوصلوها إلى درجة الكمال.

وقد أشار أبو الفرج العش إلى مجموعة من الحلي وجدت في بلاد الشام وتنسب إلى العصر الأموي وهي مجموعة من أساور المعاصم والعضد والفخمه والخلاخل والأطواق والشكلات.[242] والخواتم والحجب وبعض هذه الحلي مصنوع بالضغط والتطريق لتبدو زخرفتها بارزة وبعضها مكونة من أسلاك ذهبية وبعضها منسوج من خيوط رفيعة بالأحبار الكريمة وبعضها مرصع بالأحجار الكريمة وأكثر هذه الحلي من الذهب الخالص وبعضها من الفضة. [243]

صناعة السفن :

عرفت بلاد الشام بوفرة أخشابها فقد زددت غابات الأرز والصنوبر، سكان لبنان الأقدمين بأحسن الأخشاب لبناء سفنهم.[244] فقد برع أهالي صيدا في العصر الفينيقي في صناعة السفن بما توفر لديهم على سفوح جبال لبنان من غابات الأرز.

241- البدري ، القرن التاسع الهجري، نزهة الأنام في محاسن الشام ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ط1 ، 1400هـ – 1980م ، ص 212.

242- أبو الفرج العش ، المرجع السابق ، ص 69.

243- فليب حتى ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ج1 ، ص 54.

244- ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص 167

وعندما ملك المسلمون بلاد الشام اتجهت أنظار والي الشام معاوية بن أبي سفيان إلى غزو البحر لصد الأعداء ففكر في تقوية الجيش الإسلامي بأسطول بحري[245] ، وقد أمر معاوية بجمع مهرة الصناع وجعل صناعة السفن في عكا ثم نقلت الصناعة إلى صور في عهد هشام بن عبد الملك.[246]وقيل أن معاوية تبنى ألف وسبعمائة شراعية اتخذ أعوادها من جبل لبنان.

وقد ذكرنا في بدء الصناعات الخشبية صناعة السفن لأهميتها في العصر الإسلامي من الناحية العسكرية وذلك لتصدي لخطر البحرية البيزنطية في حوض البحر المتوسط ولحماية سواحل الشام من الأسطول البيزنطي.

صناعة الخشب:

واشتهرت بلاد الشام أيضاً في العصور القديمة بصناعة التحف الخشبية والتي ظلت قائمة بها في العصر الأموي ومما يؤكد في هذا الصدد عمل منبر خشب في المدينة في عهد الرسول صل الله عليه وسلم .

وقد حفظت لنا الآثار الإسلامية العديد من التحف الفنية الخشبية سواء ما قائم البناء أو في عصرنا هذا، وقد وجدت بعض الزخارف الخشبية التي تأخذ الطابع الهلينستي واضحة في الرصافة من بلاد الشام.

ومما يجدر ذكره أنه يوجد في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة فقد كانت أهله بالسكان الفتح وكان العرب يقصدونها بتجارتهم أو كانت مشارف حوران ولبنان غنية بمعدن الحديد كما كانت تقطع أشجار السندبات لتذويب الحديد واستخراج الفولاذ، كما عرفت الأريجية

245- السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص 63.

246- م – س ، ديماند ، المرجع السابق ، ص 115.

والدمشقية ، كما نسبت إلى دياف من قرى الشام ، وقيل من قرى الجزيرة – الأبل والسيوف. [247]

استخراج الزيوت وصناعة الصابون:

1/ استخراج الزيوت :

كان لتصنيع المنتجات الزراعية دوراً هاماً في بلاد الشام فقد حبى الله هذه الأرض بنعمة وافرة من خيرات أرضها وعلى الأخص الزيتون والكروم ، وقد أدت وفرة الزيتون في بلاد الشام واستخراج الزيت منه[248]. وقد اشتهرت المدن والقرى الشامية بوفرة الزيتون ومنها نابلس وسزمين[249]. **(وعكا التي بها غابة زيتون أو وادي موسى قبل بيت المقدس).**[250]

وقد عرف أهالي غواطة دمشق استخراج الزيت من زيتونهم والطحينة من سمسمهم . وقد عرفت عسقلان استخراج الزيوت كما كان بعصر السلطان أي دهن السمسم – في دياف من حوران .[251]وقد عرفت بلاد الشام صناعة واستخراج الزيوت منذ أقدم العصور ومما يؤكد لنا انتشار هذه الصناعة في أنحاء البلاد بقايا معاصر الزيت من بقايا أحجار الطواحين التي كانت تستخدم في هذه الصناعة الزيتية التي يرجع تاريخها إلى عهد الفينيقيين، وقد مرت صناعة الزيوت بثلاثة مراحل : الدق – العصر – التقطير ، وقد شهدت صناعة الزيوت في الهضبة الجيرية نشاطا فعالاً وأدى أهمية قصوى ، فقد استعملت الطاحونة – الرحى المكونة من قطعتين من الصخر دائرية ، كما استعملت آلة الرجازة.[252] في عملية العصر وقد مثلت الوسيلة التقنية الأكثر تطوراً، كما أنه كانت منتشرة بشكل واسع في القرنين الأوليين وكانت عملية التقطير تحتضر على مرحلة واحدة

247- ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 494.

248- موسى عبد الغفار ، المرجع السابق ، ص 35.

249- ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص 47.

250- المقدس ، المصدر السابق ، ص 162

251- مصطفى مداد الدباغ ، الموجز في تاريخ الدولة العربية في بلاد فلسطين ، بيروت ، ط1 ، 1400هـ – 1980م ، ص 225.

252- الرجازة ، وعاء أو كساء يجعل فيه حجارة ويعلق بإحدى جانبي الجمل ، والهودج ليعدله .

فقط ، كما عرف أهل الشام عصر الزيوت بواسطة العود وهو شجر عظيم من الجوز يقطعون أغصانها وينجرونها ويستعملوها لعصر الزيت، ومن أنواع الزيت المعروفة ، الركابي وهو غاية الصفاء.[253]

صناعة الصابون:

فقد تلازمت صناعة الصابون مع صناعة الزيوت منذ أقدم الأزمنة يقال أن أول من عمل الصابون سليمان عليه السلام ، وكانت الصناعة موجودة في القطر الشامي منذ عهود قديمة ، وقد اشتهرت نابلس بصناعة الصابون الذي عرف بالصابون الرقي ، كما صنع أهالي الغوطة الصابون من زيتهم ، وعرفت نابلس وعملت سرمين الصابون وحلب وانطاكيا وطرابلس ودمشق واللاذقية وحيفا ورام الله وغيرها من مدن وقرى دمشق.[254]

صناعة السكر:

جاءت زراعة قصب السكر وصناعة السكر من الهند إلى إيران في القرن السابع الميلادي ثم فتح العرب إيران ونقلوا زراعة قصب السكر وصناعة السكر إلى الشرق العربي.

وقد انتشرت زراعة قصب السكر في عدة مناطق من إقليم الشام وخاصة منطقة الغور في أيام الحكم الإسلامي ، وانتشرت صناعة السكر على ضفاف الأردن وانطاكية وطرابلس وعكا ويافا كما ذكر المقدسي عن مدينة كابل ، وهي من مدن الشام الساحلية ، أن بها مزارع الأقصاب وبها بطيخ السكر الغائق.

صناعة العطور:

عرفت الشام كلها برياحينها وأزهارها ، كما عرف عن الخلفاء الأمويين اهتمامهم بالطيب والعطر ، فقد ذكر ابن عساكر أن عبد الله بن راشد كان على خلفاء بني أمية وأنه كان

253- القزويني ، المصدر السابق ،ص 206.

254- محمد كرد علي ، المرجع السابق ، ج4 ، ص 157.

يصنع بعض الطيب للخلفاء وكانت صناعة العطور موجودة في الشام في عصر بني أمية.[255]، وكان القدماء يستعملون غرام بأنواع العطور فيستعملون المسك والعنبر والزعفران ، وكان لهم طيب يقال له الغالية وهو مسك وعنبر يعجنان ، كما عرفت دمشق صناعة عطر الورد وما يستقطر من زهر دمشق.[256]

255- محمد كرد علي ، المرجع السابق ، ص 132.

256- المرجع نفسه ، ص 132.

المبحث الثاني

أهم الصناعات والحرف والثروة المعدنية

استخدم أهل الشام منذ القدم المعادن المستخرجة من باطن الأرض في التصنيع وكشفت الحفائر الأثرية في بلاد الشام عن بعض الصناعات التي قامت فيها العصور القديمة ومن أمثلة ذلك ما وجد في تل حلف على نهر الخابور بمنطقة الجزيرة السورية من الفؤوس اليدوية المزدوجة وما عثر عليه من وسائل النقل، وعن استعمال العجلة في صناعة الأواني الفخارية ، منذ حوالي 1500 ق م كما ذكرت التوراة خامات الحديد في فلسطين حوالي 1180 ق م ومما يؤكد معرفة منطقة بلاد الشام لصناعة النسيج منذ أمد بعيد ما وجدته العالمة الأثرية "كاثلين كينون" من آثار حيث وجدت تمثالاً يخص آلهة، وقد ظهر عليه عباءة فضفاضة مما يؤكد أن النسيج كان معروفاً قبل الميلاد.[257]

وهذا يدل على أن بلاد الشام عرفت الصناعات الحضارية الراقية منذ عصور طويلة، ولذلك فمن الصعب أن تحدد نشأة صناعات بعينها في العصر الأموي ، لكن نستطيع القول بأن العرب الفاتحين لبلاد الشام وغيرها من المناطق التي انضوت تحت راية الإسلام كان لهم الفضل في رعاية هذه الصناعات التي ارتفعت في العصر الأموي كانت عليه من قبل. [258]

هذا ولم يكن الفاتحون للشام بعيدين عن أعمال الصناعات منذ أن كان الزبير بن العوام وعمرو بن العاص خزارين أي يعملون الخز ، وهي نساجة تنسج منا الصوف.

كما أحدث العرب الرحا الهوائية بالرياح المترددة وكان ذلك سنة 29 بعد الهجرة في خلافة عثمان ، وكان أهل المدينة يقدمون على الشام واليمن لشراء الثياب.

257- أحمد غسان ، المرجع السابق ، ص 220 – 226.

258- م.س. ديماند ، الفنون الإسلامية ، ترجمة أحمد عيسى ، ط3، المرجع السابق ، ص 24.

وتشير المراجع التاريخية إلى أن خلفاء الدولة الأموية جلبوا مواد البناء، واستقدموا مهرة الصناع من شتى الولايات لإقامة المدن الجديدة وإنشاء القصور والمساجد، واستعانوا في بناء مسجد دمشق بعمال من السوريين والبيزنطيين لتجميله وزخرفته بالفسيفساء في حين أشرف على عمارته مهندس إيراني، ومعنى هذا أن الأمويين رعوا الصناعات التي كانت موجودة .[259] في بلاد الشام ، كما أدخلوا عليها أنماط جديدة من الصناعات باستخدام الصناع من الولايات الإسلامية الأخرى التي كانت تحت لواء الدولة الإسلامية ، وإضافة إلى مكان يجلب من أسرى الفتوح الإسلامية، وبذلك أصبحت الصناعات والحرف في عهد الدولة الأموية طابعاً حضارياً مميزاً ، وهذا ما يجعلنا نأخذ برأي جوستاف لوبون الذي يقول: (إن العرب احترموا منذ دور الفتح الأول آثار الأمم التي ملكوها ، ولم يفكروا في غير الانتفاع بحضارتها وترقيتها).

وقد من الله على بلاد الشام بخيرات عظيمة سواء على ظاهر الأرض أم في باطنها، وقد سبق وأن تحدثنا عن حاصلاتها الزراعية والتي كانت لها دور كبير في الصناعة التي قامت في بلاد الشام، أفق منها إلى ذلك إن الله خص هذه البلاد بوفير من المعادن المكتشفة ، واستفاد منها الأولون الذين سكنوها منذ عهود، فمعادن الحديد توجد في جبال بيروت ، وكانت تحمل إلى مصر منذ عهد قدماء المصريين.[260]

كما اشتهرت فلسطين منذ العهود القديمة بمناجم الحديد والنحاس، حيث ذكرهما في القرآن الكريم فسيدنا داؤود عليه السلام كان يصنع الدروع وفي هذا يقول الله تعالى : (وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ)[261] كما استخدم داؤود عليه السلام الجن في تشكيل ما يحتاجه من الصناعات واستخدام النحاس والزجاج والرخام، وفي ذلك يقول الله تعالى (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاء مِن

259- نسيبة عاقل ، المرجع السابق ، ص 28.

260- المقدسي، المصدر السابق، ص 124.

261- سورة سبأ ، الآية رقم 10.

مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ)[262] وتوجد معادن الحديد في سفوح جبال لبنان وأتربتها وبطون الأودية.[263]

ومنها البترون، وكسروات ، وعكا ، ومجاري الأنهار ، مثل نهر الكلب ونهر إبراهيم ، ومن هذه الأماكن جبال اللاذقية معادن حديد بكميات كبيرة.[264] أما النحاس فيوجد في جبل جوشن – غربي حلب كان يستخرج في العصر الأموي.[265]

وعرفت بلاد الشام بصناعة الزجاج الذي يوجد بكثرة في رمل حلب ويعمل منه الزجاج وهو رمل أبيض وكذلك يوجد بين عكا وصور ساحل رملي يتوفر فيه رمل من نوع معين يستخدم لصناعة الزجاج.[266]

أما معدني الذهب والفضة ، فقد توفرا في بلاد الشام وأحتوت جبال اللأذقية على معدن الرصاص الممزوج بالفضة . [267]

ويوجد بأرض فلسطين معدن الرخام ، والحجر الأبيض ، وله مقاطع في منطقة السهل الساحلي ومن بين جبرين، كما توجد مقاطع لحجارة البناء في المرتفعات الشرقية.[268]وفي نواحي انطاكيا توجد عدة معادن للصبغ، كما توجد بأرض بيروت مغرة ، جيدة ، وكذلك في جبل البشر جهة بادية الشام.[269]

262– سورة سبأ الآية 13.

263– السيوطي ، المصدر السابق، ط1، ص 564.

264– المرجع السابق ، ص 161.

265– ياقوت الحموي ، المصدر السابق، ج4 ، ص 476.

266– السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق، ص 47.

267– محمد كرد علي ، المرجع السابق ، ص 160 – 161.

268– البلاذري ، المصدر السابق ، ص 162.

269– ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 426.

أ/ الحدادة:

هي من الصناعات القديمة الهامة والمتقدمة في بلاد الشام، وقد ساعد تقدم الصناعة واستمرار أهميتها في البلاد، وتوفر معدن الحديد في بلاد الشام ، حيث كان يوجد في لبنان.[270] وفي حلب بكثرة كذلك في جبل البشير بين البادية والفرات. ثم الفولاذ الذي كان يستورد من الهند في العصر البيزنطي ، فقد بدأت صناعته في بلاد الشام وأصبح يصنع الفولاذ في دمشق في العصر الأموي الأمر الذي أدى إلى زيادة أهمية صناعة المعادن التي أصبحت أكثر تقدماً في إنتاجها للمصنوعات المتطورة التي كانت تلبي حاجات البلاد المتنوعة والمتزايدة باستمرار، والتي كان لبعض هذه المصنوعات شهرته في الخارج.

وقد عرفت بلاد الشام بصناعة الأسلحة ، وبخاصة مصنوعاتها من السيوف التي اشتهرت بها عدة بلدان في الشام تطل موقعها على بادية الشام وهي بصري ومؤتة ، وكانت تتسبب هذه السيوف المشرقية وذلك لوقوع هذه البلدان على مشارف الشام . وكذلك فقد اشتهرت السيوف التي تصنع في موضوع يدي القلعة ببادية الشام ، فكانت تنسي إليها وتوصف بأسرار السيوف القلعية.

أماا دمشق فكانت شهرتها في صناعة هذه السيوف أكثر من غيرها، حيث كان الصياقلة يتفننون في صنع هذه السيوف من الصلب المسقي وصقلها في تنزيل الذهب والفضة مع الفولاذ ، ولأهمية هذه المصنوعات فقد أصبحت مشهورة في الخارج وكان من مصنوعات الشام، الدروع والخناجر والخوز والمناجيف والدبابات والسكاكين والمسابح والمناجل والمعاول، والمغازل والمشارط والمباضع، والأسياخ والعقاقات والقيود والمسامير، والسروج.

وقد كانت بعض الأدوات يستعمل في صنعها النحاس والحديد معاً[271] ففي دمشق كانت تصنع الأواني من الفضة والنحاس[272] وكذلك فقد استعمل الحديد والنحاس في صنع

270- الإدريسي ، المصدر السابق ، صج1 ص 371.

271- ياقوت الحموي ، المصدر السابق، ج2 ، ص 494.

الأبواب ومن الأمثلة على ذلك بأب جيرون أحد أبواب جامع دمشق الذي صنع من الحديد والنحاس أما باقي المصنوعات الأخرى التي يستعمل في صنعها النحاس والحديد فكانت التماثيل والمصابيح، والقوارير ، والمواقد ، والزهريات والمغارف ، والقدور ، التي اشتهرت بها.[273]، وكذلك كانت تصنع قدور القناديل والإبر ، والمرايا المعدنية التي تميزت بصناعتها فلسطين. [274]

ب/ الصباغة :

كانت الصناعات المتقدمة في بلاد الشام في العصر الأموي حيث اشتهرت صباغو الشام بمهاراتهم ودقتهم في فن الصباغة ، ويرقع موضوعاتهم المنتقبة ، وكانت أمراً طبيعياً أن يؤدي زيادة الترف والرخاء في المجتمع إلى زيادة الاقبال على شراء المجهورات ، والحلي والنجف والفنية، الأدوات الدقيقة الضنع مما يساعد اتقان وتفوق الصناع في مدى براعتهم ومهاراتهم الفنية في تحسين مخترعاتهم الدقيقة وتطورها.[275]

ومن العوامل المساعدة كذلك في بلاد الشام على رقي هذه الصناعة وتقدمها ، كثرة الجواهر في بلاد الشام في العصر الأموي ، التي كانت ترد عن طريق غنائم الفتوح، بالإضافة إلى الهدايا من الجواهر والذهب التي كان يتلقاها الخلفاء الأمويون ومن الأمثلة التي كانت تدل على ذلك فقد قيل أن علبة مملوءة بالجواهر قد أرسلت إلى الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، مع أموال وفيرة من الغنائم[276]، ويقول الطبري أن الجنيد بن عبد الرحمن

272– عاطف رحال ، المرجع السابق ، ص 234.

273– المقدسي ، المصدر السابق، ص 181.

274– فيليب حتى المرجع السابق ، ص 235.

275– عاطف رحال ، المرجع السابق ، ص 231.

276– إبن كثير ، المصدر السابق ، ج8 ، ص 249.

أهدى قلادة فيها جوهر إلى زوجة الخليفة هشام بن عبد الملك ، فأهدى بالمقابل فقد ولاه الخليفة على إقليم خراسان.[277]

وكذلك فإن الخلفاء الأمويين بعد توسعهم بفتوحاتهم كانوا يتلقون الهدايا من الملوك التي كانت في أغلبها من الجواهر الكريمة والذهب ، حتى أصبح هنالك وفرة كبيرة في الجواهر بأيدي الخلفاء الأمويين.[278]الذين لم يكونوا بأقل ميلاً من غيرهم إلى الترف واقتناء الجواهر على اختلاف أنواعها وقيمتها، ويقول البيروني أن الخليفة هشام بن عبد الملك كان يملك جوهرة الدرة الثمينة التي كانت تساوي قيمتها بسبعين ألف دينار.[279]كما أن هنالك من الجواهر الرخيصة الثمن التي كانت تساوي خمسة دنانير فقط.

والطريف بالأمر أن هذه الجواهر الرخيصة قد أفادت الأمويين كثيراً أثناء هروبهم من العباسيين في أواخر أيامهم، بحيث كان يسهل عليهم بيعها،[280]ومهما يكن فإن الخلفاء الأمويين كانا بدورهم يقومون بتقديم الكثير من الجواهر كهدايا فكان البعض منها ثمنها غالياً ، فقد ورد أن الخليفة معاوية بن أبي سفيان أهدى إلى عائشة طوقاً من ذهب فيه جوهر وقد بلغ ثمنه مائة ألف دينار كما كانت تهدي الجواهر إلى القواد والأمراء والأطباء والعلماء والشعراء فكثرت الجواهر بأيدي الناس وقد زادت بطبيعة الحال بأيدي الصاغة الذين تفننوا في صنع الحلي من الذهبية والفضة التي كانت ترضع بالأحجار الكريمة، كأقراط الذهب المرصعة بالدر والياقوت، والخواتم والدمالج والقلائد والأطواق والخلاخيل على الإختلاف أشكالها ورسومها الجميلة، وكذلك فقد كانوا يصنعون الخرز والآنية الذهب المطلية بالميناء.[281]

277- الطبري ، المصدر السابق ، ج7، ص 67.

278- محمد كردي علي ، المرجع السابق ، ص 225 - 226.

279- البيروني ، المرجع السابق ، ص 152.

280- عاطف رحال ، المرجع السابق ، ص 231.

281- محمد علي كرد ، المرجع السابق ،ج4، ص 226.

وفي ظل أوضاع اجتماعية بلغت فترة الترف حداً أن الصاغة كانوا يصنعون بعض الأواني من الجواهر، حرموا الفقهاء هذا الياقوت والبلور لأن قيمتها تفوق قيمة الذهب. [(282)]، وقد أثار أبو الفرج العش إلى مجموعة من الحلي وجدت في بلاد الشام ونسب إلى العصر الأموي وهي مجموعة من أساور زخارفها بارزة وبعضها مكونة نم أسلاك ذهبية تخينة مجدولة ، وبعضها منسوج من خيوط رفيعة وبعضها مرصع بالأحجار الكريمة وأكثر هذه الحلي من الذهب الخالص وبعضها من الفضة.[(283)]

282- القلقشندي ، المصدر السابق ، ج4، ص 96.

283- فيليب حتى ، المرجع السابق ، ج1، ص 54.

المبحث الثالث

الصناعات الأخرى مثلاً دباغة الجلود

كانت صناعة السكر متركزة بصورة أساسية في غور الأردن وعرفت أريجا بكثرة إنتاجها للسكر ، أما قنسرين فكانت تنتج الزبيب بكميات كبيرة ، وكان شهرة الزبيب في قرية القزرل التي تقع جوار بعلبك بمنتوجاتها الغذائية وكانت لبنان مشهورة بإنتاج العسل وبخاصة في بعلبك ولشهرة هذا العسل فقد حمل إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي فضل أن يأكل عسلاً من لبنان ، فجئ له بالعسل من بعلبك ، وكان يعتبر أن أفضل أنواع العسل هو من النحل الذي يمتص رحيق الزعتر الذي ينمو لوحده وبكثرة في القدس ، وكان تصنع في الشام الأدوية والعقاقير ومنها الترياق الذي يصنع من نبات الحماما حيث لا يتوفر منه بكثرة إلا في جبل لبنان، ومن العقاقير الأخرى ، الرواند ، الرياس ، والبقس ، وكان دهن البنفسج يستفاد منه للصداع والسعال. وكان يصنع الورق من الكيتان في العصر الأموي ويسمى بالخراساني، وقد تقدمت هذه الصناعة في الشام، فاشتهرت مدن دمشق وطبرية في إنتاج الورق الذي كان معروفاً في الخارج.[284]، وتعددت الصناعات في بلاد الشام في العصر الأموي ومن ضمن الصناعات.

دباغة الجلود:

تعتبر صناعة الجلود من الصناعات المهمة التي كانت تغطي احتياجات بلاد الشام من المصنوعات الجلدية المتنوعة، فكانت تصنع من السروج، والبرادع والرباطات، والقرب، والأكياس الجلدية الحافظة للنقود وغير ذلك.[285]

284- المرجع نفسه ، ص 241.

285- محمد علي الصلابي ، المرجع السابق ، ج1، ص 163.

أما صناعة الأحذية التي كانت متقدمة في العصر البيزنطي، فقد استمرت على وتيرة تقدمها في ظل الحكم الأموي ، فكان يقوم بهذه الصناعة السكان الأصليون الذين كانوا يصنعون الأحذية المزركشة بالحرير الملون المرتفعة الثمن التي تخص بالأغنياء ، كما تصنع الأحذية البسيطة الرخيصة الثمن التي كانت من يستغلها العامة كما ذكرنا سابقاً.

وقد عرفت القدس والرملة بصنع نوع ممتاز من الجلد الأبيض ، يسمى قدم قريش، كان مشهوراً في الخارج. (286)

إلا أن مهنة دباغة الجلود التي انحصر القيام بها بأيدي فئات معينة من الناس ، بحيث كان لا يمارس هذه المهنة سوى اليهود. (287)

وكانت تعتبر مهنة منحطة اجتماعياً وغير مرغوبة من الناس الذين كانوا ينظرون إليهم باحتقار، ولعل ذلك يعود إلى الرائحة الكريهة التي تنبعث من المواد المستعملة في دباغة الجلود(288)، ومع ذلك فإن إنتاج هذه الصناعة كان يعتبر مهماً من الناحية الاقتصادية فكانت بعض مصنوعاتها تتطلبها التجارة ، وبعضها الآخر الذي يتم تحضيره كمادة خام يكفي لتلبية احتياجات الصناعة الجلدية.(289)

3/ صناعة النسيج:

حرفة النسيج من أقدم الحرف في التاريخ، وكان نصيبها من التطور في بلاد سورية الكبرى أن اعتبرت من أولى صناعاتها الرئيسية ، والفضل لموقعها الجغرافي.

وكانت فنيبقية تحتكر كل الأنسجة الثمينة ، وكانت الأنسجة الفنيبقية تتفوق على سواها ، ليس فقط لحسن نسجها وإتقان حياكتها ، ولكن أيضاً لصبغتها بالأرجوان، وكان هذا الصبغ

286- محمد كرد علي ، المرجع السابق ، ج4، ص 206.

287- المقدسي ، المصدر السابق، ص 187.

288- الجاحظ ، المصدر السابق ، ص 262.

289- عاطف رحال ، المرجع السابق، ص 238.

يستخدمونه من صدف بحري يدعى بلسان العلم. فهو أنواع وألوانه تتراوح بين الأزرق الناصح، والبنفسجي الضارب إلى اللون الوردي، فقد أسست المعامل لتصنيع هذه الأصباغ على سواحل صور، وصيدا ، وساربينا، واستخدم صاغته في المنسوجات الصوفية والحريرية والكتانية، وكانت تقع شمال صيدا مدينة تسمى فورفيرون (أي مدينة الأرجون) تخصص أهلها في تصنيع الأصباغ الأرجوانية.[290]

ارتبطت المنسوجات الفنيبقية بمظاهر الإمبراطورية الشرقية لأن عصر الإمبراطورية الشرقية هو عصر أبهى وفخامة خاص بحضارة يسيطر فيها الملاكون والموظفون الرؤساء، الكنسيون ، فأبهه التي تميز تماماً عصراً وتقليداً شرقيين ترتبط بالنسبة إلينا فيها يتعلق بسورية بالأرجوان الفنيبقي الذي كان لا يزال مستعملاً في صناعة الحرير في المحرفات الإمبراطورية.

وإضافة إلى أنواع الصباغة التي استخدمها الفنيبقيون في صباغة الأنسجة، فقد كانت الصباغة تتصل بالمنتجات الزراعية لأن الخيوط التي تصنع منها تغزل من القطن والصوف أو الحرير ، كما أن الأصباغ نفسها تستخرج من النباتات التي يزرع بعضها.[291]وكانت البتراء تنقل تجارتها من الأصباغ من صيدا وصور ، وقد اهتم الأمويون وكبار العرب في بلاد الشام ودمشق خاصة بالملابس المكونة من الحلل والقمصان، والطبالسة ، والعمائم بينما كان سكانها من غير العرب يلبسون العباءات الفضفاضة وعلى رؤوسهم العقال أو الكوفية المخططة ذات اللون الأحمر أو الأصفر.[292]

قد تطورت صناعة الصباغة القديمة في العصر الأموي مع زيادة شراء الناس وميلهم إلى استعمال الملابس المصبوغة، وليس أن أدل على ذلك أنما يدل من اهتمام الخليفة الأموي سليمان بن عبدالملك، بالصباغة إذ كانت دار الصباغين من أوائل المباني على مدينة

290- السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ،ص 45.

291- البلاذري ، المصدر السابق ، ص 107.

292- رشيد عبد الله الجميلي ، تاريخ الدولة العربية الإسلامية، مكتبة المعارف الرباط ، ط، 1985م ص 47.

الرملة التي أنشأها، وقد استعمل الصباغون كثيراً من الألوان المستخرجة من المنتجات الزراعية ، ومنها كانت تستخرج من نبات الوسمة ، ويستخرج من النيلة كما استخرج الصباغون اللون الأسود من شجرة العفص ، بعد طبخ الثمار مع الخل العربي، ومن اهم الصناعات التي اشتهرت في العصر الأموي هي صناعة المنسوجات الحريرية في عهد سليمان بن عبد الملك.

لم تكن صناعة الحرير أصلاً في بلاد الشام فقد كانت تجلب إليها الأقمشة الحريرية من بلاد الصين، وكانت تجارة الحرير معروفة عبر طريق يسمى باسمها، إلا أن الرومان نقلوا صناعة الحرير في عهد الإمبراطور جينستنيان بعد أن أضرت الحرب الفارسية بطريق تجارته ، وأصبحت القسطنطينية في ضايقة عظيمة بسبب نقص المادة الحريرية. وأحتكر جينستيان صناعة الحرير لصالح الإمبراطور جينستيان، إلى أن ستطاع راهبان استجلاب شرائف الحرير من الصين داخل عصاة مجوفة، فما دودة الغز إلى بلاد الشام، إلا وأقبل السوريون عل صناعة وتربية دودة الغز، وانتشرت معامل الحرير في بيروت ثم حمص ثم حماة.(293)

ويظهر تعسف الإمبراطورية البيزنطية في احتكار جهود المصانع لصالح الدولة فقد علم جينستيان بما نالته صناعة الحرير من النجاح فحدا به الطمع لتوفير مالية الدولة إلى أن يحتكر العمل، فأمر بأن تكون معامل الحرير كلها ملك للدولة وأن لا يسمح بنسجه ولا بصبغه إلا في معامل الحكومة وزاد على ذلك أمراً آخر لكل باعة الحرير بأن يبيعوا لتلك المعامل، وحدها وشرائهم بأسعار محدودة، وأن من يتجاوز ذلك الأوامر يقضي عليه قضاء مجرد جان على السلطان عينة فيحكم عليه بأشد العقوبات، فكانت تلك الأحكام صارمة كادت تقضي على صناعة الحرير في أنحاء الشام، حتى أن العرب لما فتحوا الشام وجدوا معامل الحرير في بيروت، وصيدا، وأرواد، ليس المعامل إلا معامل كاملة، وبقيت تلك

293- رشيد عبد الله الجميلي، المرجع السابق ، ج2، ص 126.

الصناعة الخاملة حتى عصر بني أمية الذين أنهضوها من خمولها فقيل أن معاوية وخلفائهم لإنشاء في قصره المسمى بالخضراء في دمشق معملاً للحرير فعرفت منسوجاته بالطرز، وشاعت في كل الأقطار، وكان الخلفاء يهدونها لعمالهم ، وما لبثت صور وحلب أن فتحت مجال هذه الصناعة وفتحت معامل لها[294]، وقد تسابق الصناع إلى إجادة هذه الصناعة، وتهافت الأعيان ورجال الدولة إلى اقتنائها ، واشتهرت دمشق بجمال ومتانة هذه الصناعة[295]، ومن أنواع الثياب في القديم، ثياب عرفت بأسماء معينة، منها المنبر، والمعين، والمسير، والعفوف، ولاشتهار دمشق بالحرائر والمنسوجات الغزلية الفائقة بوشيها وحسن طرازها، عرفت اسم المدينة فيقال لها (واماسكو) ومن الصناعات التي في الشام، وما برحت تفخر بها صناعة الشقق الحريرية ، والقطنية ، ولصناعتها ، تفنن في نقشه وصبغه يدل على رسوم في قدم الصناعة[296]، ومما يجدر ذكره أن تلك الأصناف السابقة الذكر لم يتوصل المؤرخون إلى تحديد المنسوجات الشامية ، ولما فتح العرب بلاد الشام ، حاكوا أقمشتهم على الطراز الساساني ، أو القبطي ، أو الرومي ، وقد وضعت صناعة المنسوجات في بلاد الشام وما يصنع فيها من القماش ، والنسيج على بغداد نقوشه وضروبه ورسومه، ومنها عمل للقماش الأغلى بكل أجناسه وأنواعه ، ومنها عمل القماش الهرمزي على اختلاف أشكاله وتباين أوصاله ومنها عمل القماش الأبيض القطني المصدر لإحياء العصور وأموات القبور، وبها أيضاً القماش السابوري بكل ألوانه وحسن لمعانه[297]، كما وصفت بعلبك بالثياب المنسوبة إليها، وعرفت قرية أمثال، بعمل البسيط والأكسية الجيدة المنسوبة إليها أيضاً[298].

294- مقدمة ابن خلدون ، المصدر السابق، ص 207.

295- جورجي زيدان ، المرجع السابق ، ص 48.

296- محمد كرد علي . المرجع السابق . ج4، ص 201 – 202.

297-ابن بطوطة ، المصدر السابق، ص 61.

298-ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج1. ص 223.

وكانت زراعة القطن قد انتقلت إلى الشام من شمال فارس والعراق والجزيرة وصنعت منه الأقمشة المشجرة وسميت باسم الدمشقيات ، ولا نستبعد أن تكون زراعة القطن قد انتقلت مع الفتوح العربية ودليلنا على هذا أن الزراعة انتقلت إلى بلاد الأندلس في القرن الثالث الهجري[299]، كما أننا لا نستطيع أن نجزم بوجود هذه المدن في العصر الأموي، إلا أنه من خلاله معرفتنا لصناعة الحرير في بلاد الشام لا يمكن أن تنفي وجود هذه الصناعة.

وظهر الخز والقطيفة في عهد هشام بن عبد الملك[300]، فأظهر اهتمامه بها وقلده الناس في ذلك[301]، ومن أنواع المنسوجات الصوفية والقطنية ، صناعة المنشدات المعروفة (بالكمار) وهي تنتج من الصوف وهي متممة للباس أهل الشام، وكما اشتهرت بلاد الشام بزراعة القطن ، وقد صور لنا محمد كرد علي صناعة النسيج عامة في بلاد الشام بقوله: (أخرجت الشام رزالة المتاع ورديئة ، بل كانت تخرج جيدة ونفيسة) حين ذكر من الصناعات الأكسية والبسط التي اشتهرت بها (أعناك) والثياب البعلبكية والبلعسية نسبة إلى بلعباس.

وكانت للأهل رصافة هشام مهارة في عمل الأكسية ، وكل رجل فيهم غنيهم وفقيرهم يغزل الصوف، والنساء ينسجن ، وكانت تعمل الشام الأكسية الميرنبانية ، وهو ما قد غزله وبر الأرنب، وكانت تعمل وتنسب إليه فيقال (الأبينجاني).

ومن الصناعات الصوفية أيضاً، صناعة الأعبئة (العبي) فهي من أهم الصناعات على اختلاف أنواعها ومنها الخشنة التي يلبسها الفلاحون وحياكتها في غاية المتانة، وتتوفر في دمشق وحمص وحلب، وذلك لتوفير مادتها الأولية ولأنها من لباس عامة الفلاحين كما توجد أعبئة من الصوف النحيف والوبر (للخاصة من الأمراء وكبار الشخصيات).

299–أحمد مختار العبادي ، الحياة الاقتصادية في الدول الإسلامية . مطبوعات ذات السلاسل ، الكويت 94هـ 1985م ، ص 321.

300–حسن إبراهيم ، المرجع السابق ، ج2 ، ص 323.

301– المرجع السابق نفسه ، ج2 ، ص 161

ويذكر ابن خلدون الأطوار التي تعتبر فيها لباس العرب وسكانهم بقوله: (كان العرب لعهد الخلفاء الأولية)[302]من بني أمية، إنما يسكنون بيوتهم التي كانت لهم خياما من الوبر والصوف ، فلما تفننت الدولة العربية في مذاهب الحضارة والبزخ ونزلوا المدن والأمصار وانتقلوا من سكن الخيام إلى سكن القصور ، واتخذوا للسكن في أسفارهم ثياب الكتان يستعملون منها بيوتاً مختلفة الأشكال والزينة[303].

وعندما فتح العرب بلاد الشام وجدوا طراز لصناعة المنسوجات الحريرية في بيروت ، وصيدا ، كانت الدور المعدة لنسج أثوابهم في قصورهم تسمى دور الطراز ، وكان القائم على النظر فيبها يسمى صاحب الطراز ،حيث ينظر في أمور الصباغ، والآلة والحاكة فيها وإجراء أرزاقهم وتسهيل الآتهم وتفان مواليهم[304]، ومن هؤلاء كان جنادة بن أبي خالد ، يكتب لهشام بن عبد الملك على الطراز ، واسمه موجود على الثياب الهاشمية.

وتميزت الملابس في دمشق في العصر الأموي بالطراز ، فكان الخلفاء ينقشون أسمائهم أو علامات تميزهم على أثوابهم بخيوط من الذهب.

أما الولاة والعمال والجند ، فكانوا يرتدون زياً طرز عليه اسم الخليفة وقد احتاجت الدولة الأموية للصباغ المتدربين ومن أوائل من ظهرت الحاجة إليهم من الصباغ هم الحاكة وعمال الطراز ، وأغلب الظن أن مهرة العمال في تلك الصناعة كانوا من الفرس.

وغلب الوشي في صناعة الحرير في عهد الدولة الأموية ، وشاع في عصر سليمان بن عبد الملك نوع من الذوق والتأنق في الزي ، فقد فرض على رجال ، وأهل بيته أو خدامه ،

302-محمد علي كرد ، المرجع السابق، ج4، ص 204.

303-مقدمة ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص 238.

304-السيد عبد العزيز سالم ، دراسة في تاريخ مدينة صيدا ، المرجع السابق ، ص 40

ارتداء الموشي ولشدة ولوعه بهذا النوع من النسيج الذي تدخل في لحمته وسداه خيوط الذهب[305].

وقد عرف الخلفاء الأمويون بشدة التأنق في المظهر والملبس ، فارتدى معاوية الملابس الدبيقية ، وكان سليمان بن عبد الملك يجلب الثياب الموشاة أيضاً من اليمن ، الكوفة . والاسكندرية[306].

كان الوليد بن يزيد عبد الملك يتأنق في ملبسه ، فيقال أنه لبس القلنسوة من الوشي المذهب [307].

ولم تكن المنسوجات الحريرية والموشاة تستخدم في الملابس فقط في الدولة الأموية ، بل كانت تستخدم أيضاً في المجالس والمفروشات ، والستائر ، فقد كان مجلس هشام بن عبد الملك مفروشاً بالرخام ومواعيد الذهب والطنافس الحمراء ولعل من أكبر التفاخر الذي ظهر بالثياب الغالية ، ما قيل في هشام بن عبد الملك بأنه خرج حاجاً، فحملت ثيبه على ستمائة جمل[308] وكأن لديه اثني عشر قميص من الوشي.[309]

305–مقدمة ابن خلدون المصدر السابق ، ص 237.

306–ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج2، ص 238.

307–ا ، المصدر نفسه ، ج2 ، ص 136.

308– ابن عبد ربه ، المصدر السابق ، ج5 ، ص 180.

309– ابن كثير ، المصدر السابق ، ج7 ، ص 312

المبحث الرابع

أوضاع الصناع والحرفيين

فقد تركت الأعمال الترفية لأهل الذمة منذ الفتح الإسلامي واستفاد المجتمع الإسلامي منها، حيث كانت أصلاً، موجودة في المجتمع السوري قبل دخول المسلمين وأقرهم عليها الخلفاء الأمويون.[310]

الأوضاع الاجتماعية لأهل الذمة:

أوضح الكتاب الأمان الذي أعطاه عمر بن الخطاب لأهل إيلياء، والشام بصفة عامة الشروط التي يلتزم بها أهل الذمة في معاملاتهم مع المسلمين، ولتقتصر هنا على الجانب الاجتماعي من هذه الشروط والتي تتلخص فيما يلي :

1. التزام أهل الذمة بزي وهيئة معينة تميزهم عن المسلمين.
2. احترامهم للشعائر الدينية للمسلمين ، وعدم إيذاء مشاعرهم .
3. ضيافة المسلمين ثلاثة أيام من أوسط طعامهم.
4. عدم معاونة الأعداء على المسلمين.

ومقابل ذلك على المسلمين – وفقاً لهذه الشروط معاملتهم بالحسنى ، والذود عنهم ما داموا ملتزمين بالطاعة وأداء الخراج والجزية. [311]

من الشروط التي اشترطها عهد عمر على الذميين لبس الزنار ، والنهي عن التشبه بالمسلمين بثيابهم وسروجهم التي يستعملونها.

310– أنور الرفاعي ، النظم الإسلامية ، دار الفكر ، دمشق 1392هـ – 1973م ، ص 217.

311– سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحياة الاجتماعية في الدولة الإسلامية منشورات دار السلاسل ، الكويت ، 1405هـ – 1985م ، ص 296.

وأن اتفاقية 98هـ المبرمة بين المسلمين والجراجمة الذين يسكنون المناطق الجبلية في بلاد الشام تضمنت على أن يلبس الجراجمة لباس المسلمين.

حرم الخليفة عمر بن عبد العزيز على جميع الذميين لبس العمائم وأول إشارة في حسن المعاملة التي لقيها أهل الذمة ، وضحها عمر بن الخطاب حين مروره بالجابية.[312]

ورؤيته لبعض المجزومين فأمر أن تجري عليهم صدقات المسلمين، كما أنه كان لا يفرض على أهل الذمة بضيافة المسلمين، بل لهم أن يطعموهم مما يحل لهم من الطعام ، دون تكلفة أو مشقة، كما أنه من حسن المعاملة للمسلمين لأهل الذمة أثناء الفتح وحين تقسيمهم الدور بأن ترك الذمي في العلو والمسلم أسفل حتى لا يضر بالذمي.[313]

وفي العصر الأموي ، وجد أهل الذمة كثير من التسامح وحسن المعاملة من الخلفاء الأمويين بخاصة ومن المسلمين عامة.

فقد أشار جوستاف لوبون إلى الأوضاع في بلاد الشام في عهد الدولة الأموية أنها قد بلغت درجة رفيعة من الرقي وكان العدل بين الرعية دستور العرب السياسي وإن العرب تركوا الناس أحراراً ، ما لم يعرفوه سابقاً من الطمأنينة.[314] فقد عرفوا الحياة المستقرة وسكني المدن والحياة الزراعية ، التجارة.

وتجد بصفة أن أهل الذمة قد عوملوا معاملة حسنة في العهد الأموي ، مثال ذلك أن معاوية بن أبي سفيان عرف عنه أنه كان يقرب إليه أهل الذمة ويحسن معاملتهم ، وأن عبد الملك بن مروان يستقبل الأخطل الشاعر النصراني وفي عنقه الصليب بكل بشاشة وترحاب ، ما يروى عن هشام أنه كان شديد العطف على المسيحيين .

312- الجابية قرية من أعمال دمشق ، ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج2، ص 9.

313- ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج1، ص 180.

314- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ترجمة عادل ، زعيتر ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، ص 152.

وكما أن الخلفاء الأمويين لم يسمحوا لأهل الذمة بالتجاوز عن حدودهم المشترطة عليهم من نصوص الصلح ، فأنهم في المقابل راعوا حقوقهم فسمحوا لهم بحرية العمل وممارسة كافة الأنشطة الاقتصادية والتجارية والحرفية التي حققوا فيها مكاسب طائلة.

استقر العرب الذين استمروا في توافدهم إلى بلاد الشام أثناء الفتح العربي وبعده في المدن الداخلية الكبيرة والقديمة مثل دمشق وحمص ، وقنسرين ولم يعيشوا في مدن ومستعمرات جديدة منعزلين عن سكان البلاد كما فعلوا في العراق مما أدى إلى ازدياد كثافة سكان مدن الشام التي تقدمت وازدهرت في شتى المجالات الحضارية.

وقد لعبت الأسواق دوراً كبيراً في حياة المدينة بصفتها عنصراً أساسياً لعظمتها ، وتطورها الحضاري مما جعل لطبقة أصحاب الحرف اهتماماً[315]، ولقد استمر أهل الذمة كقوى رئيسية في مختلف مجالات العمل يمثلون عنصراً أساسياً في الحياة الاقتصادية لبلاد الشام والعصر الأموي ، فكانوا مع الموالي يكونون أكثرية أصحاب الحرف والصنائع في بلاد الشام[316]. ولكن العرب قد ابتعدوا في بداية الأمر فترة من الزمن عن ممارسة الحرف وذلك لانشغالهم بأمور الحكم والجهاد، وفي الواقع فإن فئة كبيرة من العرب لم يمارسوا الأعمال اليدوية لأنهم كانوا يحتقرونها ، بل لأن الظروف قد فرضت عليهم الابتعاد عنها أو بطبيعة الحال فإن من عادات الناس خلال ممارساتهم وتمرسهم ببعض الأعمال حتى أنهم ينظرون إلى الأعمال الآخرين نظرة تتسم بعدم الرضى والاستحقاق[317]

فالعرب كانوا في الجزيرة العربية ينقسمون إلى قسمين أهل الوبر وأهل الحضر، فأهل الوبر هم الذين فرضت عليهم أعمال الرعي والتنقل مع مواشيهم من مكان إلى آخر ، فإن عدم توفر الاستقرار لا يساعد بطبيعة الحال على قيام الأسواق وممارسة الحرف باستثناء بعض الحرف التي كانوا يقومون بها كحرفة الحياكة التي تعتبر ضرورية لصنع الخيام.

315-. ابن خلدون المصدر السابق ، ج5، ص 343.

316- عبد العزيز الدوري ، المرجع السابق ، ص 43.

317-. عاطف رحال ، المرجع السابق ، ج2، ص 81.

وهكذا يثبت أن كثير من العرب قد سمحت لهم الظروف في مجتمعهم بممارسة الأعمال الحرفية قبل الإسلام كما أنهم ظلوا يمارسونها بعد الإسلام. ويشجعون على ممارستها وتدل أقوال الخليفة عمر بن الخطاب على ذلك ومنها قول : (حرفة يعاش بها خير من مسألة الناس)[318].

وفي العصر الأموي فإن عدداً من القضاء وأصحاب الرأي كانوا يعملون كحرفيين حتى أن الواحد منهم كان يلقب بحرفته.

فكان لكل حرفة مكانها المعين الذي تعرف به ، لتسهيل الوصول إليها مما يؤدي إلى تنشيط حركة البيع والشراء ورواج سلعهم ، كما أن هذا الأمر يعتبر تسهيلاً للحكومة بالإشراف على أصحاب الحرف والصناع.

وكان للأسواق وتحديد أماكنها داخل المدن يتم على الشكل التالي ففي وسط المدينة يوجد الجامع الكبير ، وبالقرب منه مستودع كبير لصناعة النسيج هذا المستودع كانت تقام أسواق المهن الغنية التي تيعاطاها أصحاب الأعمال والصيارفة والصاغة أما أسواق الحرف الغذائية فكانت تمارس داخل الأحياء[319].

يعتبر الجاحظ أن النظرة الاجتماعية لأصحاب الحرف الذين يمارسون مثل هذه المهن لم تكن لديهم نظرة احترام ، وكذلك فقد كان هنالك بعض الحرف الأخرى مرفوضة عند المسلمين بسبب عامل الدين ، مما كان يجعلهم يبتعدون عنها كمهنة الصيرفة وتجارة الخمور المذمومة في الإسلام[320].

كانت نظرة الناس لأصحاب الحرف تختلف في قليل أو كثير من الاحترام حسب نوعية أعمالهم وحرفهم ، فالعامة كانت تنظر إلى اليهود أنهم (كانوا أقذر الأمم، بسبب المهن

318-. الجاحظ المصدر السابق ، ج2، ص 81.

319-. عبد العزيز الدوري، المرجع السابق، ص 91.

320-. فيليب حتى ، المرجع السابق ، ج2 ، ص 10.

التي يمارسونها أما النصارى فقد اعظمهم في قلوب العوام أن قيهم ملكاً قائماً ، أن ثيابهم أنظف وصناعتهم على غيرها).

وكان صاحب كل حرفة يفضل عدم التدخل بتحديد الأسعار ، التي كانت تميل إلى الانخفاض في أغلب الأحيان في العصر الأموي ، باستثناء فترة حكم عمر بن العزيز الذي ارتفعت الأسعار في عهده ، فرجعوا الخليفة بهذا الأمر فقال : (انما السعر لله) متبعاً قول رسول الله صل الله عليه وسلم مؤكداً على استمرار مبدأ العرض والطلب الذي يتحكم بالأسعار يعود أساساً إلى السياسة الضريبية المتبعة وذلك بقوله إن الذين كانوا قبلي كانوا يكلفون أهل الذمة فوق طاقتهم فكانوا يبعوا ويكسبوا ما في أيديهم ، أي تحميل فوق طاقتهم فلم يكونوا يجدون أعباء ضريبية هائلة وجبايتها في أوقات سابقة . لأوانها ، كانت تضطرهم لعرض كامل تؤدي إلى انخفاض الاسعار بينما في عهد الخليفة عمر بن العزيز الذي كان يتبع سياسة عادلة تجاه دافعي الضرائب فإنهم لم يكونوا مجبرين على زيادة عرض إنتاجهم وإغراق السوق بالبضائع فكان العرض يؤدي إلى زيادة الطلب فترتفع الأسعار [321].

وهكذا يتبين أن أصحاب الحرف كانوا يخضعون لإشراف الدولة ومراقبتها ، وكانت الدولة تنتظر فيما ينشأ بينهم.

321-. عاكف رحال ، المرجع السابق . ص 267.

الفصل الرابع

النشاط التجاري

- ❖ المبحث الأول: التجارة الداخلية
- ❖ المبحث الثاني: التجارة الخارجية
- ❖ المبحث الثالث : تجارة الحرير وتأثيرها على مسار التجارة العالمية لبلاد الشام

المبحث الأول

التجارة الداخلية

النشاط التجاري :

فالتجارة وسيط نافع بين الصانع والمستهلك تقوم بترويج البضاعة وتسويقها ومن ثم تحسينها وتسير هذه الخدمة ، انتفاع تعتمد كذلك على المهارة والجهد ويتعرض التاجر في الوقت ذاته للربح والخسارة [322].

تعود اهمية التجارة على أنها مصدراَ هاماَ من مصادر الثروة الغنى ، وركيزة أساسية في الحياة الاقتصادية ، بالإضافة الى دورها المؤثر في تحسين ظروف المعيشة وإشاعة الرخاء في المجتمع وقد عرفت بلاد الشام منذ القدم بدورها التجاري[323].

وقد استمر سكان الشام بالإصلاح بدورهم الرائد في تجارة العلم المتمدن ، بحيث تمكنوا من السيطرة ، وقد ساعد على ذلك بصورة رئيسية ، الموقع الجغرافي الهام الذي تحتله بلاد الشام [324]، مما جعلها جسراَ بين الشرق والغرب ومركز استراتيجيا مهماً في تلقي المؤثرات المختلفة ، وسهولة التواصل مع الآخرين ، وفي زيادة فعالية حركة التبادل التجاري لمختلف أنواع البضائع كان ذلك يتم عبر الشبكة من الموصلات والطرق البحرية والبرية [325] .

322- احمد عبدالرحيم السايح ، أضواء الحضارة الإسلامية ، مركز الكتاب النشر ، 2001م / 1422 هـ ، ص 109 .

323- فليب حتى ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، المرجع السابق ، ص 389 .

324- برهان الدين دلو ، مساهمة في إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي ، دار النشر بيروت ، 1951 م ، ص 113 .

325- يسرى عبد الرازق الجوهري ، دراسات في الموارد الاقتصادية ، دار المعارف للنشر ، ج 3 ، 1973 ، ص 123.

التجارة الداخلية :

تعتبر بلاد الشام من أهم المناطق في العالم في الإنتاج الزراعي من ناحية ، ومن ناحية أخرى في تبادل المنتجات الزراعية والصناعية التي تعتمد على التصنيع الزراعي وغيره المنتجات التي يمكن تبادلها داخلياَ او خارجياَ ، فمنذ إن بدأ الإنسان في هذه المنطقة ينتج اكثر من حالته للاستهلاك واصب ح لديه فائض الإنتاجي ، أخذ يتبادل السلع مع جيرانه من ادول المجاورة (في مصر والعراق مثلاَ) وكذلك في ما بين مدن المنطقة نفسها . وقد أسهمت بلاد الشام في هذا العمل إسهاماً كبيراَ، فكانت تقوم بنقل المتاجر، وتعتني بخزنها وتهتم بتسويقها ، وبالتالي قامت عدد مدن التي تطلق منها القوابل عبر بلاد الشام .[326]

كان ازدهار التجارة في بلاد الشام في العصر الأموي صورة وثيقة بالعهد السابق لقيام هذه الدولة ، وذلك بالارتباط بحركة التجارة بين بلاد الشام ومكة، فقد كان لتجار مكة حركة تجارية ببلاد الشام ، وخصوصاَ للطرق المؤدية الى فلسطين ودمشق وبعض مواني البحر المتوسط الشامية مثل غزة، وهذه التجارة قد استمرت فترة طويلة قبل الإسلام يسرت لزعماء مكة المعرفة الدقيقة للأوضاع السائدة في جنوب بلاد الشام بشكل خاص ، والقواد الذين انتدبهم ابو بكر ، والذين قادو حملات في أيام عمر (13 – 23هـ) (634 – 644 م) كانوا من المهاجرين المكيين ، وكانوا بالمعرفة بالبلاد وطرقها ودروبها ، ومن ثم فليس غرابة في للقوات فتح الشام إلى الطرق التي كان يسلكها تجار العرب في تجارتهم إلى بلاد الشام .

وقد ارتبطت هذه الطرق التي سلكتها تجارة بلاد الشام بمدن هامة كان لها الدور الكبير اتساع التجارة وازدهارها في العصر الأموي ، وبعض هذه المدن كان لها دور كبير في

326– نقولا زيادة ، التطور الداري لبلاد الشام بين بيزنطيين والعرب ، عمان للنشر ، 144 هـ– ، 1983 م ، ص 3.

ازدهار هذه التجارة منذ العصر البيزنطي وبعضها الآخر نما وازدهر عقب الفتح الإسلامي[327] .

التجارة الداخلية في عهد عبد الملك مرت بمرحلة ضعف بسبب العوامل أثرت في حجم التجارة الداخلية كان من أبرزها ما يلي :

1. كثرة الفتن والقلاقل الداخلية التي عصفت بمعظم أركان الدولة الأموية ، ومن المعلوم ان الاستقرار السياسي والأمن الداخلي من أولويات ازدهار ومع اقتصادها في الدولة الأموية بشكل كبير تعثرت التجارة الداخلية ، بسبب نقص السيولة المادية .
2. صعوبة دفع الأثمان الصفقات التجارية ، وعلى جهة الخصوص الكبيرة منها[328].
3. ارتفاع نسبة الضرائب على التجارة حيث روى أنها وصلت الى 33% ومع بداية 77 هـ تمت التجارة الداخلية وازدهرت ، وكان وراء ذلك العديد من الأ سباب من أبرزها :

أ- زيادة السيولة النقدية الداخلية ، وذلك بإصدار العملة الإسلامية الجديدة الموحدة ، والتي تطورت من حيث الدقة والانضباط والعيار ، حيث أصبحت تلقى قبولاً عاماً مما سهل عملية المبادلات بشكل كبير ، وحل محل النقود محل وزنها ، وبذلك كانت عملية الإصدار النقدي نقطة تحول في تطور التجارة الداخلية بشكل خاص ، سواء من حيث الزيادة من حجمها او الإتساع في أرجائها [329] .

ب- حدوث استقرار نسبي داخل الدولة الأموية بعد القضاء على الثورات الداخلية [330].

ت- تمت في هذه المرحلة بعض الإصلاحات التي كانت من شأنها تعقد الصفقات التجارية، ومن أمثلة على ذلك :

1. توحيد وحدة الكيل والميزان من قبل الحجاج بإقليم العراق .

327- حسن إبراهيم حسن ، المرجع السابق ، ج2، ص 126 م .

328- عاطف رحال ، المرجع السابق ، ص 164 .

329- محمد الصلابي ، الدولة الأموية ، ص824 .

330- المرجع نفسه ، ص 304 .

2. تنظيم الأسواق مما يسهل ويخدم الحركة التجارية

3. وجود خدمات لراحة التجار كالفنادق و الحمامات داخل الأسواق ، وفي مدن الشام كانت تذدهر فيها التجارة أكثر من غيرها وتعتبر مركزاَ تجارياَ هاماَ[331].

أ / الأسواق التي كانت تقام في المدن :

تعددت المدن التجارية الهامة في بلاد الشام منذ امر بعيد ، إلأن بعض هذه المدن قد استمرت في الاحتفاظ بازدهارها ونشاطها التجاري عقب الفتح الإسلامي[332] وبعضها الأخر تلاشى تماماَ او فقد أهميته التجارية ، وأصبح مجرد قرية او مدينة خاملة الذكر. ان نمو المدن الداخلية للبلاد يعود إلى تركيبة من التطورات الاقتصادية والسياسية ، وان معظم الطرق التجارية عبر سورية ترتبط بالعراق والحجاز، وكانت المدن الداخلية مثل : حلب ودمشق في موقع مثالي تستفيد من هذه الحركة التجارية [333].

تقع فلسطين بالركن الجنوبي من الساحل الشرقي ، وموقعها جعلها تتوسط ثلاثة قارات – أسيا واروبا وأفريقيا، وكان الإقليم منذ فجر التاريخ القديم مركزاَ تجارياَ هاماَ تجمعت فيه وخرجت منه سلع من مختلف الأقطار في تلك القارات .

هكذا كانت الأهمية لتجارة دمشق التي تتكدس في أسواقها البضائع المتنوعة ، المنتجة محلياَ المستوردة ، قال الياقوت بأنه يستحيل أن يطلب شيء في أسواق دمشق ولا يوجد حتى ان السلع الغالية الثمن التي تستورد من جميع أنحاء العالم المتمدين موجودة فيها [334].

331- تركي حسون نصيف الخفاجي ، دراسة الحكم والإدارة في عهد عبد الملك بن مروان ، رسالة دكتوراء غير منشورة ، جامعة النيلين ، 1997 م ، ص 35.

332- علي محمد الصلا بي ، المرجع السابق ص 304 .

333- الاحول الاجتماعية والاقتصادية في فلسطين في العهد الأموي ، ص 58 .

334- الياقوت ، المصدر السابق ، ص 465 .

وأيضاً عرفت حلب بأهميتها التجارية في العصر الأموي ، فقد كان لموقعها الجغرافي المهم في شمال الشام أن أصبحت محط القوافل الآتية من فارس والعرق ، كما إنها كانت ملتقى القوافل التجارية التي تأتي من الشمال ومن مدن ساحل الشام الشمالي المتجهة الى العراق والى سائر مناطق الشام .

اشتهرت الرصافة بأهميتها في التجارة شهرة كبيرة [(335)] ، كما ازدهرت حمص التي حلت محلها أيام الدولة البيزنطية وأصبحت قاعدة المسلمين .

كانت التجارة داخل دمشق مركزًا للأسواق ، فكانت كل طائفة من التجار تقيم في سوق معين ، ويمكثون الى بعد الظهر ، ولا يعودون إلى منازلهم الافي المساء .

وكانت الحوانيت تمتد على طول الشارع من الجانبين [(336)] .

ولقد تعددت الأسواق في مدينة دمشق حيث ذكرها ياقوت الحموي أسمائهم ومقرتها ، ومنها دار عتبة بن صخر بن امية في درب الحبالين [(337)] ، وكان لعبيد الله بن زياد دار درب النافذ الى الأساكفة ، كما نذكر بعض أسواق المدن الشامية منها سوق بطنان من أعمال حلب ويعمل فيها الكرباس [(338)]، ويحمل الى دمشق ومصر وكذلك أسواق حمص فهي مبلطة وسككها مفروشة، كما كانت لحلب أسواق جميلة وبها فنادق كثيرة [(339)] .

كما تعددت وكانت هذه الأسواق تصدر ما بها الى دمشق وتأخذ الى دمشق الموجود في أسواقها [(340)] . منبج أحدى بلاد الشام القديمة المليئة بالأسواق ومنبج إحدى مدن الشام القديمة كانت مليئة بالأسواق ودكاكينها كبيرة لإتساعها [(341)] .

335- عاطف رحال ، المرجع السابق ، ج 2 ص 183 .

336- عصام الدين عبد الرؤف ، المرجع السابق ، ص 53 .

337- الطبري المصدر السابق ج7 ، ص 240 .

338- الكرباس الثوب خليط ن القطن ، ياقوت الحموي ،المصدر السابق ، ج1 ، ص 703 .

339- بن قوقل (ت367هـ) كتاب صور الأرض، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ط2، (د،ت) ، ص 162 .

340- المرجع السابق نفسه ، 163 .

كما ان سوق ازرعات – قرب البلقاء – وتعرف اليوم (بدري) كان لها شهرة تجارية ، وكانت تلى بصرى في ألأهمية التجارية لدى تجار قرش حيث كانت لهم سوق تجارياً .[342]

وكانت السلع تعرض في أسواق الشام حسب اختلاف المدينة وحاجاتها ، فكانت المواد الغذائية الرئيسية في فلسطين مثلاً هي القمح ، والشعير والزيت والخل ، كما كان أكثر ما يعرض بأسواقها السلع التي تنتجها بقصد الاستهلاك المحلي من المواد الضرورية، وكانت هنالك منتجات زراعية تستهلك في حينها لأنها لا تتحمل التصدير مثل الفواكه والخضروات والبقول التي تتلف سريعاً .

ويبدو أن السلع المعروضة في أسواق بلاد الشام بخاصة المنتجات الزراعية التي تشتهر بها كل مدنية ، والمنطقة المحيطة بها ظلت عبر العصور ثابتة وأن كان الأمر لا يخلو من بعض التطورات أو التغير حسب الحاجة الأستهلاكية لكل مدينة وقرية .

وكانت اسواق حلب تعادل أسواق دمشق في الأتساع و بما يعرض فيها من البضائع مختلفة كالحرير والصوف [343] .

ويبدو ان التجار والمساحة التي يحتلونها في السوق كانت تختلف على حسب طبيعة عملهم وحاجة سكان المدينة الى بضاعتهم ، فعلى سبيل المثال كان سوق السباقين في مدينة الرمل يحتل مكاناً ظاهراً بنسبة للمهن الأخرى بدليل ان سليمان بن عبدالملك عندما خطط المدينة في عهد خصص موقع دار الصباغين مباشرة بعد تحديد الأماكن الهامة مثل

341– محمد كرد علي ، المرجع السابق ، ص 240 .

342– ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ص 547 ، سعيد الأفغاني ، المرجع السابق ، ص 373 .

343– عفاف عبد الرحمن ، عمر بن العاص ، ودورة السلسي في الدولة الإسلامية (8هـ – 629) م (43 هـ / 664 م) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة النيلين ، 1428 – 2007 م . .

قصر الأمارة ومسجد المدينة [344]. يعزى ذلك ان سليمان بن عبد الملك عرف بشغف اللبس والزينة وزخرف الألوان .

وكان للشاميين مواعيد لأسواقهم الموسمية عرفت منذ الجأهلية ، فقد كان النبط يقدمون على العرب ، ويقومون على أنفسهم سوقاً سنوياً يحشدون لها [345] .

كما ان ازرعات كانت تقيم سوقاً سنوياً بعد سوق بصرى سبعين ليلة يطول أمدها ، وغالباً ماتكون طول الصيف وقد اعتاد المسلمون بصفة عامة أنهم يقومون الأسواق في أوقات معينة في المدن التجارية الهامة مثل دمشق كان سوقها يمتد من باب دمشق الى المسجد الكبير[346]، وكان يجتمع فيه التجار وأصحاب الحرف ، حيث تنشط الحركة التجارية وتتنوع بها السلع القادمة من مختلف الجهات بحكم أنها عاصمة الخلافة الأموية [347] .

ب – الرقابة على الأسواق :

كان بالأسواق عمال يشرفون على تنظيمها ويعملون على عدم بروز الحوانيت حتى لا يعوق ذلك نظام المرور داخل السوق ، كما كانوا يتولون استيفاء الديون ، واختبار الموازين والمكاييل ، ومعاقبة التجار ، ومنع التدليس والغش في المقاييس والموازين [348]، وقد جرت العادة أن يوكل امر هذه المراقبة الى المحتسب ، وكان يراقب كل صاحب المهنة ، يتكسب بها، مهما يكن نوع هذه المهنة، سواء كان طبيباّ او معلماً ، الواقع ان المحتسب برقم مراقبة الأسواق الأ انه لم يحق له تسعير البضائع وإلزام الباعة بسعر محدد امتثالاً كما كان يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم ، الا انه كان يتبقى عليه محاربة الغلاء والاحتكار ، فأن رأى احد يحتكر صنفاً من سائر الأقوات ، لأن الاحتكار حرام في الإسلام وقد قال

344- البلاذري ، المصدر السابق ، ص 170 .

345- سعيد الأفغاني ، المرجع السابق ، ، ص 22 .

346- عبد المنعم صالح نافع ، المرجع السابق ، ص 122.

347- الأفغاني مرجع سابق ، المصدر السابق ، ج7 ، ص 138 .

348- مقدمة بن خلدون ، المصدر السابق ، ص 201 .

رسول الله (ص) (الجالب المرزوق والمحتكر ملعون) وقال ايضاً (لا يحتكر الا الخاطئ) .

كما كان المحتسب يحارب وسائل المخادعة والغش في التجارة ويمنع التجار من شراء تجارة القوافل وهي خارج البلد قبل وصولها الى السوق ، الا انه لم تظهر صورة عمل المحتسب واضحة في نهاية العصر الأموي [349] .

وكان الخليفة الوليد بن عبد الملك يمر في سوق البقالين ويسأل عن ثمن خدمة البقل ثم ثم يقول للبقال : (زد فيها انك تربح) [350]، وربما فعل الخليفة مع مختلف الباعة .

وراقب الأسعار حتى لا ترتفع حتى يتناسب مع دخل الرعية .

كما كان هشام بن عبدالملك يقف بباب القصب فيسأله عن سعر اللحم ، ورأى رجالاً من خاصة يبتاع لحماً فغمزه فأتاه فسأله : بكم يشترى ؟ فقال : بدرهم . قال له هشام : أحسنت وأكثر من هذا الصرف، كما كان يقف في باب البقال ويسأل بكم يبيع الحزمة من كذا وكذا .. فيقول له البقال : بيفلسين ، فيقول هشام : زد فيها فأنها تستحق أكثر من ذلك [351].

ولربما كان الخلفاء يتدخلون في تخفيض الأسعار ، يؤكد ذلك ان رجلاً قال للخليفة عمر بن عبد العزيز : (ما بال الأسعار عالية في زمانك ، وكانت من زمان رخيصة ؟ قال : أن الذين كانوا قبلي يكلفون أهل الذمة فوق طاقتهم ، فلم يكونوا يجدوا بدا من ان يبيعوا أو يكسد ما في أيديهم .

349- حسن ابراهيم حسن ، المرجع السابق ، ص 128 .

350- ابن كثير ، المصدر السابق ، ج 9 ، ص 165 .

351- عبد المنعم صالح نافع ، المرجع السابق ، ص 136 .

وأنا لا أكلف احداً الا طاقتة ، فباع الرجل كيف شاء ، فقال : لو أنك سعرت لنا . قال : ليس ألينا من ذلك شيءإنما السعر لله [352] .

ج – أسلوب التعامل في أسواق بلاد الشام (نظام النقد) :

وكان استخدام كالنقد البيزنطي والفارس والعملة الثابتة ، وفيما بعد الدينار العربي النقص والمستقر الى حد بعيد ، حيث كانت تلك النقود التي توحي بالثقة ، وتشكل اغراء للتجار ، فقد لعب بدور كعامل مساعدَ للتجارة .

ويعتبر التوسع في أعمال الصرفية والبنوك من العوامل الهامة المساعدة على حركة التجارة وزيادة النشاط التجاري، ولكن الإسلام قد حرم الربا، وشدد على تحريمه كما جاء في بعض الآيات القرآنية : (وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا) (يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) [353] .

وفي أحاديث الرسول (ص) (لعن الرسول أكل الربا وموكله)[354] .

ومعنى الربا : هو الزيادة في الدين ، ويقول الغزالي أن على الصيرفي ان يحترس من النسيئة والفضل في التعامل النقدي (اما المتعاملون على الأطعمة فعليهم التقايض في المجلس اختلف جنس المبيع والمشتري ام لم يختلف) فلا يكون البيع لوقت مؤجل [355].

وهكذا يثبت ان التعامل النقدي وتجارة الأطعمة كذلك ، فأنه ينبغي ان يتم البيع ولشراء في وقته فلا يؤجل دفع المبلغ الى وقت أخر يضاف الى زيادة المال .

الا ان منع الربا كان عاملاَ معيقاَ لأعمال الصيرفة وأعطاء القروض ، وبتالي فأنه يؤثر سلباَ على النشاط التجار ويضعف م حركة التجار ولكن في الواقع كان ممكناَ . حيث أهل

352- البلاذري المصدر السابق ، ج 8 ، ص 253.

353- سورة البقرة الآيات 275 – 276 – 278 .

354- مالك بن انس ، الدولة الكبرى ، ج5 ، ص 370 .

355- عاطف رحال المرجع السابق ، ص 168.

الذمة من المسيحيين هم الذين كانوا يقومون بأعمال الصرفية وأقراض المال ، وبجميع المعاملات المالية (356).

أن بعض التجار المسلمين كانوا يلجأون في تقديم القروض الى الأسلوب فيه تحايل على الشرع ، بحيث ان هذا الأمر كان يتم على الشكل :

فقد كان المدين يبيع السلعة الى الدائن بقيمة القرض المتفق عليه ، ثم يعود الدائن فيبيع السلعة، الى المدين بقيمة القرض المضاف اليه الربح أو الفائض عليه وبهذه الطريقة كان يتوفر الحل ، ويستمر اقراض المال وتحقيق الفائض عليه.

ان البيع بالدين كان مخاطر غير مأمونة ، ثم ان التجار كانوا يدركون ان تصديق البضاعة سريعاً ولو كان بأرباح قليلة ، فأن فائدة ذلك تكون باستمرار تشغيل المال في دورات استثمار سريعة مما يحقق ارباحاً أكبر (357).

ويبدو ان البيع المؤجل الذي يعتبر من مخاطر والتجارة يتعرض التجار الى فقد اموالهم ، وقد كان هذا الأسلوب متبعاً عند غالبية التجار على الرغم أنه غير مأمون العواقب ، ومما يوضح ذلك أن احد التجار قد تخلى عن مهنة التجارة بسبب اعتماد البيع المؤجل الذي اعتبره أمر لابد منه في ممارسة التجارة وذلك بقوله (الحمدلله الذي أغناني عن التجار لأني أغلق باب فما يكون خلفه هم (358).

يؤكد على ذلك البيع المؤجل كان طريقة شبه سائرة في العمل التجاري .

وكان التجار يقومون بتأسيس الشركات في سبيل زيادة الفعالية التجارة حيث كانو يساهمون فيها في ما لديهم من أموال نقدية اوبقروض استدانوها وقد تكون المساهمة في الشركة

356- بلبايف ، المرجع السابق ، ص 216 – 217 .

357- عاطف رحال ، المرجع السابق ، ص 170 . .

358- ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج5 ، ص 349 .

بتقديم المال وممارسة كذلك أو بواحدة منها يقوم صاحب المال بتقديم ماله للأخر يتاجر به لقاء حصة من الربح يتفق عليها ويسمى ذلك الأتفاق بالمضاربة .

ويتضمن هذا الاتفاق شروطاَ يفرضها صاحب المال على المضارب ، بتحديد السلع التي يجب المتاجرة بها، وأن يتحمل اي خسائر تلحق بالتجارة ورأس المال طالما التزم على الشروط المتفق عليها .

أما الألتزام الذي تقع على عاتق صاحب المال، فهي تأدية نفقة للمضارب في طعامه ومسكنه وكسوته ، بالأضافة الى دفع أجور النقل (359) .

وقد كانت المضاربة معروفة في الجزيرة العربية قبل الأسلام ، ثم أقرها الرسول (ص) ومارسها بعض الخلفاء الراشدين وأبناء الصحابة ، ثم شاعت في الأقاليم المفتوحة بأعتبارها وسيلة مهمة للتوسع في مجال العمل التجاري .

وقد استعمل الصك في العصر الأموي ، وذلك تجنباّ لمخاطر الطريق في نقل الأموال وهو عبارة عن أمراَ خطئ بدفع مبلغ محدد من المال والى شخص معين ، وقد كان الصك معروفاَ في بداية الإسلام حيث كان يستعمل في أمور عدة ، الأرزاق والأعطيات تدفع عن طريق الصكوك ، كما أن الصكوك استعملت كذلك في التجارة لشراء السلع المختلفة (360).

وقد كان شائعاَ استعمال السفتجة او الحوالة في صدر الإسلام ، وكذلك في العصر الأموي، كوسيلة هامة في نقل الأموال، وتجنب التعرض لمخاطر الطريق ، وتسهيل معاملات التجار الى حد كبير، فالطريقة المتبعة في استعمال الحوالة بين طرفين تتم على النحو التالي: فالدائن يعطي مالاَ لأخر ولأخر (361) مال في بلد المعطي فيعطيه أياه،

359- عاطف رحال ، مرجع سابق ذكره ، ص 174 .

360- الطبري المرجع السابق ، ج1 ، ص 534..

361- نفس المصدر ،ص 32 .

هنالك فيستفيد من امن الطريق ، اي أن الطريق الحوالة يتم التوافق بين الدائن والمدين مال هنالك .

اما معاملات الأستدانة في العصر الأموي فكانت تتخذ طابعاً رسمياً منظماً ودقيقاً ، وتضمن شروطاً والتزاماً تشكل نوعاً من الضمانات القوية الواضحة [362].

ومن الأمثلة على ذلك تنظيم عقد دين جرى في قرية نصتان جنوبي فلسطين ، فكان الشرط الذي فرضه الدائن يقضي بأن يلتزم المدين وعائلته بسداد الدين إن عجز المدين عن دفع دينه ، وقد حضر أربعة شهود وقعوا على هذا العقد الذي يبدو بأنه كان مستوفياً جميع الشروط القانونية [363].

د – وحدات الكيل والوزن والقياس :

تناول الإسلام أمور الأقتصاد في الحياة لموضوع النقود والمكاييل والموازين ، وأكد على اقامة المكاييل واموازين بالقسط وعدم الطغيان والتطفيف فيها قال تعالى : (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ) [364] . ودعا الرسول (ص) للمدينة في مدها وصاعها ، وقال (اللهم بارك لهم في مكيالهم ، وبارك لهم في صاعهم ومدهم ،) يعني أهل المدينة ، وروى عنه أنه قال : المكيال مكيال المدينة ، وزن أهل مكة [365] ، اتخذ الرسول (ص) الصاع مكيالاً شرعياً علق به بعض احكام العبادات مثل صدقة الفطر ، وصدقة الأرضين ، وكفارة اليمين وفدية النسك ، ولذلك قال ابو عبيد بن سلام : (فعلى هذا الصاع تدور أحكام المسلمين في كل ما ينوبهم من امر الكيل في دنيهم من ذلك زكاة الأرضين وصدقة الفطر وفدية النسك ، وصار الوحدة الأساسية في تقدير المكاييل ما ورد ي الآثار المروية عن النبي (ص) والصحابة والتابعين كالعرق والوسق والقسط والمختوم

362– عاطف رحال ، المرجع السابق ، ص178.

363– عطية القوصي ، مذكرات من الحضارة العربية الإسلامية ، جامعة القاهرة فرع الخرطوم ، 1981 ، ص 108 .

364– سورة المطففين . الاية 1– 2) .

365– البلاذري ، المصدر السابق ، ص 129 .

والقيز والملوك والمدى وبعضها مكاييل الشام مثل المدى ، وبعضها من مكاييل مصر مثل الويبة والأردب، وقد تم تحديد وزن الصاع النبوي والمحافظة عليه وصونه من التغيير بالزيادة والنقص على أن يكون وحدة كيل أساسية في تقدير لمكاييل المختلفة عند أداء التكاليف الشرعية فالمثقال كان وزنه موقتاً محدوداً ، كل سبعة منه كانت تساوي وزن عشرة من الدراهم التي واحدها ستة دوانق ، (366)، وقد حسب وزنه بحبيبات معدودة المثقال الواحد أو تجزئتها الى اجزاء متساوية كان يضع صنجات من مضاعفات المثقال او الدرهم، ويسمى هذا الدرهم الدرهم الشرعي ، ودرهم الكيل لأن الرطل الشرعي منه تركب ، وركب من الرطل المد الصاع ، وهذا الكيل والوزن هو الذي اقره الرسول (ص) وعندما دار النقاش في المدينة المنورة أيام الحج النبوي ، احضروا بعض الأصاعات التي كان أهل المدينة يخرجون بها زكاة الفطر وثلث الرطل البغدادي ، ولذلك رجع أبو يوسف إلى قول أهل المدينة في مقدار وزن الصاع النبوي ثمانية أرطال بعد ما كان يعتقد ان وزن الصاع النبوي ثمانية أرطال وكان يسهل للناس إجراء المناسبة بينها وبين المكاييل الأخرى (367).

تواصت الدولة المحافظة على الصاع من التغيير زيادة او نقصاً ، ففي خلافة معاوية قام أمير المدينة مروان بن الحكم بجمع الصيعات وعايد بينها حتى أخذ أعدلها ، وأمر أن يكال به فقيل صاع مروان وليست بصاع مروان ، وإنما هي صاع رسول الله (ص) ولكن مروان عاير بينها حتى قام الكيل على اعدلها حتى اقامها على صاع الرسول (ص) وعندما قام الملك بن مروان بأصلاح النقود فحص عن المكاييل والأوزان ايضاً وقام الحجاج بن يوسف بأتخاذ القفيز في الحجاج ، وأما وصفه بالحجاج فنسبة للحجاج ، أما المختومي فلان الحجاج والأمراء من بعده كانوا يجعلون أعلاه خاتماً مطبوعاً لئلا يزيد فيه ولا ينقص منه، وسرى اتخاذ المكاييل المختومة الى الأنصار الإسلامية الأخرى (368) .

366- إبراهيم حركات ، المرجع السابق ، ص 227 .

367- محمد ضيف الله بطانية ، المرجع السابق ص 338 .

368- محمد ضيف اله بطانية ، المرجع السابق ، ص 338 .

ورفع الى والي أرمينا الجراح بن عبدالله الحكمي أيام يزيد بن عبد الملك اختلاف مكاييلها وموازنها، فأقامها الجراح على العدل والوفاء، وأتخذ مكيالأ يرعى الجراحي ظل ساري المفعول من بعده وكان مثل الصاع الذي كان عهد الرسول (ص).[369] وهكذا رعت دولة بني أمية المكاييل والأوزان الشرعية صوناَ لما تعلق بها الأحكام والمعاملات الشرعية في حياة الناس اما عن طريق رجال الحسبة والشرطة [370] .

369- المرجع السابق تقسه ، ص 339 .

370- البلاذري المرجع السابق ، ص 243.

المبحث الثاني

التجارة الخارجية

عرفت بلاد الشام منذ عصور سحيقة بأهميتها التجارية سواء كان ذلك فيهاتنتجه تلك البلاد وتصدره الى بلاد اخرى ، او ما كانت تتمتع به من موقع يجعلها جسراً لطريق التجارة المار عبر الشرق والغرب والشمال والجنوب لمرور قوافل وسفن التجارة العالمية ، فقد ازدهرت دمشق كمركز تجاري عند ملتقى طرق القوافل الصحراوية ، كما كانت تدمر مركزاً هاماً للقوافل التجارية بين العراق والشام ، ولعبت المدن الشامية دوراً كبيراً في ترويج البضائع خاصة الحرير (371) .

ازدهرت التجارة الخارجية في العصر الأموي خاصة في عهد معاوية بن ابي سفيان وابنه وهناك عدة عوامل ساهمت في ازدهار التجارة مع الدولة البيزنطية منها:

1. كثرة الاضطرابات والحروب في المنطقة الشرقية من الدولة الأموية ، مما خفض من حجم المبادلات التجارية بينها وبين دول المشرق ولو بشكل جزئي ، وبالتالي زيادة حجم المبادلات التجارية مع دولة بيزنطة بالغرب .
2. الاستقرار الأمني في الدولة الأموية ، دفع بكثير من رؤوس الأموال للهجرة من مناطق التوتر في الشرق إلىإقليم الشام ، بحثاً عن فرص استثمار تجارية أمنية .
3. الأعتماد الكلي لكل الدولتين على الأخرى في مجال هام وحيوي بنسبة لها ، فكلما كانت الدولة البيزنطية تعتمد كلياً على أوراق البردي، بينما كانت الدولة الأموية تعتمد كلياَعلى حجم النقد الذهبي داخلها على ما يردها من الدولة البيزنطية (372)

371- السد عبد العزيز السالم ، المرجع السابق ، ص 24 .

372- علي محمد الصلابي ، أمير المؤمنين معاوية ، المرجع السابق ، ج2 ، ص 305 .

وأيضاً من العلامات التي تدل على ازدهار التجارة بين الطرفين في عهد معاوية ومن بعده كمية الدنانير الذهبية البيزنطية التي كانت موجودة في داخل الدولة الأموية وتتم بها عمليات التداول الداخلية، وتعدد الطرق ساعد على نمو التجارة منها .

أ – الطرق البرية :

وعرف العرب منذ الجاهلية التجارة بين اليمن والشام ، فكانت لقريش رحلتا الشتاء والصيف، حيث كانت رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام .

ومقرها بصري من ارض الشام ، ولقد لعبت بصرى دوراَ هاماَ في تجارة القوافل فهي مفتاح الطريق إلى دمشق [373] .

ومع إطلالة فجر الإسلام على بلاد الشام واستقرار كثير من العرب فيها بعد الفتح الإسلامي ازدادت التجارة أتساعاَ، ذلك أنه قد توفرت للعرب المسلمين في بلاد الشام فرصتين ذهبيتين معاَ فأولهما : حبهم ومعرفتهم للتجارة وأساليبها .

والثانية : مركزها الرئيسي في بلاد الشام وما بها من خيرات وإضافة الى موقعها الهام للتجارة العالمية، وقد تعددت الطرق المارة ببلاد الشام لنقل المتاجر أليها من جميع الجهات، فقد كان هناك طريق للقوافل يجعل تجارة اليمن والحجاز بمحازاة البحر الأحمر [374]، وهذا الطريق هو الذي كانت تسلكه قريش أذا أرادت الشام ، وهو الطريق الذي سلكته قافلة قريش القادمة من الشام والتي اعترضها المسلمون فكانت سبباً في غزوة بدر الكبرى[375] وقد ذكر ابن الأثير ان أهم تجارة قريش كانت الفضة [376].

373– ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 409 .

374– موسى عبد الغفار احمد ، المرجع السابق ، ص 59 .

375الطبري ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 422.

376– ابن الأثير ، ج2 ، ص 145.

واما بضائع الهند وفارس كانت تنتقل برا عن طريق عمان والعراق الى البادية ، حتى ينتهي بها المطاف الى بلاد الشام [377] .

من أهم الطرق التى أهتم بها المسلمون طريق دمشق حيث يجتمع الحجاج في هذه المدينة حيث يتجهون الى قرية تسمى (الكوة) تنزل يها القوافل فتتزود ومنها بالماء لوفرة الأنهار بها [378]، ومنها الى الضمين وهي قرية في أوائل حوران ومنها الى البصري وهي اول المدن التي أفتتحها المسلمون في بلاد الشام [379]، ويسير الركب متجهاَ الى أبلة وهي اخر مدن الحجاز وأول الشام على على ساحل البحر الأحمر فيجتمع بها حجاج الشام وحجاج مصر [380] ثم الى تبوك في اتجاهمم الى المدينة ثم الى مكة ، كما كان لهذا الطريق اهميته في الفتوحات الإسلامية حيث عبر ابو عبيدة طريقة الى بلاد الشام ، فاعترضته قافلة الى قريش محملة بالسكر والفواكه المجففة فاستولة عليها .

ولقد كان هذا الطريق أهميته التجارية حيث كانت تصل قوافل التجارة تصل الى المدينة ومنها تجارة عبد الرحمن بن عوف [381].

وكان هنالك طريق آخر للتجارة للصين والشرق ومروراَ بأوسط آسيا وإيران وبلاد العراق ، ومنها عبر البلقاء الى تدمر ثم الى مدن فلسطين وموانئها ولقد كان لطريق تدمر أهمية كبيرة في نقل التجارة العالمية من الشرق والغرب قبل الإسلام ، وأذا كان هذا الطريق قدفقد كثيراَ من أهميته بعد سقوط تدمير، الاانه ما لبث ان استعاد هذه الأهمية بعد اتخاذ الأمويين بلاد الشام لخلافتهم .

377- سعيد الأفغاني ، المرجع السابق ، ص 15 – 16 .

378ياقوت الحموي، المصدر نفسه ، ج 4 ص 4 ص 465 .

379- ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 409 . ، عاطف رحال ، المرجع السابق ،.

380- عاطف رحال ، المرجع السابق .

381- بن كثير ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص 164 .

واما تجارة دمشق وطرق القوافل بها ، ظل الطريق التجاري بها قائماً بدون تغيير في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين، فقد كانت سياسة الأمويين العمل على تسهيل نقل التجارة لما في ذلك من أهمية في إنعاش الحركة التجارية في بلاد الشام [382] ، فقد كانت القوافل تصل الى دمشق عن طريقين : أحداهما : طريق يحازي الطريق النهري عبر الفرات ، ثم تنطلق الى دمشق ، والطريق الثاني : يبدأ من اليمن ويجتاز بلاد الحجاز الى بصرى ثم الى دمشق عبر بادية الشام .

عني الأمويون بتسهيل سبل التجارة ، فنشروا الأمن والطمأنينة في أنحاء دولتهم، وأقاموا المحطات والآبار في طرق قوافل [383] ، فمن ذلك ما حدث في سنة 70 هـ في خلافة عبد الملك بن مروان حيث تضرر الناس في القرى الموصلة الى مكة من جراء الأمطار فأهتم بذلك عبد الملك وأرسل إلى عاملة الأموال لينفقها على كل من تضرر، كما اهتم الوليد بن عبدالملك فكتب إلى عاملة على المدينة المنورة عمر بن عبدالعزيز تسهل الثنايا وحفر الأبار في البلدان[384]، وفي سنة 61هـ حج الوليد واهتم بطريق الحج وقسم الأموال والرقيق [385]، وفي عهد عمر بن عبدالعزيز اهتم بطرق الحجيج وحفر الأبار في مناطق مختلفة في طريق الركب الشامي [386].

وقد كان لهذه الطرق التجارية والموسمية الهامة العناية بطرق ومنازل المارين بها، كما كان يوجد في دمشق فنادق اشبه بالأسواق الكبيرة ينزل بها التجار القادمون اليها ، فيضعون بضائعهم في أسفلها ، وينامون في أعلاه ، وأنه كان يطلق على هذه الأسواق اسم المخازن

382- عصام الدين عبد الرؤف ، المرجع السابق ، ص 55.

383- ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 196 .

384- البلاذري ، المصدر السابق ، ص 65 .

385- الطبري ، المصدر السابق ، ج6 ، ص 437 .

386- ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج4 ، ص 555.

او الفندق ، وكانت (الكسوة) أول منزل تنزله القوافل اذا خرجت من دمشق متجه إلى الحجاز أو إلى مصر [387] .

ب – الطرق البحرية :

اذا نظرنا الى بلاد الشام من ناحية موقعها البحري والبري على التوالي ، وجدنا انها تتميز بموقع فريد، ذلك أن موقعها الجغرافي جعلها مركزاَ هاماَ لالتقاء التجارة العالمية وتفرعها منها وأليها، حيث تلقى بتجارة العالمية وتفرعها منها وأليها، حيث تلتقي بتجار الشرق الأقصى، وتجارة الجنوب العربي، وتجار افريقية واورويا عبر مواني رئيسية هامة وخطوط ملاحية لعبت دوراَ هاماَ في التجارة العالمية البحرية إلى بلاد الشام عبر طريقين:

1. الطريق لأول : هو الخليج العربي وهو من اهم الطرق الملاحية الناقلة لتجار الشرق الأقصى والصين الى بلاد الشام ، فكانت التجارة تصل الى موانئ الخليج العربي ، ثم تنقل بحراَ عن طريق نهر الفرات [388]، ومنه عبر بادية الشام الى مدن الشام وموانئه الرئيسية ، ومنها عبر البحر الأبيض المتوسط الى أوربا [389] ويبدو ان صحار وهو من أقدم موانئ عمان – كان لها دور كبير في هذه التجارة فقد ذكر الحميري بأنه كان يقصدها التجار ، وأليها تجلب بضائع اليمن ، ويتجهز منها أنواع التجارات ، وتسافر منها مراكب الصين [390] .

هذا وقد ازدادت أهمية الدور الذي يلعبه طريق الخليج العربي في حركة التجارة العالمية بين الشرق والغرب بعد أن قامت الخلافة العباسية واصبح العراق مركز الدولة الإسلامية ،

387– الأفغاني ، المصدر السابق ، ج 17 ، ص 167 .

388– عاطف رحال ، المرجع السابق ، ص 165 .

389– موسى عبد الغفار احمد ، المرجع السابق ، ص 59

390– سعيد الأفغاني ، المرجع السابق ، ص 15 .

بل ازدادت أهمية الطريق أكثر بعد ان قام التجار المسلمون برحلاتهم البحرية الى الشرق الأقصى ووصلوا إلى سواحل الصين [391] .

الطريق الثاني وهو طريق البحر الأحمر : وعن هذا الطريق كان يعتبر ميناء أيلة (العقبة) باب لبلد الشامية على المحيط الهندي وأفريقية والشرق الأقصى، ومن هنا جاءت أهميتها التجارية والإستراتيجية، أضف إلى ذلك أن موقعها في فم رأ س الخليج الذي جعلها تتحكم أيضاً في طرق المواصلات البرية، التي تربط مصر والشمال الأفريقي بالحجاز وجنوب الجزيرة العربية الى بلاد الشامى [392] .

وقبل الإسلام كانت الحرب سجالاً بين بيزنطة والحبشة من جهه ، والفرس من جهة أخرى السيطرة على تجارة البحر الأحمر ، حتى أشرقت شمس الإسلام ، فدخل تاريخ تجار لبحر الأحمر مع هذه الأشراقة في طور جديد كان العرب فيه سادة البحر ، وفي العصر الأموي ازدهرت تجارة البحر الأحمر ، والمحيط الهندي ، واهم الخلفاء الأمويون بتجارة الشرق ، وعملوا على أنشاء محطات تجارية على الساحل الشرقي الأفريقي ، لتأمين هذه التجارة ، ويشهد على ذلك قيام الخليفة عبد الملك بن مروان (65 – 86)ه من إرسال قوات في سنة 75ه الى ساحل افريقية الشرقي حيث اتخذت هذه القوات قاعدة لها في جزيرة لامو الواقعة في المياه الساحلية مابين الصومال وكينيا – هذا وقد قام الأمويون عقب نزول قواتهم في ارخيل لامو بإنشاء عدد كبير من المؤاني التجارية على الساحل الأفريقي الشرقي لحماية تجار الشرق في مياه المحيط الهندي [393]، وحظيت اوربا من هذين الطريقين الى بلاد الشام بسلع وبضائع الشرق الأقصى وشرق أفريقية ، وجنوب الجزيرة العربية ، وكان لتجار اليهود الرادانية ، دور في هذه التجارة ، فقد ذكر ابن خردازية: أن

391– سعيد الأفغاني ، المرجع السابق ، ص 15 .

392–عطية القوص ، المرجع السابق ، ص 19 .

393–عطبة القومي ، المرجع نفسه ، ص 22 .

تجار اليهود كانوا يملكون ثلاثة طرق : الأول : طريق البحر من فرنسا الى سوريا ، ومن هناك العراق والخليج العربي حتى الهند والصين.

والثاني : عبر اسبانيا وبعد العبور مضيق جبل طارق الى الساحل الشمالي الأفريقي حتى مصر فالبحر الأحمر الى الهند ، الثالث عبر وسط اوربا الى ارض الخرز (الأتراك الذين يعيشون حول بحر فزوين) ، ومنها يعبر اليهود الى داخل اسيا حتى يصلوا الى الهند [394] ، كما ذكر الحميري ان القسطنطينية وخليجها المشهود وهو الداخل من بحر الشام في البحيرة التي تتصل بالقسطنطينية يصل اليها التجار المختلفون من العراق والشام [395].

ويستدل من الدراسات التاريخية عن بعض مدن الشام الساحلية مثل طرطوس بانياس الأذقية ، انها كانت من العصر الأموي مراكز دفاعية بحرية ، وأنه لم يكن لها آية اهمية اقتصادية او سياسية أما المدن الساحلية التي اشتهرت في العصر الأموي بأهميتها السياسية والاقتصادية والتجارية، فهي صور وصيدا وطرابلس، صور كانت المركز السياسي والإداري وعاصمة لجنوب لبنان وأحدى القواعد البحرية فيى العصر الأموي ، بينما كانت صيداً ذات اهمية تجارية وكانت من أشهر اسواق العطور [396]

أما طرابلس فقد أصبحت أكثر المدن أهمية في الساحل السوري في العصر الأسلامي، وكانت لها أهمية أقتصادية وحربية منذ عهد بعيد إذ انها تعتبر المنفذ الرئيسي للطرق التجارية التي تصلها بأهم مدن الشام حلب دمشق وتدمر، وكذلك بالعراق والخليج العربي، ولقربها من غابات الأرز، اصبحت قاعدة لبضاعة السفن، وقد اهتم بها الخلفاء الراشدون والأمويون لكونها الميناء الطبيعي لمدينتي دمشق وحمص [397] .

394- ابن خرداذية ، المصدر السابق ، ص 153 .

395- الحميري ، الروض المعطار ، تحقيق احسان عباس ، مكتبة لبنان ،ى ط2 ، 1984 ، ص 48 .

396- سعييد الأفغاني ، المرجع السابق ، ط3 ، ص 25 .

397- عاطف رحال ، المرجع السابق ، 168 .

ج – صادرات بلاد الشام :

كان من أهم صادرات البلاد الشام القمح والدقيق والزيت [398] ، كما اشتهرت بتجفيف المشمش والفريك بالشمس [399] وكان ذلك من صادراتها الرئيسية لكثرة هذه المحاصيل بها، ومن الصادرات المشهورة في بلاد الشام ايضاَ الفاكهة اليابسة **(المجففة)** والفستق واللوز والكعك [400] .

وكانت دمشق تصدر المنسوجات الى القسطنطينة ومصر وارمينية ، وبقية جهات سورية ، وكانت لها تجارة واسعة مع منطقة حوران في زراعة الحنطة ، كما كانت تصدر كل سنة جانباَ كبيراَ من الطحين الى البيروت [401] ، وكذلك العسل والسمن والملح والكبريت [402] .

ومن المدن التي تشتهر بتصدير محاصيلها الزراعية معرة النعمان التي كانت تصدر التين والفستق الى مصر [403]، وكانت فلسطين تصدر الزيت والخروب والصابون والتفاح والقطن والنيلية والتمور والحبوب والخضر والمنسوجات القطنينة والحريرية ، كما اشتهرت قرى الشام بصادراتها من الشام منذ عهود قديمة نظرا لخصوبة الأرض وللكثرة ، اراضي رعى ، الماشية [404] ، ومن صادرتها الصناعية التي اشتهرت بها ايضاَ منذ العهود القديمة السيوف والزجاج والأدوات المطلية بالميناء ، والفراء [405].

398– بن كثير ، المصدر السابق ، ج7 ، ص 162.

399– محمد حسن ، المدينة المنورة في العصر الأموي ، مكتبة دار التراث ، بيروت ، ط1 ، 1404 هـ – 1984م ، ص 332 .

400– بن كثير ، المصدر السابق ، ج7 ، ص 164 .

401– محمد كرد علي ، المرجع السابق ، ص 28 .

402– ابن عساكر ، المرجع السابق ، ص 164 .

403– بن بطوطة ، المصر السابق ، ص 52 .

404– البلاذري ، المصدر السابق ، ص 175 .

405 عاطف رحال ، المرجع السابق ، ص 210 .

واردات بلاد الشام :

تعددت المصادر والمراجع في تصنيف الواردات القادمة إلى العالم الإسلامي بصفة عامة ، فأذا كانت بلاد الشام ودمشق خاصة مقر خلفاء بني أمية ، فلا يستغرب أن تكون جميع هذه الموارد قد وصلت الى بلاد الشام وأهمها العطور التي عشقها العرب وعرفوها منذ القدم، إضافة الى أن كثيراً من هذه الواردات التي انتقلت بضاعتها بعد ذلك إلى بلاد الشام، ومنها الحريرية على سبيل المثال، فمن وأرادت دمشق الأواني وأدوات الغزل والمنسوجات الحريرية والصوفية والقطنية [406]، والكتانية والنيلية والأرز والسكر ، والجلود المدبوغة ، وكانت السيوف تستورد من الهند الى بلدة الخط في عمان وتسمى الخطية [407]، وقد عددت الغزوتين واردات بلاد الشام من الشرق والجنوب ، فذكر أن سليمان بن عبد الملك كان يبحث مهرة – بأرض اليمن – يشتري النجائب المهدية [408]، كما ذكر ان تجار المسلمين كانوا يجلبون القرنفل من الجزيرة برطايل [409] ، ويجلبون من سقطري الصبر [410] ودم الأخوين ، والفلفل من ملبار، ويجلبون من قبرص اللادت الجيد والزاج والقبرص ، الزاج الذهبي ومعدن التوتيا من كرمان، كما وصف القزويني مدينة عدن على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن، انها مرفأ مراكب الهند وبلده التجارة ومرابح الهند ، وبها مغاص اللؤلؤ .

فمن التجارات الواردة اليها من الجنوب ، وكان يجلب من سر نديب الحرير والياقوت بجميع ألوانه والبلور وأنواع كثيرة من العطر [411] ، وكان يجلب القطرات من القيارة ، على مقربة من دجلة فيصل الى الشام ومكة والى جميع البلاد البحرية ، وكان العنبر الجيد

406– عاطف رحال ، المرجع السابق ، ص 211.

407– ياقوت الحمودي ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص211.

408– القزوتي ، ص 122 .

409جزيرة برطايل ، قريبة من الجزيرة الزانج في حدود العين ، المصدر نفسه ص 82 .

410– دم الأخوين ، وهو خشب نباتي يصنع به ، المصدر نفسه ، المصدر نفسه .

411– الحميري ، المصدر السابق ، ص 212 .

يستخرج من البحر الأحمر ، كما كانت قوافل الحجاز تنقل إلى فلسطين الجلد المدبوغ وبعض النباتات الطيبة والزيت الطائفي أحياناً ومن اليمن الروائح و العطور وبعض المنسوجات مثل الثياب التجرانية والسيوف اليمانية ، ومن أفريقية الذهب والعاج والأبنوس وريش النعام ، كما كان المسك والعنبر القادم من فارس له اهمية كبري في واردات بلاد الشام، كان يزيد بن عبد الملك يحب الخيل، فكان الناس يتنافسون في إهداء أفضلها اليه، وكان هشام بن عبد الملك يجب الثياب ونفايس اللباس ، وكان الناس يتبارون في تجارتها (412)

412- عاطف رحال ، المرجع السابق ، ص 211.

المبحث الثالث

تجارة الحرير وتأثيرها على مسار التجارة العالمية لبلاد الشام

استطاعت (روما) في عهدها الإمبراطوري أن تحكم سيطرتها العسكرية على آسيا الصغرى وأرمينية، واحتلت سورية وفلسطين ومصر، وقضت على دولة الأنباط ودولة تدمر، وامتدت الطرق التجارية البرية من شواطئ البحر الأبيض المتوسط إلى مدن الصين الشمالية ، في تنقل الحرير الخام والمصنوعات الحريرية التي وصلت إلى عاصمة الدولة روما فكان ذلك سبباً في الاهتمام بتجارة الحرير في الصين والبضائع المتنوعة من الهند ، ثم سقطت روما وحلت محلها القسطنطينية ، عاصمة الدولة البيزنطية ، التي اهتمت بهذه التجارة وطرقها العالمية ببلاد الشرق الأدنى.[413] واتحدت مصر البطلمية وسورية السلوقية تحت السيطرة الرومانية ، ثم أصبحنا من أهم ولايات الدولية البيزنطية ، فأدى ذلك إلى نمو التبادل التجاري حيث صارت بضائع سورية ومصر تصل إلى الهند والصين كما صارت خيوط الحرير الصينية من الهند تصل بيزنطية.

وكانت هذه الحرائر الخام تصنع في بلاد الشام ثم تصدر إلى أوربا ، خاصة ما كانت تطلبه الكنيسة والأباطرة من الأنسجة الحريرية المصبوغة باللون الأرجواني.[414]

غير أن الصراع البيزنطي الفارسي كان له أكبر أثر من التأثير على هذه التجارة القادمة من الشرق فالتجار الفرس والبيزنطيون كانوا وسطاء تاجروا ببضائع الشعوب الخاضعة لسلطتهم والشعوب المجاورة لهم ، وامتدت الخطوط التجارية عبر آسيا ولم تخضع لسلطة واحدة، وإنما ساهمت في التجارة العالمية شعوب عديدة منها اليونايون ، السوريون ، الفرس، الأتراك، الهنود ، الصينيون والعرب، كانت روما قد سيطرت على الخطوط

413- نعيم فرج ، المرجع السابق ، ص 5.

414- السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق، ص 44.

التجارية في آسيا الصغرى ، وبلاد الشام وشمال بلاد النهرين، ثم دأنت القسطنطينية خليفة روما في السيادة على القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية على أن تحافظ على النفوذ الروماني – اليوناني في هذه المناطق وأدت السياسة التوسعية لكل بيزنطة وفارس إلى تصادم حربي، مما عرقل الحركة التجارية على الخطوط البرية عبر آسيا الصغرى، فوجهت بيزنطة اهتماماً إلى الطريق البحري القديم والمؤدي إلى الهند عبر البحر الأحمر.[415]

وقد بدأ الصراع الفارسي البيزنطي على طريق التجارة المؤدية إلى الهند والصين منذ القرن السادس الميلادي واستطاعت فارس السيطرة على الطريقين البريين عبر أواسط آسيا والبحرية عبر الخليج العربي، ثم بدأت تنافس بيزنطة في السيطرة على الطريق الثالث طريق البحر الأحمر، فعمدت بيزنطة إلى إقامة قوات دفاعية على الحدود ضماناً للطريق التجارية البرية أو حمايتها من الأخطار الفارسية ، وهجمات الأعراب في جنوب سورية، وأقوى هذه الخطوط الدفاعية الذي يبدأ من أيلة البحر الأحمر منتهياً إلى الفرات قرب قرقيسيا الدفاعية الذي يبدأ من أيلة على البحر الأحمر منتهياً إلى الفرات قرب قرقيسيا وخلف دجلة وساعد هذا الإجراء على سرعة تحرك القوات إلى الجهات الخطرة في أقرب وقت وأسهل وسيلة ، ولما كان من سياسة الدولة إبقاء بوابة التجارة مفتوحة، كان لا بد من الإصطدام العسكري بين العملاقين ، امتد هذا الصراع إلى الجنوب العربي، ساحل إفريقية أكسوم فتأثرت تجارة البحر الأحمر وتعدى ذلك إلى الطريق البرية، وهذه العوامل مجتمعة هي التي أدت إلى اضمحلال الاقتصاد البيزنطي.

لكن البيزنطيين لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام هذا الصراع والتدهور الاقتصادي، فحاولوا احكام سيطرتهم على التجارة القادمة من الهند باتجاه القلزم وأيلة ، اقاموا ديواناً للمكوس في جزيرة جوباتا (تتيران) عند مدخل الخليجين، كما أقامت العلاقات الودية مع الحبشة ومملكة

415- نعيم فرج ، المرجع السابق ، ص 3.

حمير في اليمن والإمارات العربية الصغيرة على طوال الطرق التجارية الممتدة من سورية إلى جنوب الجزيرة العربية ثم تطور الأمر إلى مساندة بيزنطية للأحباش من اليمن وهم الذين اعتمدت عليهم بيزنطة في الوساطة التجارية ، وقلصوا النفوذ البيزنطي في اليمن ثم قام الفرس أخيراً بحكم اليمن وهو ما أدى إلى تدهور النشاط البيزنطي التجاري في اليمن والبحر الأحمر.[416]

هنالك أزمة أصابت تجارة الحرير في القرن السادس الميلادي فالتجار الفرس استغلوا وضعهم كوسطاء محتكرين، كما استغلوا توتر العلاقات بين بيزنطة وإيران فرفعوا أسعار الحرير الخام، مما أدى إلى ارتفاع أسعار الأقمشة الحريرية المصنعة في المدن البيزنطية، وبصورة خاصة في مدن بلاد الشام، وكذلك ازداد عدد المراكز الجمركية في الأرض الفارسية والبيزنطية، في كل مركز يحصل على ضريبة مقدارها $\frac{1}{10}$ ثمن البضائع الحريرية أو غيرها وارتفع بذلك ثمن الحرير.

على أن البيزنطيين استطاعوا معرفة سر بضاعة الحرير الطبيعي وأقاموا مصانع لتحويل شرانق الحرير إلى نسيج حريري في سورية وسواحل فينيقية.[417]

فقد كانت فرصة طيبة للبيزنطيين عندما تمكنوا من تهريب ديدان القز من الصين وتربيته ، حيث أقاموا له مركز صناعة في كل من بيروت وصور وانطاكية وبعض المدن اليونانية وفي مصر والقسطنطينية ، وأصدر الأمبراطور جنستيان أمره باحتكار صناعة الحرير لتغطية نفقات الدولة ، فأضر ذلك بكثير من المصانع الصغيرة التي أغلقت أبوابها في تلك الفترة.

ومن خلال هذا الصراع الذي نشأ في جنوب الجزيرة العربية وأدى إلى اضمحلال نشأت قوة عرب الجنوب وسنحت الفرصة لظهور قوة منافسة، وهي قوة قريش في وسط الجزيرة

416- انعيم فرج ، لمرجع السابق ، ص 4.

417- السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص 45.

العربية لتلعب دوراً له أهميته في حركة التجارة الدولية البرية القامة من الجنوب العربي والهند إلى بلاد الشام وسواحل البحر المتوسط ، ووثقت قريش صلاتها بمن جاورها من البلدان، وارتبطت بعلاقات جيدة مع الحبشة عبر البحر الأحمر، وكانت أول هجرة سنة 615م كانت إلى الحبشة، كما أن لأيلة علاقاتها التجارية البحرية مع الجنوب والساحل الأفريقي والهند والصين، وقد منحها الرسول (ص) أماناً: (لسفنهم وسياراتهم في البر والبحر ولهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر الأحمر) ، وقوة قريش التي ظهرت في بدء الأمر كقوة مسيطرة على التجارة أراد الله لها وللدولة الإسلامية أن تكون لها السيادة على الدولتين الفارسية والبيزنطية، وتغطي على قواها المسيطرة سواء كان ذلك في الخليج العربي أو في البحر الأحمر وتسيطر على التجارة في بلاد الشام بعد الفتح الإسلامي بأن تكون مرة أخرى القوة المسيطرة على التجارة العالمية والمعبر الرئيسي للتجارة العالمية بين الشرق والغرب.[(418)]

أما فليب حتى فقد أراد أن يبين أن النشاط الاقتصادي لسورية قد ضعف بعد استيلاء العرب عليها، ومع هذا فهو يعترف بالنشاط البحري في العهد الأموي : أن انفصال سورية من الإمبراطورية البيزنطية أضعف تجارتها البحرية إلى حد ما ولكنها استعاضت من ذلك نوعاً ما بأسواق جديدة أثبتت لها سيادتها على فارس وآسيا والوسطى، وقد وصلت سفن الحجاج حتى جزيرة سيلان البعيدة وتعرضت أحياناً لغارات القرصان الهنود.[(419)]

كانت العلاقات التجارية مع الهند مزدهره في العصر الأموي حتى أصبح ساحل مالابار أهمية اقتصادية كبرى لدى العرب، فقد كان يمدهم بخشب السياج لسفنهم.

ومرت ظروف التجارة بتغيرات خلال فترة الفتوح الإسلامية، فقد كانت حركة التجارة قبيل الإسلام نشطة عبر الجزيرة العربية ، وبأيدي القريشين ولكنها مرت بنوع بمن الضعف بعد

418- نعيم فرج ، المرجع السابق ، ص 9.

419- فليب حتى ، المرجع السابق ، ج4، ص 102 – 103 .

هجرة الرسول (ص) إلى المدينة، ثم استمر هذا الضعف بعض الشيء خلال فترة الفتوحات، وعندما استتب الأمر للعرب المسلمين ودانت لهم الشام والعراق وفارس ومصر حتى نشطت الحركة التجارية من جديد ونمت واتسعت باتساع الفتوحات. [420]

ظهور نشاط القريشين بعد الإسلام من حرية التجارة وظهور الثراء العظيم في المجتمع القرشي بعد القضاء على الدولتين الفارسية والبيزنطية في بلاد الشام ، وأن سيطرة الدولة على المسالك التجارية الدولية بعد فتح المناطق الساسانية والبيزنطية قد نشطت التجارة، وأكسبتها ديناميكية جديدة، وأصبحت أسواق الأمصار الجديدة تنافس أسواق مكة في منطقة الحجاز.

خضعت للدولة الإسلامية بعد حركة الفتوح الإسلامية الأولى أصبحت سوقاً عالمية تستقبل الواردات من الطرق التجارية العالمية وتعود بمنافعها على الدولة الإسلامية، ذلك بأن القضاء على الدولة الساسانية ونفوذها في الخليج العربي كان له تأثير قوي في مجال التجارة البحرية، فقد ظهرت أمصار جديدة من منطقة الخليج ومنها البصرة ، كما ظهرت أهمية عمان بمرافئها التجارية التي أصبحت ذات بعد عالمي، وفي طليعة هذه المدن العمانية تظهر (صحار) عاصمة عمان القديمة، وقد كانت تحمل إليها تجارة الصين، فقد تحول الحياة التجارية بعد الفتح الإسلامي تدريجياً خلال القرن الأول للهجرة. كما أن بني تغلب كانوا قد وطدوا أقدامهم في القرن الأول للهجرة السابع الميلادي وسط الجزيرة بين قرقيسيا ونصابين والموصل، حيث كان يمر بأرضهم طريق الهند التجاري إذ كانت تمر آنذاك بالجزيرة الطرق التجارية في جميع الاتجاهات.[421]

420- أنور الرفاعي ، المرجع السابق ، ص 263.

421- عاطف رحال ، المرجع السابق، ص 150. 9

الفصل الخامس

النظم المالية

- المبحث الأول: الموارد المالية
- المبحث الثاني: المصروفات
- المبحث الثالث : تطور العملة
- المبحث الرابع: إصلاحات عمر بن عبد العزيز المالية

المبحث الأول

الموارد المالية

يعتبر نظام الضرائب في أسسه وأطره الإدارية الركيزة الأساسية في البناء الإداري والمالي الذي تعتمد عليه الدولة في تأمين موارد دخلها على الضرائب التي تجبي من المصادر المختلفة.

ولقد وضعت أسس نظام الضرائب الإسلامي الأول في عهد الخليفة عمر بن الخطاب الذي استفاد في كيفية وضع الضرائب واعتبار الجزية فردية أو أجتماعية وفي تصنيف الأراضي[422]. حيث اعتبرت الأراضي العربية عشرية وقد استند الخليفة إلى المبادئ الإسلامية بعدم تقييم الأراضي واعتبارها فيئا للأمة وبأن فرض الجزية أو إلغائها يتم على أساس العقيدة الدينية ، كما أن نظام عمر تأثر بالتراث الإداري المحلي في البلاد المفتوحة، وأبقى على أطر التنظيمات المحلية[423].

وقد حافظ العرب على استمرار الزكاة والجزية والخراج التي كانت مفروضة في العصر البيزنطي إلا أنها أصبحت أقل مقداراً عما كانت عليه في السابق[424].

إن العرب لم يميزوا بين أنواع الضرائب، فهم كانوا يجمعون أتاوات أي مبالغ إجمالية محددة فرضت على البلاد المفتوحة دون أن يهتموا بكيفية جمعها، وأن إصطلاحي خراج وجزية حتى يعين الأول ضريبة الأرض ويعني الثاني ضريبة الرأس[425].

أهتم العرب بتنظيم أوضاع الضرائب وطرق جبايتها واقاموا الأمويين نظاماً ضريبياً موحداً ومنسجماً في أسسه وإلى درجة بعيدة بالتطبيق في الإمصار المختلفة.

422- عاطف رحال ، المرجع السابق ، ص271.

423- عبد العزيز الحموي ، المصدر السابق ، ص 175.

424- جورجي زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامي ، ج1 ، ص 219.

425- فيليب حتى ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، المرجع السابق ، ص 20 – 21 .

اعتبر الخليفة معاوية بن أبي سفيان المنظم الحقيقي للإمبراطورية ، فقد ميز الدخل من أرض الخراج والدخل من أرض الصوافي ، فوضع الصوافي تحت سلطة البيت الحاكم المطلق ، وكذلك فقد معاوية أن تسهم كل ولاية بقدر معلوم من المال ترسل به إلى بيت المال في دمشق بعد أن كان العرف السائد أن ينفق من أمور الولاية معظم ما اجتبى منها [426]، أما الخليفة عبد الملك بن مروان فقد أحدث تعديلات هامة بتقدير الضرائب وطريقة وضعها.

وذلك بعد أن أمر بمسح جديد للأراضي سنة 73هـ ، مما جعل نظام الزكاة والخراج في غاية الدقة والانسجام إلى أن وصل عهد الخليفة المثل الأعلى في تنظيم ميزانية الدولة التي عرفت بأنها أفضل موازنة[427].

وقبل أن نذكر بالتفصيل في العصر الأموي ينبغي أن نتطرق بإيجاز إلى نظام المصادر الإسلامية الذي كان يشمل على جميع أنواع الزكاة والخراج والجزية المحددة نظرياً من قبل الفقهاء، لعل ذلك ساهم بالقاء ضوءاً ساطعاً على سياسة الأمويين الضريبية بشكل عام وبخاصة في الشام ومدى التزامهم بالنهج الإسلامي الأول ، وبتحديد الفقهاء ، للضرائب الشرعية وتأثير ذلك على كله دخل بيت المال وعلى الحياة الاقتصادية لبلاد الشام في العصر الأموي.

ولقد كانت الدولة حسب رأي الفقهاء تعتمد في تأمين موارد دخلها على المصادر التالية : وهي الزكاة والجزية والغنائم وعشور التجارة[428].

426- عبد العزيز الحموي ، المرجع السابق ، ص 31.

427- محمد علي كرد ، المرجع السابق ، ص 322.

428- سمية عبد الماجد بشير، مظاهر الحياة الاجتماعية والعملية في أبان الدول الأموية ، (41هـ - 132) (661م - 750م) جامعة أم درمان الإسلامية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، 2010م ، ص 80.

أ/ الزكاة:

قال الماردي الصدقة زكاة والزكاة صدقة يفترق الاسم ، يتفق المسمى، ولا يجب على المسلم في ماله حق سواها ، قال الرسول صل الله عليه وسلم: (ليس في المال سوى الزكاة). والزكاة أول ضريبة إسلامية فرضت على القادرين والاغنياء، وهي مظهر من التضامن والتكافل الاجتماعي[429].

تجبي في الأموال المرصدة للنماء إما بنفسها وإما بالعمل فيها[430].

وجود اتفاقها حددت بالآية الكريمة : (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)[431] .

وهي مبلغ أثنين ونصف بالمائة من المجموع في الماشية وثمار الأراضي إذا مر عليه عام من غير أن يتعلق به دين[432].

وهي أهم مكونات النظام المالي الإسلامي وذلك لكونها ثابتة بالكتاب والسنة إذ يقول الله تعالى: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ)[433].

كما جمع المسلمون على وجوبها باعتبارها أحد أركان الإسلام الخمسة ، وذلك اتفاق صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتال مانعيها في عهد الخليفة أبو بكر الصديق ، وقد كان الرسول صل الله عليه وسلم ، يقوم بتفريقها ، وكذلك فعل أبو بكر

429- الماررودي ، المصدر السابق . ص107.

430- عبد العزيز الدوري ، المرجع السابق ، ص 209.

431- سور ة التوبة الآية 60.

432- عمر فروح، تاريخ صدر الإسلام ، والدولة الأموية ، دار العلم الملايين ، ط1 ، 1970م، ص 216.

433- سورة البينة الآية 5.

الصديق وعمر أما في عهد عثمان كما كثرت الأموال فقد رأى أن يفرض على الممولين فيما يتعلق بالأموال الظاهرة كالزروع والمواشي ونحوها، فقد استمرت الدولة جبايتها أو إنفاقها، وقد ورد عن أبي بكر وعثمان بن عفان أنهما كانا يأخذان زكاة المال من عطاء الرجل ، ثم اختلفت بعد مقتل عثمان هل تدفع الزكاة إلى الولاة أم لا، وهذا الخلاف بشأن الأموال الباطنة أما الظاهرة ظلت تحصلها الدولة ، وهذا يدل بسبب نقص حصاد الزكاة بشكل عام في العصر الأموي لامتناع جماعة من الناس [(434)]، في عهد عمر بن عبد العزيز سمع الناس بولاية حتى سارعوا إلى دفعها للدولة ، كما أعاد كذلك أخذ العطاء، أي بالخصم عبر المنع ، وهكذا يعكس تعاظم دور الزكاة كأحد مكونات الإيرادات العامة أبان عهد عمر بن العزيز ولا يعني هذا إغفال دورها العام طيلة العصر الأموي ، فبالرغم من عدم توافر نظام عنه إلا أن كل الدلائل تشير إلى كبر أهميتها وذلك لأنها كانت تحصل من قطاعين رئيسيين من قطاعات الاقتصاد الأموي، هما قطاع الزراعة والتجارة خاصة في ظل نظام العشور، منها أيضاً وجود ديوان خاص يسمى ديوان الصدقات ، وهو الديوان الذي يتولى النظر في أمور الزكاة والصدقات التي تجبى من القادرين والمتمكنين مالياً ليتم ذكرها في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وأشار إليه الجهشياري أول مرة في خلافة هشام بن عبد الملك ويذكر أن إسحاق بن قبيعة من ذؤيب كان يتقلد ديوان الصدقة للخليفة عبد الملك ، وقد يعود عدم وجود مقادير تلك الصدقات ، إذا كانت تدفع جميعها أو معظمها في الحال إلى مستحقيها وبصفة عامة يمكن القول أن نظام الزكاة كان مطبقاً في العصر الأموي[(435)].

وفقاً للأسس الشرعية الخاصة به ، وأن قمة التطور بالنسبة لحصيلة الزكاة كان في عهد عمر بن العزيز حيث وثق الشعب في الدولة نتيجة حرصها على تطبيق الإسلام ، كواقع

434- عاطف رحال ، المرجع السابق، ص 278.

435- عبد الله محمد الأمين النعيم ، الحضارة الإسلامية المفهوم والعوامل الأسس والنظم ، ط1، 2007م ، معهد السلام المعرفة، ص 149.

عملي ، فسارع إلى دفع الزكاة إليها وكذلك أخذ الزكاة من العطاء فيه تخفيض لتكاليف جباية الزكاة فزيادة الموارد مع قلة التكاليف أحدثت نمواً ملحوظاً في حصيلة الزكاة[436].

أما الأموال التي توجب فيها الزكاة بالتحديد فهي الذهب ، الفضة ، المواشي، والمزروعات.

أ/الذهب والفضة :

وتدفع الزكاة حين يبلغ نصاب الدراهم مائتين درهم او ما يعادلها من الذهب اي عشرين دينار في صدر الإسلام ، ولا تقوم الدولة بواسطة جبايتها بالتدقيق بمبلغ قيمة الذهب والفضة وبتحصيل زكاتها، بل ان الناس هم يتولون ذلك التقدير ويقومون بملء إرادتهم بدفع هذه الضريبة ولان غالبية الناس في العصر الأموي لم تكن تتأخر عن دفع الضريبة ، حيث ان أثر الدين كان ما يزال قوياً في النفوس في تلك المرحلة المبكرة في الإسلام .

وكان يحصل ارتباكاً في بعض الأحيان عندما تتحول الأموال الظاهرة إلى الأموال باطنة حول موعد دفع الضريبة [437] وقد حصل مثل ذلك مع الخليفة عمر عبد العزيز ، الذي كان يملك أرضاً في السوداء فغلت عليه ريحاً يقدر بمائتين دينار بعد ا دفعت زكاةالذهب كذلك ، المزروعات ، ولكن الخليفة أمر بدفع خمسة دنانير زكاة لهذا المبلغ [438]

وفي الواقع فإن الزكاة الذهب والفضة لا تدفع الا بعد أن يمر سنة عليها في ملكية صاحبها وذلك لقول رسول الله (ص) : (لا زكاة في مال حتى يحول عليه الحول).

ب – المواشي : تؤخذ زكاتها إ ذا كانت سائمة ترعى في المراعي ، ولاتؤخذ زكاة إلا بل والبقرة العاملة ، وتدفع الزكاة عندما يصل عدد المواشي الى النصابوبعد أن يمر الحول عليها في ملكية صاحبها ، ويكون مقدار الزكاة كالأتي :

436– إيناس حسن البهجي ، المرجع السابق ، ص 113.

437– ابن عساكر ، المصدر السابق ، ج6 ، ص276 .

438– الماردي ، المصدر السابق ، ص 16 .

في الإبل : من 5– 9 فيها شاه واحدة

10 – 14 شياه

15 – 19 ثلاثة شاه

في البقر : إذا بلغ عددها 30 ففيها تبع (ذكر عمره ستة أشهر) وإذا وصل العدد الى 40 ففيها مسنة [439] (أنثى عمرها سنة) وكذلك تكون زكاة الجواميس أيضاً

في الغنم : من 40 – 120 فيها شاة

121 – 200 شاتان

201 – 399 ثلاثة شياه ، ولم تؤخذ الزكاة من الخيل [440] .

ج – أموال التجارة : وتفرض الضريبة على بضائع التجار المسلمين ومن بينها تجار الرقيق عندما يحصل نصابها إلى مائيتي درهم ويبلغ مقدار هذه الضريبة ربع العشر أو (2½%)، وكان الرقيق لغير التجارة بعض صاحبها من دفع زكاته، إما جباية الزكاة فكانت تتم في الشهر الأول من السنة القمرية .

439– عاطف رحال، المرجع السابق . ص 220 .

440– الماروردي ، المصدر السابق ، ص 116 .

ب – الجزية :

هي احد الموارد المهمة لبيت المال ، وهي تعني لغوياً الجزاء ، أي المكافأة القضاء أو خراج على الأرض أو ما يؤخذ من الذمي ، ويعرفها ، الماوردي : بقولة (فهي موضوعة على الرؤوس أو أسمها مشتق من الجزاء [441] .

وهي ضريبة تؤخذ من أشخاص من غير المسلمين وتؤخذ من الذكور البالغين الأصحاء الذين يكتسبون ولاتؤخذ من الأطفال والنساء وذوي العاهات والراهبات ولا من الطاعنين في السن [442].

وأيضاً هي مبلغ بسيط معين يدفعه الزمي عند إعفائه من الجندية وانتفاعه بالمرافق العامة وخدمات الدولة ، القضاء والشرطة والطرق ومشاريع الري وغيرها [443] وكانت تعرف أحيان باسم الجوالي [444] ، التي ربما تعني في الأصل جاليات الذميين الذين إجلالهم الخليفة عمر بن الخطاب عن أوطانهم في شبه الجزيرة العربية فالذم هم هذا الاسم الذي صار في بعض الأعيان على الجزية [445]

وتسقط الجزية عن الزمي بدخوله الإسلام أو لعجزه أو فقده أو عجز المسلمين عن حمايته او التحاقة بأهل الدار الحرب [446] .

وقد فرضت الجزية بنص القرآن الكريم يقول الله تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الأخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يد ينون دين الحق من الذين أوتوا الكتب حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون [447] .

441– الماررودي ، المصدر السابق ، ص 136 .

442– عمر فروخ ، تاريخ في صدر الإسلام والدولة الأموية ، المرجع السابق ، ص 218 .

443– واضح العمد، الحضارة العربية الإسلامية في صدر الإسلام، المؤسسة الحديثة الكتاب، طرابلس – لبنان (د – ت) ، ص 110

444– المقزيزي ، المصدر لسابق ، ج1 ، ص 137 .

445– سعيد عبد الفتاح ، عاشور وآخرون ، دراسات في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، الكويت ، 1985 ، ص 362.

446– توفيق اليوزبكي ، تاريخ أهل الذمة في العراق ، مطبعة دار العلوم ، الرياضي ، 1983 ، ص 64.

وأما مقدار الجزية التي فرضها العرب على سكان الشام عند الفتح ، فكانت تؤخذ نقداً وعيناً ، فيقول البلازري : كانت الجزية بدء الأمر جريباً* وديناراً على كل جمجمة[448] ويؤكد الطبري على ذلك ولكنه يوضح أن مقدار الجزية قد فرض تصفه نقداً عيناً ، حيث مقدار أن الجزية كانت على المقاسمة الدينار والعقار، ودينار على كل رأس، ولكن الخليفة عمر بن الخطاب عندما قام بالتنظيم العام للضرائب فقد أجري تعديلاً على ضريبة الرأس في الشام، حيث عمل إعادة تقديرها وجعلها نقدية[449]. ثم عممها على جميع المجتمع بعد أن قام بإجراء إحصاء للسكان ، فوضع الخليفة على أهل الذهب أربعة دنانير وعلى أهل الورق أربعين درهماً وجعلهم طبقات لغني لغني ، وتوسط المتوسط وإقلال المقل.[450]أي الخليفة قد راعى في تقدير الضريبة غنى الشام وأحوال سكانها ، فوضع على الأغنياء أربعة دنانير وعلى متوسطي الدخل دنانير كمتوسط الضريبة ، وديناراً واحداً على أصحاب الدخل الضئيل ، وقد أوصى الخليفة بعدم تحميل أهل الذمة فوق طاقتهم.

وكان يوجد جزية خاصة سميت بالصدقة المضاعفة قد فرضت على القبائل العربية من النصارى في الشام كقبيلة بني تغلب.[451] وقبيلتي تنوخ وبهراء[452]. وذلك لآنفة هؤلاء من الجزية واعتبارها دليلاً للصغار والهوان، إلا أن المبالغ التي تجني من هذه الصدقة المضاعفة فقد اعتبرت كالجزية من أموال الفيء التي يتم تسجيلها في ديوان الخراج وليس بديوان الصدقة.

وفي العصر الأموي حاول الخليفة عبد الملك بن مروان بإجراء إصلاحات ضريبية شاملة حيث أمر بإعادة النظر بتقدير الضرائب وطريقة وضعها، وبالأخص ضريبة الرأس التي

447- سورة التوبة ، الآية (36) .

* الجريب : مكيال عبارة في صدر الإسلام 22, 715 كغم قمح البلاذري ، المصدر السابق ، ص 131.

448- الطبري ، المصدر السابق ، ص 269.

449- عاطف رحال ، المرجع السابق، 131.

450- البلاذري ، المصدر السابق، ص 131

451- المصدر نفسه ، ص 185

452- الماوردي ، المصدر السابق . ص144.

عممها على جميع الناس بدون استثناء وساوى بينهم بتأدية ذات مقدار الضريبة فيقول أبو يوسف أن الخليفة عبد الملك بن مروان قد فرض ضريبة مقدارها أربعة دنانير على كل فرد في الشام والجزيرة ، وبذلك بعد أن اعتبر كل الناس عمالاً بأيديهم ، فأجرى حساب ما يكسبه العامل في السنة ، ثم طرح من هذا الدخل السنوي جميع نفقاته وطرحت كذلك أيام الأعياد في السنة فتبين أنه يبقى لكل فرد أربعة دنانير في السنة ، فألزموا جميعاً بدفعها وجعلوا طبقة واحدة[453].

أما الخليفة عبد الملك بن مروان فقد جعل الناس طبقة واحدة فرض عليهم ضريبة مرتفعة وهي أربعة دنانير التي تعتبر الحد الأعلى للضريبة التي وضعها الخليفة عمربن الخطاب، على الأغنياء حيث أن الفقراء ومتوسطي الدخل من الفلاحين والعمال والأجراء وأصحاب الحرف في القرى والمدن ، وزادت ضريبتهم كثيراً وحملوا من مقدار الضريبة ذاتها التي كانت مفروضة عليهم سابقاً ، غير أن هذه الإجراءات التي اتخذها الخليفة قد حققت دخلاً كبيراً لبيت المال في نهاية الأمر.

لقد فرضت الجزية على رجال الدين المسحيين بعد أن كانوا معفيين منها حتى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، وفي عهد الخليفة عمر بن العزيز فأصبحت دينارين على كل راهب [454].

وكان تحول أعداد كبيرة من أهل الذمة في أقاليم مختلفة إلى الإسلام في العصر الأموي. [455] وقد أدى إلى نقص كبير في دخل بيت المال ، مما جعل الأمويين في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان يعاودون فرض الجزية على هؤلاء المسلمين الجدد بهدف الحفاظ على موارد بيت المال. [456]

453- عاطف رحال ، المصدر السابق ، ص 297.

454- إيناس حسني ، المصدر السابق ،ص 98.

455- الطبري ، المصدر السابق، ج6، ص 559.

456- المقريزي ، المصدر السابق ، ص 77 – 78.

إلا أن الأمويين كانوا يحاولون تبرير موقعهم بأتهام الذين أسلموا بأنهم يهربون من دفع الجزية وليس رغبة في دخول الإسلام، بل كانوا يعتبرون أهل الذمة كالعبيد ليس لهم حقوقاً، حيث أن الجزية المفروضة على أهل الذمة وإن أسلموا بمنزلة الضرائب على العبيد فلا يسقط إسلام العبد منه ضريبة.

وعموماً فإن الجزية استمرت جبايتها من هؤلاء المسلمين، الجدد حتى عهد الخليفة عمر بن العزيز الذي كان أمر بإعفاء من دخل في الإسلام من هذه الضريبة، ولكن الحكام الأمويين الذين جاؤوا بعده عادوا إلى سيرتهم الأولى ، وفرضوا الجزية على الذين اعتنقوا الإسلام.

أما مقدار الجزية التي كان قد فرضها الرسول صل الله عليه وسلم على أهل بيته، وهي ضريبة محدودة تبلغ ثلاثمائة دينار في السنة، فإن الخليفة عمر بن العزيز لم يرد على دينار في هذه الضريبة شيئاً[457]،ويعني ذلك أن هذه الضريبة لم يطرأ عليها تعديل منذ عهد الرسول صل الله عليه وسلم، حيث استمرت جبايتها بذات المقدار.

وكان الجراجمة الذين يقطنون في مدينة يقال لها الجرجومة في جبل المكارم في شمالي بلاد الشام ، وقد أعفوا عند الفتح من دفع الجزية ، على أنن يكونوا أعواناً وإدلاء للمسلمين وأن لا يتآمروا مع الروم أعداء المسلمين .

ولكنهم في الواقع لم يستقيموا ويلتزموا ما اتفق معهم، فوجه إليهم الخليفة الوليد بن عبد الملك جيشاً بقيادة أخيه مسلمة سنة 89 هـ ففتح مدينتهم إلا أنه عقد اتفاقاً معهم ينص على أن يستقروا في بلاد الشام حيث يريدون وبأن يفرض لهم العطاء، كما أنه قد استمر

457- الطبري ، المصدر السابق ، ص ج6 ، 559.

إعفائهم من دفع ضريبة الجزية وجعلهم كباقي المسلمين تؤخذ منهم ضريبة الزكاة فقط[458].

ويتضح أن معاملة العرب المتميزة لهم ثم العمل توزيع في بلاد الشام ، لم تكن إلا التخلص نهائياً من تحركاتهم وحياكة المؤامرات[459].

والاضطرابات التي قد أغلقت العرب منذ فترة طويلة، وكانت الجزية تجبي مرة واحدة في السنة أما موعد جبايتها فكان يتم وقت نضوج الغلات[460].

ج/ الغنائم :

هي كل ما يناله المسلمون من المشركين بالقتال من أرض ومتاع ومال ، حيث توزع أربعة أخماس الغنيمة للمقاتلين ويذهب الخمس إلى بيت المال[461].

وأيضاً هي ما يظهر به المسلمون على وجه الغلبة والنصر[462]. وأيضاً تشمل الأسرى وهم المقاتلون من الكفار الذين اسروا واسترقوا والسبي من النساء والأطفال والأموال المنقولة[463].

ويقول الله تعالى : (وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ)[464] وأول غنيمة غنمها المسلمون كانت بعض أبل له نخلة بين مكة والطائف في جمادي الآخر من السنة الثانية، الهجرة ديسمبر 623م على يد

458- البلاذري، المصدر السابق ، ص 71.

459- البلاذري ، المصدر نفسه ، ص 164 – 165 .

460- عاطف رحال ، المرجع السابق . ص 299.

461- عبد الله محمد الأمين النعيم ، المرجع السابق ، ص 149.

462- واضح الصمد، المرجع السابق ، ص 209.

463- الطبري المصدر السابق . ص ج2 ، ص 262 – 264 .

464- سورة الأنفال ، الآية 41.

سرية عبد الله بن جحش الأسدي[465]. ويشتمل الغنيمة على أقسام هي أسري سبي وأراضي وأموال ، فالأسرى هم الرجال المقاتلون من الكفار الذين يقعون في أسرى المسلمين، وقد اختلف في حكهم ، إما بقبول الفدية عنهم ، وقتلهم أو يمن عليهم الخليفة ، أو الحاكم بإطلاق سراحهم ، إما بالسبي فيقصد بهم النساء والأطفال الذين يقعون بدورهم في الأسر.

وهؤلاء لا يجوز قتالهم إذا كانوا من أهل الكتاب وإنما يقسمون من جملة الغنائم ، أما فيما يتعلق بالأرض التي يتم الإستيلاء عليها عنوة أو قهراً ، وفارقها أهلها بقتل أو أسر أو جلاء ، فقد اختلف الفقهاء بصددها من يعدها ضمن الغنائم ، ويبيح تقسيمها بين الغانمين كالشافعي وإلا أن يطيبوا نفسها بتركها ، توقف عندئذ على مصالح المسلمين، وهو يخالف الإمام مالك بذلك ، الذي يوصي بعدم قسمتها، ويرى ضرورة وقفها على المسلمين ، أما أبو حنيفة فقد ترك حرية التصرف فيها بالقسمة أو الوقف إلى الإمام نفسه.

أما الأموال المنقولة وهي ما يمكن نقلها كالماشية والمال ، فكانت تقسم بين المقاتلة، وكذلك الحال بالنسبة للأسلاب كثياب القتلى وأسلحتهم ودوابهم وكان الرسول (ص) يقسمها حسبما يرى ولما اختلف الصحابة في تقسيم غنائم بدر شرح القرآن الكريم طريقة قسمتها، وذلك في سورة الأنفال قال الله تعالى: (وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[466].

465- عبد الحكيم حسن إبراهيم ، السياسة والاقتصاد الإدارية والسياسية والاقتصاد في المدينة المنورة في العصر الأموي . جامعة الأموي ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، 1427هـ - 2006م ، ص 110.

466- إيناس حسني البهجي ، المرجع السابق ، ص 116.

فقسم الرسول (ص) الغنيمة وخمسها[467]، وكانت أول غنيمة قسمت في الإسلام. [468]

وفي العصر الأموي ازدادت حركة الفتوحات وقد اتبع الأمويون نفس النهج العمري بالنسبة للغنائم والأرض المفتوحة، فكان تخميس الغنائم وتقسيمها بين الفاتحين وترك الأرض فيئاً لمجموع المسلمين مع ضرب الخراج عليها، هذه أهم المصادر المالية للدولة مع وجود مصادر أخرى كنظم خمس الركائز، ومال من لا وارث له إذ ظل العصر الأموي على ما كان عليه، عهد الرسول الله (ص) والخلفاء الراشدين إضافة أن نسبة هذين العنصرين بسيطة جدا بالنسبة لغيرها من المصادر [469].

د/ عشور التجارة :

في اللغة : هو الجزء من عشر أجزاء ، والجمع أعشار ، وتجمع على عشور والعشور تستحق على أموال التجارة الداخلة إلى بلاد الشام والخارجة منها نسبة لمعاملة التجار الأجانب بمثل ما يعاملون به تجارتنا[470].

وأيضاً مقابل ما تقوم به الدولة الإسلامية من توفير الحماية والأمن للتجار، وما تقدمه لهم من خدمات ومصالح وما تنشئه من مرافق ، كتمهيد الطرق وبناء القناطر والجسور وتهيئة الأسواق والقيام على حفظها وسلامتها.

وهي فريضة كانت مفروضة على الأموال التجارية وقد فرضت هذه الضريبة باجتهاد شخص الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكانت تؤخذ مرة واحدة في السنة ، ويسمى الموظف الموكل عليها بالعاشر ، ويتم تعيين هذا الموظف وفق شروط عدة

467- سورة الأنفال ، الآية 41.

468- علي حسين الشطشاط ، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية دار قباء للنشر ، القاهرة ، ط1، (د.ت) ، 117.

469- إيناس حسني البهجي ، المرجع السابق ، ص 109

470- سعيد أبو الفتوح حمد بسيوني ، الحرية الاقتصادية في الإسلام ، وأثرها في التنمية ، دار الوفاء للكثير ، ط1 ، 1408هـ - 1988م، ص 59.

مقدمتها التقوى والعفاف والنزاهة[471]. وفرضها الخليفة لأول مرة على التجار من غير المسلمين الذين كانوا يفرون إلى دار الإسلام ببضائعهم وبسبب الخطاب الذي تلقاه من موسى الأشعري، والي الكوفة أن تجاراً من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب (أي بلاد الكفار الذين ليس بينهم وبين المسلمين عهد، فيأخذون منهم العشر ، فرد عليه عمر قائلاً : خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين)[472].

وقد وجدت جباية عشور التجارة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عندما بعث زياد بن حديد على العشور ، وأمره بأن يفرض على المسلم ربع العشر حيث قال في ذلك أبو عبيدة لو كان مذهب عمر فيها وقع من ذلك ، أنه كان يأخذ من المسلمين الزكاة ومن أهل الحرب العشر تماماً لأنهم كانوا يأخذون من تجار المسلمين مثله ، وإذا قدموا بلادهم[473].

وكانت الجباية على العشور سنوياً حيث كانت تثبت في سجلات. أن يكتب التاجر بالمبلغ الذي خصصه وبمقتضاه لا تأخذ منه العشور إلا في السنة التالية. وأن لا يتم تفتيش التاجر ، فسبيله سبيل الصدقة ، الخراج ، وقد فرضت في الدولة الأموية على التجارة البرية والبحرية وكانت السفن التي تمر ببعض الثغور في عهد الدولة الأموية يؤخذ منها العشر على التجارة التي تحملها عيناً أو نقداً . حيث كان عمال اليمن يأخذون هذه الضريبة من السفن التي تمر بسواحلهم قادمة من الهند تحمل الموارد المختلفة والمسك والكافور وللصندل[474].

471- عدي سالم عبد الله حمد الجمبوري ، دراسات في تاريخ صدر الإسلام ، دار الحامد للنشر والتوزيع ط1، 2014م ، ص 45.

472- شوقي أبو خليل ، الحضارة الإسلامية ، ص 200.

473- سلامة صالح النعمان وآخرون ، المرجع السابق ، ص 176.

474- علي محمد الصلابي ، أمير معاوية بن سفيان ، شخصيته وعصره، دار الكتب للنشر ، ط1 1429هـ - 208. ص 88.

* المكوس : هي الضريبة على الحدود بين مصر والشام .

* رفح : مدينة على الحدود بين مصر والشام ، المقريزي ، ج2 ، ص 508.

ويبدو أن العشور التي فرضها عمر بن الخطاب لم تؤخذ بها على الوجه الصحيح في عهد الدولة الأموية بحيث فرضت ضرائب أخرى على التجارة وهي المكوس*. كما يؤكد وجود مراكز أخرى خاصة بجمع هذه المكوس في عهد الدولة الأموية ، ما كتبه عمر بن العزيز إلى عامله عبد الله بن عوف بقوله: (أركب إلى البيت الذي برفح* الذي يقال له بيت المكس فأهدمه ثم أحمله إلى البور فأنسفه نسفاً). فمن المؤكد أن هذه المركز لم يكن لجمع مكوس فادحة وليست العشور التي سنها عمر بن العزيز كتب إلى زريق بن حيان ، وكان على عشور مصر، أن يطبق نظام أخذ العشور كما ورد في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، ألا يأخذ منهم العشور إلى أن يحول الحول كما كان ينهي الخليفة عماله أن يأخذوا من ما أمره ، [475]. وكانت هذه الضريبة لا تؤخذ من التاجر إلا إذا انتقل من بلاده إلى أخرى.

475- ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ي بلاد الشام في العصر الأموي ، توهاما للنشر، جدة، 1409هـ - 1989م، ص 280.

المبحث الثاني

المصروفات

العطاء أو الرزق :

هو عبارة عن منحة سنوية يخصص للمحاربين والغزاة السابقين وأسرهم بشكل مضبوط يخضع للاستقرار.

أما في العصر الأموي : تفاوت قد كانت تحدث تغيرات استثنائية فردية قد يراعى فيها مدى اخلاص المستحق للدولة ، وعمل الحجاج على نقص عطاء بعض الذين تعاونوا فيما مضى مع ابن الزبير بينما زاد والي مصر أيوب بن شرحبيل زيادة عامة العطاء. فرض معاوية للموالي خمسة عشر سنوياً ثم صارت عشرين في عهد عبد الملك وخمسة وعشرون في عهد سليمان، وخصص هشام الأبناء منهم بثلاثين (الأبناء هم سلالة الفرس).

أما مروان بن الحكم الذي وجد نفسه بعد توليته معزولاً حتى داخل بلاد الشام فقد خضع لضغوط فئة القحطانية بها فكانوا ذوي أغلبية وقوة ، واستجاب لمطلبهم بفرض الفين لكل نفر [476].

وكان عبد الملك بن مروان يعطي أهل الشام بسخاء [477]. وقد ذكر محمد أحمد صالح أن الدولة الأموية قد ميزت دون غيرهم من العرب في العراق. فقد زاد معاوية أهل الشام عشرة دنانير لكل رجل في عطائه[478]. ولجأ خصوم الدولة الأموية مثل المختار وعبد الله بن الزبير إلى رفع عطاء أهل العراق فقد زاد بعد القضاء على مصعب ردت هذه الزيادة مما أدى إلى ثورة عبد الله بن الجارود ضده فقضى الحجاج عليه وعلى أصحابه[479]. وأثناء

476- صلاح طهبوب ، المرجع السابق ، ص 158.

477- عصام الدين عبد الرؤوف المرجع السابق ، ص 72.

478- ابن كثير ، المصدر السابق ، ج8، ص 227.

479- الطبري ، المصدر السابق . ج6 ، ص 211.

ثورة ابن الأشعث وعد عبد الملك بن مروان أهل العراق أن يجعل عطاءهم مساوياً لعطاء أهل الشام ولكنه لم يف بوعده بعد أن قضى على هذه الثورة بواسطة جند الشام[480]. وكان عمر بن الخطاب قد فرض للمولود في العطاء ، إلا أن عبد الملك بن مروان قطع هذا العطاء إلا من شاء[481].

ثم استمر عرفها بعد ذلك في عهد عبد العزيز فقد ذكر البلازري، أن شجاع الجذري قال : أن عمر بن عبد العزيز كان يعطي، وعلى الرغم من وصف بعض الشعراء لعبد الملك بالبخل وعدم إعطائهم كباقي الخلفاء الأمويين إلا أنه زاد في عطاء الشعبي وهو أحد الشعراء، في ذلك الوقت الفين وكذلك في عطاء عشرين رجلاً من أهل بيته ألفين ألفين[482].

ولم يكن الوليد بن عبد الملك أقل سخاء ممن سبقه من الخلفاء الأمويين من حيث العطاء فقد زاد في عطاء حارثة بن بدر حتى بلغ ألفي دينار وهو أحد أهل البصرة من حارب وقاتل ، وكان يرسل عماله إلى الولايات ليقسم العطاء فيهم ، فمن ذلك إرساله إبراهيم بن شمر من دمشق إلى بيت المقدس ليقسم للناس العطاء فيهم حرصاً على وصوله في أوقاته[483]. فقد كان العطاء يصرف لجند الشام في أول السنة الهجرية ، كما كان الوليد يوزع العطاء في الصالحين ، ويخرج الأموال في عطايا الناس وكسوتهم كما زاد في عطاء الشاميين خاصة عشرة عشرة ، وزاد أهل بيته في جوائزهم الضعف وكان عصر الوليد بن عبد الملك عصر رخاء وازدهار بكثرة الفتوحات والأموال فليس مستبعداً على أي حاكم أن يوسع في الرزق على شعبه بصفة عامة طالما أن هنالك زيادة في الخيرات ، وأجرى الأرزاق على القوام في المساجد والعجزة، وفرض سليمان بن عبد الملك في عهده طرائق

480- محمد أحمد صالح، النظام المالي والاقتصادي في الشام ، مكتبة نهضة الشرق ، جامعة القاهرة ، 1984م ، ص 122.

481- البلاذري ، المصر السابق . ص 445.

482- الأصفهاني، المصر السابق ، ص 171.

483- ابن عساكر ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 434.

جديدة أما في العطاء للأولاد في عهد سليمان بن عبد الملك فإن بعض المصادر تشير إلى سياسة معينة اتجاه ذلك حيث لم يكن مقررا وخاصة للمواليد وصغار السن أما عمر بن العزيز فقد حاول إعادة تنظيم العطاء إلى ما كان عليه في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، من حيث التقسيم والتوزيع وإعطاء كل ذي حق حقه. وقد زاد في اقتياد أهل الشام عشرة دنانير [(484)]، ولم يقفل عمر بن العزيز من العجزة والمحتاجين في العطاء فقد كفاهم مشقة السفر وعناءه من بلدهم إليه في دار الخلافة لينالوا العطاء[(485)]. كما كان يكرم الموالي ويجعلهم في الرزق والعطاء سوياً مع العرب كما عاد سنة توريث العطاء لذريته [(486)]، ويروي لنا الطبري قائلاً (الحق عمر بن العزيز ذراري الرجال في العطايا . أقرع بينهم فمن أصابته القرعة جعله في المائة ومن لم تصبه جعله في الأربعين ، وقسم على الفقراء ثلاثة دراهم وأعطى للمسنين خمسين)[(487)]. وبهذا نجد أن عمر بن العزيز إعاد سنة عمر بن الخطاب.

وعلى الرغم من التنظيمات المالية التي أحدثها عمر بن العزيز في الدولة الأموية خلال فترة خلافته ، إلا أن تلك الفترة قد أصابها نوع من الاضطراب المالي ، وذلك بسبب توقف الفتوح الإسلامية عن ناحية ، وبسبب تنظيماته المالية من ناحية أخرى والتي لم يتح لها الوقت الكافي لتؤتي ثمارها بسبب قصر مدة خلافته.

أما في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ، فقد خالف سياسة الإصلاح المالي التي سار عليها عمر بن العزيز في شؤون المال والعطاء غير أنه كان يتقرب إلى رجال الدين فكان يجري على رجاء بن حيوة ثلاثين ديناراً وقد خصص يزيد بن عبد الملك رواتب لثلاثة ألف رجل في عمان ليكونوا على استعداد للخدمة عند استدعائهم.

484- اليعقوبي ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 206.

485- الطبري ، المصدر السابق ، ج6، ص 570.

486- البلاذري ، المصدر السابق، ص 447.

487- الطبري المصدر السابق ، ج6، ص 569

ولما تولى الخلافة هشام بن عبد الملك أعاد هدايا النيروز ، والمهرجان ليضمن زيادة مدخلات الدولة[488]. وزاد في عطاء العرب بإعتباره عماد الجيش الأموي، وكذلك في عطاء الموالي الذين بلغ عطاؤهم في عهده ثلاثين ديناراً ، ومنهم جند بعلبك وأنطاكية ، كما جعل العطاء مائتين ديناراً[489].

وإذا كان هشام بن عبد الملك لم يكن زاهداً في أموال الدنيا كما كان عمر بن عبد العزيز، إلا أنه في نفس الوقت لم يكن سخياً كسخاء خلفائه الذين سبقوه، فقد وصف بالبخل ، ومن الأمثلة على ذلك أنه رفض أن يضيف عشرة دنانير إلى عطاء أحد مواليه الذي أسدى إليه خدمة في مضاعفة محصولات ضيعة له تعهدها وعنى بزراعتها[490].

إن الأوضاع المستقرة التي وجدت طوال الفترة السابقة قد بدأت تظهر عليها بوادر الخلل والضعف وهذا الخلل ليس أساسه الإصلاحات المالية لعمر بن عبد العزيز، ولكن الخلل والضعف استشرى في عصب الدولة الأموية بفساد عمالها[491].

وظهرت قوة المفاضلة بين القيسية واليمنية في عهد هشام بن عبد الملك ، فقد كان ولاته لا يستقرون في صرف العطاء ومقداره بين القبيلتين كل حسب الجهة التي ينتمي إليها كما حدث ذلك في ثورة الحارث بن سريح[492].

كما قطع هشام العطاء عن الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وهو ولي العهد، حيث بلغه عنه أمور لا تصلح أن تكون أخلاقه من بعد لخلافة الأمة الإسلامية[493].

488- كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة بثينة أمين فارس ، ومنير البعلبكي ، دار الملايين بيروت ، ط7 ، 1977م ، ص 144.

489-عبد المجيد محمد صالح الكبيسي ، عهد هشام ، بن عبد الملك ، مطبعة سمان الأعظمى ، بغداد ، 1975م ص 341.

490- الطبري ، المصدر السابق ، ج7، ض 203.

491- محمد كرد علي ، المرجع السابق ، ص 194.

492- ثريا حافظ عرفة ، الخراسانيون ، ودورهم السياسي في العصر العباسي الأول ، شهامة للنشر والإعلان ، جدة 1402 هـ - 1982م ، ص 38.

493- ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج5 ، ص 264 - 265.

كما أمر هشام بأن يعطي العطاء للمقاتلة فقط ، وأن لا يعطه أحد من الأشراف أو رجال البيت الأموي إلا إذا كان في صفوف المقاتلة فقط، ولكن وذوي الجاه والسلطان، دون أن يكون لهؤلاء أي أثر يذكر في الجهاد الذي شرع العطاء من أجله. وكان هشام حريصاً الحرص على الأموال والنفقات حتى وصف بالبخل، ومع هذا نجد أن وصفه بالحرص على أموال الدولة ، فقد كان لا يدخل بيت ماله مال، حتى يشهد أربعون شاهداً ، أن كل ذي حق قد أخذ حقه[494]. كما وصف ديوانه أنه من أصح وأصلح الدواوين العامة[495].

أما الوليد بن يزيد يبدو حكمة كما سبقه من الخلفاء الأمويين بزيادة العطاء فأمر الناس بزيادة الأعطيات بمقدار عشرة دراهم ، ولجند الشام خاصة عشرين درهماً[496]، وزاد أهل بيته الذين وفدوا للبيعة في جوائزهم الضعف[497].

كما أمر بإجراء الأرزاق على المسنين والعميان وزاد في أعطيات أهل مكة والمدينة ، التي قطعها هشام بن عبد الملك وكتب بقوله:

محرمكم ديوانكم وعطاؤكم يكتب الكتاب شهراً وتطبع[498]

فيبدو أنه حدد الموعد شهر محرم الذي استثنى فيه توزيع العطاء عمر بن الخطاب، وسار عليه الخفاء الراشدون والأمويون، كما أراد الوليد بن يزيد يؤطر عصره بمدح المادحين له من الشعر[499]. كانت مضاعفة العطاء والمدح والمنح لأهل بيته يأمل كسب رضا الأهل والمؤيدين له.

494- نبيه عامل ، المرجع السابق ، ص 323.

495- ابن كثير ، المصدر السابق ، ص 265.

496- الطبري ، المصدر السابق ، ج7، ص 217.

497- ابن الأثير ، المصدر السابق، ص 268.

498- السيوطي ، المصدر السابق ، ص 399.

499- الأصفهاني ، المصدر السابق . ج6، ص 111.

ولكن هنالك بعض العوامل التي أثرت على سياسة الوليد بن يزيد مثلاً أنه ضرب سليمان بن هشام ونفاه إلى عمان ، وإضافة إلى ذلك الثورات الداخلية من ناحية، كما أن الدعوة العباسية قد أخذت مجراها نحو تحقيق هدفها في خراسان ، قد عجلت بالقضاء عليه ، فلم تنفعه عطاءاته التي زادها وانتهى الأمر بمقتله ، ففي الوقت الذي خلت فيه خزائن الوليد من كثرة الانفاق [500]، كانت الثورات تحتاج إلى جنود يؤدون عملهم مقابل العطاء[501].

3/ رواتب الموظفين:

هي جزء من النفقات الإدارية تقسم هذه النفقات إلى قسمين منها رواتب الموظفين ونفقات المستلزمات الإدارية، وكانت هذه الأخيرة ضئيلة، ومتمثلة في الشموع وأوراق الكتابة أو غيرها من الأدوات البسيطة التي لا تشكل شيئاً يذكر بالنسبة لما هو عليه الأمر اليوم ومع ذلك فقد تميز عهد عمر بن العزيز بالسياسة للمال العام، فكانت هذه النفقات في عهده أقل من غيره وسنذكر الحديث عن رواتب الموظفين :

ويبدو أن رواتب الموظفين كانت متروكة إلى والي الإقليم فقد حدد لنفسه ولعماله رواتبهم حسب ما يرى ، وقد ساعدت هذه المركزية على ظهور مرتبات كبيرة نسبياً – إذا ما قورنت النفقات في عهد عمر بن الخطاب وبمتوسط مستوى المعيشة نسبياً في الدولة الأموية حيث بلغ مرتب والي العراق [502]. زياد بن أبيه خمسة وعشرين الف درهماً شهرياً وظهرت أيضاً إلى جانب المرتبات الكبيرة مخصصات إضافية ، فهذا زياد بن أبيه يجعل إلى الولاة التابعين لإدارته مائة ألف درهم سنوياً عدا مرتبه.

500- الطبري المصدر السابق ، ج7، ض 323.

501- صالح أحمد العلي، المصدر السابق، ص 324.

502- إيناس حسن البهجي ، المرجع السابق ،ص 112.

وهذه بعض النماذج من رواتب الموظفين خلال فترات من العصر الأموي ، يمكن اعتبارها مؤثراً على مستوى رواتب ومكافآت موظفي الدولة، وذلك لعدم العثور على معلومات تفصيلية عنها.

أ. كان الحد الأقصى لرواتب الكتاب طوال العصر الأموي وطرفاً من العباس حتى عهد المأمون 3600 درهماً سنوياً، وكان حدها الأدنى 720 درهماً سنوياً[(503)].

ب. يرجح أن أكبر مرتب لصاحب الشرطة في العصر الأموي بلغت مائة الف درهماً سنوياً.

ت. مرتبات القضاة كانت عبارة عن رزق يجري عليهم من بيت المال ليتفرغوا للقضاة ، وكان الحد الأدنى ألف ومائتي درهما سنوياً ، وأما الحد الأقصى فقد بلغ ثلاثة الف درهماً سنوياً.

النفقات العامة:

1. النفقات العسكرية : حملت الدولة الأموية على عاتقها مهمة مواصلة نشر الإسلام في العصر الأموي اتساعاًً كبيراً ، وقد تم لها ذلك على الرغم مما كانت تعانيه في العصر الأموي من خلال نفقات الجند والصناعات الحربية.
2. رواتب الجند ويشرف عليها ديوان الجند وتجمع المصادر على أول الديوان من وضعه ورتبه هو الخليفة عمر بن الخطاب سنة 20هـ[(504)].

وقد بقى هذا الديوان على الأساس نفسه من حيث تحفظ سجلات بأسماء المقاتلين وأوصافهم وأنسابهم ومقدار أعطياتهم ، وقد عمل معاوية بن أبي سيفيان على تحسين حالة الجند المعاشية فزاد في أعطياتهم ، بسبب الظروف المستجدة وتحسن الأحوال الاقتصادية في الدولة ، وكان أمير المؤمنين معاوية ، يتفقد أحوال قبائل اليمن والقبائل القيسية ، وكان

503- على محمد الصلابي ، المرجع السابق، ص 97.

504- عاطف رحال ، المرجع السابق ، ص 195.

قد جعل على كل قبيلة من قبائل العرب بمصر رجلاً يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول هل ولد الليلة فيكم مولود وهل نزل بكم نازل فيقال ولد فلان غلام ولفلان جارية ، فيقال سموهم فيكتب ويقال نزل بنا رجل من أهل اليمن بعياله فيسمونه وعياله ، فإذا فرغ من القبائل كلها أتى الديوان وكان للجند ديوان مركزي في دمشق في حين وجدت دواوين فرعية في مراكز الولايات: كالكوفة والبصرة والفسطاط وكان سلم رواتب الجند في عهد معاوية كالآتي:

منطقة مصر:

كان عدد الجنود المسجلين في الديوان 400000 جندي مسجلين بشرف العطاء ، أما بقية المسجلين في الديوان فكان عددهم 3600 جندياً ، وعلى فرض أن عطاء الجندي سنوياً هو 3000 درهماً يصبح إجمالي عطاؤهم 108000000 مليون درهماً.

منطقة الشام:

كان عدد الجند المسجلين في ديوان الشام ستون ألف مقاتل، كان الدخل السنوي لكل ألف درهماً ، إجمالي نفقات جند الشام فبلغ ستين مليون درهماً .

وفي العراق تأخذ مثالاً ديوان البصرة حيث بلغ عدد المسجلين به ثمانين ألف مقاتل ، وبلغت مرتباتهم في عهد زياد 3600000 درهماً ، فإذا اخرجنا منهم نسبة 10% مسجلين في شرف العطاء ، قياساً على ديوان مصر ، يكون المتبقي 20000000 درهماً ، وعليه يكون متوسط الدخل الجندي في ديوان البصرة حوالي 278 درهماً ويمكن قياس بقية منطقة العراق على هذا .

وقامت الدولة الأموية بتطوير ديوان الجند وهي الجهة المسؤولة عن نفقات ورواتب الجند وكان من أبرز صور هذا التطوير ما يلي :

- فقد قام مندوب معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه المكلف بتوزيع عطاء المدينة بدفع عطاء كل رجل في يده مباشرة وكان النظام السابق هو أن يدفع العطاء إلى العرفاء ، ولكن هؤلاء العرفاء لم يكونوا يغيبون غائباً ولا يميتون ميتاً.
- وفي عهد معاوية قام واليه على العراق زياد بن أبيه ، بتخفيض النفقات الإدارية لديوان الجند ، حيث اقتصر عدد العرفاء المسؤولين عن توزيع العطاء ليصبح لكل قبيلة عريف واحد[505].

د/ تكاليف المنشآت والمرافق العامة :

كانت الدولة تعني بالمرافق العامة (البنية التحتية) فكانت هنالك المساجد في العصور الإسلامية الأولى تختلف وظيفياً عن وظيفة المساجد الآن فالمسجد كان يسمى جامع من كثرة ما يجمع من مهام وخدمات فكانت تلحق وظيفتها بالمساجد المكتبات العامة والتي بها أحدث الإصدارات من الكتب، وكان يرتاد المساجد الطلاب للعبادة والعلم والتعلم والاستماع لأمور الدين المختلفة أيضاً تعقد ندوات ثقافية وتناقش أمور بها الدولة وأمور عامة المسلمين أيضاً تعقد بها الجلسات العرفية للصلح بين الناس أو بين الأزواج والزوجات.

وكما كان شيء في الطرق العامة السريعة دور خدمية وأيضاً كانت تقام دور الأيتام والمسنين وأبناء السبيل وكانت تصرف عليها بسخاء من بيت مال المسلمين أيضاً. وبناء المستشفيات في بدايات العصر الأموي لرعاية المرضى ، أول مستشفي بناه الوليد بن عبد الملك في دمشق عام 706هـ - وكانت مفتوحة بالمجان لمختلف طبقات المجتمع[506].

505- إيناس حسن البهجي ، المرجع السابق ، ص 109 – 111.

506- محمد حتفي تتم ، رؤى تنموية لنهضة الأمة الإسلامية ، بستان المعرفة اللنشر ، 2013م ، ص23 – 26.

- **بيت المقدس :**

يقدم لنا بن كثير وصفاً له فيقول : ولما أراد عبد الملك عمارة بيت المقدس وجه أليه أموال والعمال ، ووكل بالعمل رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام مولاه .

وجمع الصناع من أطراف البلاد وأرسلهم إلى بيت المقدس، وأرسل اليه بلا الأموال الجزيلة الكثير ، فبو النفقات وأكثروا فبنو القبة فجاءت من البناء ، ولما فرغ رجاء بن حيوة وزين بن سلام من عمارها على أكمل الوجوه ، فضلاً من المال الذي أنفقه على ذلك ستمائة ألف مثقال ، وقيل ثلاثمائة ألف مثقال ، كانت النهضة العظمة على [507] .

وقد بناه الوليد بن عبد الملك على أنقاض كنيسة ماري يوحنا بعد ان عوض نصارى دمشق عنها، وذكروا أن أرضه كانت [508]، مفضضة كلها، وان الرخام كان في جدرانه إلى قامات، وفوق الرخام كرمة عظيمة من الذهب وفوق الكرمة الصفوف المذهبة والخضر والحمر والزرق والبيض وقد صور بها سائر البلدان المشهورة [509] ، وقد بالغة المؤاخرون واكثروا في وصف النفقات الهائلة التي انفقت على هذا العمل الهائل فبعضهم ، وانفق على مسجد دمشق أربعمائة انه صندوق الذهب، وفي كل صندوق أربعة عشر دينار، فعلى ذلك يكون من انفق على المسجد خمسة ملايين وستمائة الف دينار ، وقيل انه صرف أكثر من ذلك بكثير [510] .

ويبدو ان الروايات كثرت في ذلك في عهد بن الوليد نفسه ، فجمع الناس قائلاً انه بلغني عنكم إنكم قلتم انفق الوليد الأموال في غير حقها .

507- ابن كثير ، المصدر السابق ، ص 280 .

508- اليعقوبي ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 24 .

509- الطبري ، المصدر السابق ، ج6 ، ص 436 .

510- بن كثير ، المصدر السابق ، ج9 لا، ص 149.

وهذه الروايات رغم ما تحمله من مبالغات فهي بلا ريب تحمل عناصر صدق كثيرة ، فلا ريب أن هذا المسجد على هذا النحو قد تكلف تكلفة عظيمة [511] .

– المسجد الأموي:

تم الانفاق بناء المسجد الأموي في عهد الوليد بن عبد الملك ونتحدث بإيجاز عن هذا المسجد الرائع الذي بناه الوليد والذي دفعه إلى بنائه رغبته في أن يكون في عاصمته مسجد كبير يليق بعظمة الدولة ، ويذكر المسعودي أن الوليد ابتدأ ببناء المسجد الجامع بدمشق سنة 78هـ وأنه أمر أن يكتب بالذهب على اللازورد في حائط المسجد: (ربنا الله لا نعبد إلا إياه) أمر ببناء المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه.[512]وظل العمل في المسجد قائماً حتى سنة 96 وسام فيه ألوف العمال المختصين الذين جمعوا من أطراف العربية ،[513] ويذكر أن جبير (تكاليف البناء بلغت إحدى عشر ميلونا ومائتي ألف دينار)[514] أن الوليد اتفق على عمارته خراج المملكة سبع سنين . [515] قد غرم الوليد في هذا الجامع عدد من الدنانير المضروبة زنة مائة وأربعة وأربعين قنطار بالدمشقي ، وذلك يعادل عشرة ألف دينار.

- بناء المدن وعمارة البلدان :

ظفر العصر الأموي بجماعة من الولاة البارزين امتازوا بقدرات عالية في الإدارة والحكم مثل زيادة بن ابي سفيان وأبنه عبدالله بن زياد وعبد العزيز بن مروان وقد أفسحت طريقة النظام الأموي على اللا مركزية في إدارة المجال امام هذه الشخصيات القوية ، لترك بصماتها الواضحة على الحياة في الأمصار التي تولت قيادتها، ومن اجل أعمالهم فيها

511– ابن كثير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 149 .

512– ا عاقل ، تاريخ خلافة بني أمية ، ص 227.

513– بثينة عاقل ، تاريخ خلافة بني أمية، مرجع سابق ، ص 227.

514– رحلة بن جبير ، مرجع سابق، ص 235.

515– ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 466.

بناء المدن وعماراتها وشق الأنهار وتسيير الرعية، وطلب العمل البصرة من معاوية أن يحفر لهم نهراَ جارياَ ، فأمر زياد فحفر ذلك النهر.

ولما ولي الحجاج بن يوسف في العراق – مدينة واسط – وأتخذها مقراّ له ، كما بني مدينة أخرى تعرف ، بالفيل ومصرها وحفر انهار عديدة كنهر الصين والذابي ، وأحيانا حول هذه الأنهار من الأرض [516] .

بناء القصور : كان خلفاء بني أمية يصرفون كثيراَ من سنى خلافتهم من البوادي طلباَ للصحة والهواء النقي وهروياَ من الأوبئة والطاعون الذي كان يكثر في المدن[517] .

ولقد أسفرت البحوث الأثرية الحديثة عن اكتشاف عدد من القصور في بادية الشام ويرجع الباحثون إنها كانت لبني أمية لأسباب شتى وأدلة متعددة [518] .

516البلاذري ، المصدر السابق ، ص288.

517– حسن إبراهيم حسن ، المرجع السابق ، ج1 ، ص543 .

518– ابروكلمان ، المرجع السابق ، ج1 ، ص185 – 189.

المبحث الثالث

تطور العملة

السكة :

هي الختم على الدينار والدرهم المتعامل بها بين الناس بطابع جديد ينقش فيه صور او كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار والدرهم [519] .

وأيضاَ هي النظر في النقود والتعامل بها بين الناس وحفظها مما يحفظها من الغش او النقص ، وهي تعتبر مظهراَ من مظاهر سلطة الخليفة أو السلطان أو الحاكم الى جانب كونها وثائق رسمية لا يمكن للطعن فيها [520] .

لقد تعامل العرب بالنقود البيزنطية والفارسية فترة طويلة قبل الإسلام وقبل ان قوموا بإصدار عربي جديد خاصا بهم في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ، حيث كانت العملات الأجنبية متوفرة من جراء غنائم الحرب ، ومن التجار من بيزنطة ودول الغرب حيث تقول المصادر ان (القراطيس كانت تدخل بلاد الروم وياتي من قبلهم الدنانير)[521]، ومع ذلك قد جرت محاولات عديدة لضرب النقود في تلك الفترة وخاصة الدراهم [522] .

إلا ان هذه المواد لضرب النقود التي بدأ أن يظهر فيها ملامح التعريب لم تكن الا تقليداَ للنقودَ الفارسية والبيزنطية، وارتباطا مستمراَ لدائرة النقد الأجنبي فكانت الدراهم تضرب على

519- مقدمة ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 288م .

520- خليل الركزاني ، تاريخ لنقود العربية الإسلامية ، المحاضرة الثانية .

521- نبيل موسى اجبابي ، الحضارة الإسلامية ، (أهدافها – ومظهرها ، أنشارها ، مكتبة المجتمع العربي للنشر ، ط1 ، 201م / 1433هـ ، ص79 . .

522- البلاذري المرجع السابق ، ص 241 .

الطابع الفارسي ويتراوح وزنها في الغالب بين 2,50 غرام 4,115 غرام ، وهذا الوزن يماثل وزن الدراهم الفارسية تقريباً [523] .

وتذكر لنا المصادر ان الخليفة عمر بن الخطاب قد أمر بضرب الدراهم سنة 18هـ على نقش الكسرويون فرسم الوجه الأول صورة الملك وكرسي مكتوباً تحتها بالفارسية نوشي خر اي كل هنيئاً .

وعلى الوجه الأخر فكانت صورة معبد النار (اتش كاو) ولكن الخليفة أضاف عبارات عربية دينية نقش على بعض القطع مثل الحمد لله ،وعلى قطع اخرى (محمد رسول الله) وعلى بعضها الأخر (لا اله الا الله وحده) ويعتبر ضرب هذه لنقود الذي قام بها عمر بن الخطاب هو الأول في الإسلام ، إلا ان المؤرخ (ملر) يرى أن خالد بن الوليد قد سبق الخليفة بضربة للنقود وذلك سنة 15 هـ على سبق الدنانير البيزنطية فابق على الصليب والتاج والصولجان او نقش على احد وجهي النقد اسم خالد بن الوليد بالحروف اليونانية (xared)، او نقش أيا بالحروف الأخرى وهي BOU لا ويعتقد المؤلف ان هذه الأحرف متقطعة من كنية خالد بن الوليد (ابو سفيان) .

وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان ضربت الدراهم ونقش عبارة (الله أكبر) .

وقام الخليفة معاوية لن سفيان بدوره بضرب الدراهم على الطراز الساساني غير أنه حاول ضرب الدنانير أيضا ونقش عليها صورته وهو متقلداً سيفه ، ولكن هذا الدينار الذي ضربه معاوية لم يظهربين النقود التي عثر عليها لحد الأن [524] لذا يرجع ان هذه القطع من الدنانير قد تم صهرها في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ، غير ان احد الباحثين يرى أن الاحتمال الأرجح هو ظهور مثل الدنانير لأنها لو ظهرت لكانت مثار نزاع ما بين معاوية و البيزنطيين ويبدو ان الخلفاء الأمويين لثلاثة الذين تعاقبوا على الحكم بعد

523- عبد العزيز الدوري ، المرجع السابق ، ص 20 -22.

524- عاطف رحال ، المرجع السابق ، ص 317 .

معاوية، لم يكن لهم محاولات الضرب النقود ، وربما يعود ذلك إلى فترات حكمهم القصيرة التي أشتغلوا فيها بصراعات داخلية قد شغلتهم عن التفكير بذلك [525] ، إلا أن بعض المحاولات لضرب النقود، قد جرت من قبل ثوار ومطالبين بالخلافة بهدف التعبير عن استقلالهم وسيادتهم، ومن الأمثلة قطري بن فجاءه.

التأثير الخارجي المطالب بالخلافة ضرب الدراهم على الطراز الساسني باستثناء العبارة العربية (لا حكم ألا الله) التي تعتبر شعاراً ملازماً للخوارج .

وهكذا ثبت ان جميع لمحاولات التي جرت لضرب النقود والتي قام بها في عهد عبدالملك بن مروان ، لم يتيسر لها ان تصل .

قام عبدالملك بن مروان بتعريب النقود تعريباً تاماً يخرج عن أطار التقليد للنقد الأجنبي ، وأن المحاولات تسيير ببط نحو التعريب التام يخرج عن أطار التقليد للنقد الأجنبي ، ويعني ذلك أن يترتب بحكم موقفهم الحذر الشديد من الأقدام على أصدار نقد جديد إزاء العملات الأجنبية المتداولة والمعروفة في التجارة الدولية، حيث أن هناك ما يمنع[526] ، العرب الذين أصدروا نقوداً في تلك المرحلة ان يضربوا نقداً عربياً جديداً [527]، وبخاصة الدراهم ، سوى أنهم كانوا يرون أن الأقدام على هذه الخطوة قد تؤدي الى إضراب وضعهم النقدي والمالي وتأثير ذلك على أمورهم الاقتصادية.

وقد اجمعت المصادر على أن تعريب النقود قد جرى في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، إلا أنها لم تتفق على تحديد إصدار النقود ، فذكرت الأعوام 74هـ / 75هـ[528] ،

525محمود سليمان عبد لملك ، نقود الدولة الزبيرية في العصرالأموي ، 64 – 723 هـ / 683 – 692 م ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، جامعة النيلين ، 1438 هـ ، ص 141 .

526– ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص472.

527– عطية القوص ، مذكرات في الحضارة العربية الإسلامية ، المرجع السابق ، ص 108 .

528– صلح درادكة وآخرون ، تاريخ صدر الإسلام ، الشركة العربية المتحدة للنشر ، ص 330 .

ولكن عثر في سوريا حديثاً دينار يعود تاريخه الى سنة 74هـ ، يرسم على وجهه الأول صورة الخليفة عبد الملك بن مروان واقفاً متقلداً سيفاً ، وجميع النقوش عربية [529] .

ماعدا رسم الصليب على الوجه الثاني للدينار .

مما يدل على أن هذا الدينار لم يكن عربياً خالصاً وبالتالي استبعاد عام 74هـ كتاريخ لتعريب النقود [530] .

تروي عض الصادر ان الخليفة بن عبد لملك بن مروان قرر القيام بالتجديد النقدي تحت تأثير الأحداث والتطورات لتالية، ففد أمر الخليفة أن تحل عبارات دينية إسلامية محل الإشارات والعبارات المسيحية على أوراق البردي التي تصدر الى بيزنطة ، مما أثار نزاعاً بينه وبين الإمبراطور البيزنطي الذي هدد بنقش عبارات معينة للرسول (ص) على العملة الذهبية البيزنطية التي يتداولها العرب إذا لم يتراجع الخليفة للإقدام على إصدار عملة عربية جديدة [531] .

إلا أنه في الواقع كان هناك أسباباً رئيسية أخرى ، سياسية واقتصادية ، قد لعبت دوراً أساسيا في بناء موقف الخليفة ، وقد ذكر عدد من المؤلفين معظم هذه الأسباب على الشكل التالي :

1. كان الخليفة يملك توجيهاً قومياً لصبغ الدولة بصبغة عربية ، لذا فأن الإصدار النقدي يندرج ضمن خطة شاملة للتعريب مؤسسات الدولة ، بالإضافة الى ذلك الخليفة الذي يرمي إلى تحقيق هدفه بإرضاء العناصر العربية المحافظة التي كان معظمهما يؤيد أسرته [532] .

529- المقريزي ، المصدر السابق ، 53 – 54 .

530- عاطف رحال ، المرجع السابق ، 369 .

531- احمد شبلي ، التاريخ الإسلامي ، مكتبة النهضة المصرية ، ط9 ، 1996 ، ص 62.

532- علي حسين الشطشاط ، دراسات في الحضارة الإسلامية ، المرجع السابق ، ص 130.

2. إن احتكار السلطة لإصدار النقد يعتبر ضرورياً لهذه السلطة ، لأن إصدار الرمز الشائع المحسوس المعبر عن الثورة يجب ان يكون من اختصاص الجهة الحاكمة وظيفة من الوظائف السيادية (533) .

3. إن إصدار النقود يعبر عن السيادة الكاملة للدولة العربية ويحررها من النقود الأجنبي (534) ، فقد أراد الخليفة ان يقيم سلطانة على أساس اقتصادي مستقل، عن بيزنطة وعدم الارتباط بنقدها، كما أن إصدار أول دينار عربي يرتبط بحالة الصراع مع البيزنطيين حيث هدف الخليفة ان ينزل بأعدائه نوعَ من الضغط الاقتصادي .

4. لقد ترتب على دائرة النشاط التجاري للدولة الإسلامية استقرار قيمة النقد وما تنتج عن ذلك من التلاعب في الأسعار ، فحسب جميع أنواع النقد المتداول من السوق وضرب نقداً جديداً (535).

5. إن اشراف الدولة على إصدار النقود ، أعتبر خير وسيلة تكسب بها أخطر أدوات التبادل ، الثقة العامة والشاملة والضمان من التزييف .

6. لقد كان حل مشكلة جباية الضرائب يعتبر من الأسباب الرئيسية لإصدار النقد العربي ، ويقول المقريزي أن عبد الملك بن مروان أراد أن يجعل للدراهم وزناً .

7. ويعتبر سك العملة وتوحيدها في الدولة الإسلامية اتجاهاً نحو الدولة المركزية وضبط الجهاز المالي .

8. من العوامل الأكثر أهمية التي جعلت الخليفة يقوم على إصدار النقود العربية ، توفير كميات كبيرة من الذهب والفضة لدى العرب في البلاد المفتوحة ، وكانت أوزان الدنانير والدراهم التي أصدرها الخليفة عبد الملك بن مروان موافقة لما استقرت عليه في بداية الإسلام ، فاتخذ المثقال كعبارة الدينار الجديد ، ولكنه أنقص إلى عشرين قيراطا ، كما أن عيار الدرهم الذي حدد على أساس النسبة الشرعية وهي 10 دراهم = 7 دنانير ،

533- عبد العزيز الدوري ، المرجع السابق ، ص 203.

534- عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص 684 .

535- صالح درادكه وآخرون ، المرجع لسابق ، 332 .

أصح وزنه أربعة عشر قيراطاً بدل وزنه السابق : وعلى هذا الأساس حدد وزن الدينار ب 4,25غرام ، كما أن الدرهم الشرعي قد حدد – 2,97 غرام ، ولكن وزن الدرهم العصر الأموي يصل وزن الدرهم في العصر الأموي يصل وزنه الى حدود الوزن الشرعي الدرهم ، فكان يتراوح بين 2,70 إلى 2,90 غرام ، قد كان ينقش على الدنانير العبارات العبارات الدينية العربية التالية :

مركز الوجه : لا إله مركز الظهر :

إلا الله وحدة بسم الله الرحمن الرحيم

الهامش : محمد رسول الله أرسله الهامش : ضرب بالهدى ودين الحق [536] هذا الدينار كذا وقد أصدرت أجزاء الدينار كذلك من نصف دينار وقد تراوح وزنه بين 2,06غرام ، وثلث دينار وزنه بين 1,39 و 1,50 غرام [537]. ونقش على هذه الأجزاء عبارات دينيةأيضاً – غير أنه يلاحظ ان الدنانير العربية باكثريتها لم يظهر عليها مكان الضرب ، الدنانير التي كانت الدنانير كانت تضرب في دمشق ، لأن الدنانير التي كانت تضرب في أمكنة اخرى في افريقية او في الأندلس او غيرها .

وعموماً فقد سار الخلفاء الأمويين الذين تعاقبوا على الحكم بعد عبدالملك بن مروان على أثره في ضرب الدنانير العربية حتى نهاية دولتهم .

أما الدراهم العربية فقد كانت تحمل نصوصاً دينية [538] واحدة ونقش على الشكل التالي :

مركزاَ الوجه : الله الصمد الهامش : محمد رسول اللهولم يلد ولم يولد له كفواً احد [29] ارسله بالهدى والدين ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

536– نايف القسوس ، مسكوكات الأمويين في بلاد الشام ، البنك العربي للنشر ، ط1 ، 1996 ، ص52 .

537– عاطف رحال ، المرجع السابق ، ص 187 .

538– الطبري ، المصدر السابق ، 187 .

مركز الظهر : لا إله إلاالله الهامش : بسم الله ضرب هذا

وحده لا شريك له الدرهم بدمشق سنة تسع وسبعين [539]

وكان الدرهم العربي مضاعفات كما كانت له أجزاء لتسهيل العمليات التجارية ، ولم يرغب الخلفاء الأمويون بضرب سكة من الذهب في العراق وإيران والأقاليم الشرقية للدولة إلا أن ذلك لم يكن يقابله عدم ضرب الفضة في أقاليم الدولة الغربية ، فقد وجدت دراهم كثيرة ضربت في دمشق سنة 73 – 74 هـ .

وكانت النقود تضرب في مدن الشام الرئيسية كدمشق وحمص والبصري وإيلياء ، غير اتجاهاً في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك مركزية الضرب ، حيث حدد ضرب الدراهم في أواسط [540] وربما حدد ضرب في دمشق .

وقد حافظ الأمويين بشكل عام على نسبة عالية من النقاء الدينار إذا يبدو انها كانت تبلغ في زمن الخليفة عبد الملك بن مروان 96% ، واما في زمن الخليفة هشام بن عبد الملك فقد بلغت النسبة 98 %[541] .

اما بالنسبة لسعر التبادل بين نقدي الذهب والفضة، فقد كان يتأثر بوجود النقد وبسعر الذهب والفضة في السوق ، ونجدان التجارة وبالأوضاع ، الاقتصادية للمناطق المختلفة .

فقد كان سعر الصرف في عهد الرسول (ص) والخلفية عمر بن الخطاب يتراوح بين 10 – 12 درهماَ للدينار [542]، أما في عهد الخليفة عبد الملك فلم يكن السعر يتجاوز عشرة دراهم للدينار ، أي أن السعر كان مستقراَ تقريباّ طيلة هذه الفترة ، وقد كان هذا السعر محافظاّ على ثباته نسبياَ حتى عام 96هـ .

539– عاطف رحال ، المرجع السابق ، ص 324 .

540–عبد لعزيز الدوري ، المصدر السابق ، ص 205 .

541– ابن الأثير ، المرجع السابق ، ج4 ، ص 417 .

542– علي الحسيني ، المرجع السابق ، ص 90 .

حيث ارتفع سعر التبادل كثيراً في مصر فبلغ 35 درهماً للدينار [543] .

وقد فرضت الدولة الأموية رقابتها للحفاظ على عيار النقد ، وعدم المس بسلامة النقود ، ومعاقبة الذين يتلاعبون بأوزانها معاقبة شديدة وتقول المصادر ان مروا بن الحكم قد قطع أحد الأشخاص بسبب قطعة الدراهم ، وعاقبة ابان بن عثمان عامل المدينة احد الأشخاص بضربة ثلاثين سوطاً ، والطواف به لانه عمل على قطع الدراهم ، ويتعامل بالنقود المزيفة كانت بإضرابه وإرغامه ثم يلقى به في السجن [544] .وفي عهد الخليفة عبد الملك بن مروان سحبت جميع النقود الممسوحة من التداول وأعيد صهره من جديد ، حيث ان هذه النقود تقل قيمتها عن قيمة النقود المنقوشة. وكانت تستعمل الصنج (الأوزان المعرفة عيار النقود ، فاتخذت في بداية الأمر من مادة معدنية لوزن السكةالإسلامية ، حيث استعملت صنج من البروز ، كما استعملت صنج من الحديد كذلك .

اما الطريقة التي كانت تستعمل في ضرب النقود فكانت كالتالي :

ينقص الذهب والفضة بالسبك عدة مرات ثم يقطع المعدن الى أجزاء بأوزان الدنانير والدرهم، وبعد تطبع هذه القطع المعدنية بطابع من حديد منقوشاً عليه صور او كلمات مقلوبة ويسمى الطابع بالسكة ، ثم أطلقت على النقود بعد ذلك [545]

وكان الحق للتجار وغيرهم من الناس أن يذهبوا إلى دار الضرب ليضربوا مايملكون من معادن ثمينة ليحولوها إلى دنانير ودراهم درهماً ثمناً للحطب وأجره الضراب .أما ضرب النقود خارج دار الضرب فقد كان تعتبر مخالفة كبيرة للقانون يستحق صاحبها العقاب الشديد [546] .

543- إبراهيم علي السيد العلا ، المرجع السابق ، ص 156.

544- ابن الأثير ،المصدر السابق ، ج4 ، ص 420 .

545- الماوردي ، المصدر السابق ، ص 155.

546- شوقي خليل ، الحضارة العربية الإسلامية ، المرجع السابق ، ص 237 .

المبحث الرابع

إصلاحات عمر بن عبد العزيز المالية

أ/ رد المظالم :

أوجزت المصادر الإسلامية إصلاح عمر بن العزيز للأحوال المالية بوصفها رد المظالم، فقال الماوردي : (كان عمر عبد العزيز أول من ندب نفسه للنظر في المظالم فردها، وراعي السنن العادلة وأعادها ورد مظالم بني أمية على أهلها).[547] كما أورد ابن الجوزي قول عمر بن عبد العزيز وهو يرد بيته وسماها مظالم.[548]وكان يرد الأموال والعطايا التي تعطي عادة للخليفة حيث يتولى الخلافة (إني قد رأيت ذلك على فيه دون الله محاسب أواني قد بدأت بنفسي وأهل بيتي).

ورد المظالم قد تمثلت في انجاز عمر بن عبد العزيز هذا في عملين هما في الواقع عمل واحد متكامل قد انتزع الأراضي والمال والثروة وكل المقتنيات التي كانت صدر الإسلام ملكاً لبيت المال المسلمين وكانت تمثل ثروه أساسية جاوزها وملوكها وردها مرة أخرى إلى بيت مال المسلمين، كي تعود مرة أخرى ملكاً للأمة جمعاء خلال هذه العملية عالج المظالم الفردية، فأخضعها لنفس القانون.[549]

وسبق أن ذكرت أن أرض الصوافي والقطائع قد نفذت من كثرة المنح والعطايا التي وهبها خلفاء بني أمية إلى أهلهم وخواصهم ، ثم أتبع ذلك التصرف في بيع الأراضي الخراجية.

547- الماوردي ، المصدر السابق ، ص 78.

548- ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ص 127.

549- محمد عمارة ، عمر بن العزيز ، خامس الخلفاء الراشدين ، المؤسسة العربية ، بيروت ، ط2 ، 1979م ، ص 57.

وعندما تولي عمر بن العزيز الخلافة، كانت كثير من الأراضي قد أصبحت في حيازة الأفراد فكان على عمر أن يرد الحقوق إلى أصحابها فكان أول عمل قام به أن رد المظالم من نفسه ثم من أهل بيته.

وما يخص الخليقة وبني أمية إلى بيت المال:

وكان أول ما بدأ بعد دفن سليمان بن عبد الملك، أن أتى إليه بمراكب الخلافة ليركبها ويدخل القصر في موكب الخلافة إلا أنه طلب تنحيتها عنه وركبه دابته.[550]

وبدأ عمر بالتخلص من مظاهر السلطان وأبهة الخلافة التي اعتادها خلفاء بني أمية، وحينما أتاه أصحاب المراكب يسألونه العلوفة وزرق خدمها قال: وكم هي؟ قالوا هي كذا وكذا ، قال أبعث إلى أمصار الشام يبيعونها فمن يزيد ، وأجعل أثمانها في مال الله عز وجل، ككفين بلغتي هذه الشهباء، وجاءه صاحب الرقيق يسأل أرزاقهم وكسوتهم وما يصلهم فقال عمر: كم هي : قال هم كذا وكذا ألف أكتب إلى أمصار الشام أن ارفعوا إلى كل أعمى في الديوان، أو مقعد أو من به فالج ، أو من به زمانة تحول بينه وبين القيام إلى الصلاة فرفعوا إليه فأمر لكل أعمى بقائد، وأمر لكل أثنين من الزميين بخادم، وفضل من الرقيق وكتب أن أرفعوا إلى كل يتيم أو من لا أحد له ممن قد جرى على والده الديوان، فأمر لكل خمسة بخادم يتوزعونه بيهم بالسوية.

ولما دخل عمر بن العزيز قصر الخلافة أمر بالستائر فهتكت ، والبسط فرقت وأمر ببيعها وإدخال أثمانها في بيت المال، كما أمر بضم كل ملابس وعطور الخليفة سليمان إلى بيت مال المسلمين، وكسر بذلك عادة الخلفاء الأمويين من توارث ملابس وأطياب الخليفة.[551]

550- اليعقوبي ، المصدر السابق، ج2 ، ص 205.

551- ماجدة فيصل زكريا، محمد بن عبد العزيز وسياساته في رد المظالم ، مكة المكرمة للنشر ، ط1 ، 1407هـ – 1987م ، ص 116.

برد ما بدأ به هو أهل بيته ، فكان يمتلك عبيداً وثياباً وعطوراً ومقتنيات تزيد عن حاجته فجمعها وأمر بها فبيعت بثلاثة وعشرين ألف دينار أودعها بيت المال لتنفق على أبناء السبيل.[552]

كما قام برد القطائع التي في يده وقال لمولاه مزاحم: (أن أهلي أقطعوني ما لم يكن لي أن آخذه، ولا لهم أن يعطونيه، وكان مما ورده أرض فدك، فقد جمع جيش قريشا وأعيان الناس)، وقال : (إن فدك كانت مما أفاء الله على رسوله فسألته فاطمة، أن يهبها لها فأبى، فكان يضع ما بينه منها في أبناء السبيل، ثم ولي أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، فوضعوا ذلك ما وضعه رسول اله (ص) ثم وليها معاوية فأقطعوها مروان بن الحكم ، فوهبها مروان لأبي وليد ولعبد الملك، فصارت لي والوليد وسليمان، فلما ولي الوليد سألته حصته منها فوهبها لي، وسالت سليمان حصته منها فوهبها لي ، فاستجمعتها وما كان لي من مال أجي إلى منها، فأشهدوا أني قد وردتها إلى ما كانت عليه والذي وقع أنه اعتبر فدك من الأموال العامة لا الخاصة، كما كانت عليه زمن الرسول (ص) والخلفاء الراشدين).[553]

كما أعاد إلى بيت المال كل ما كان لديه من القطائع والأموال بالرغم من معارضة ابنه عبد الملك فأحرق سجلات مزارعه حتى لم يبق إلا مزرعتنا خيبر والسويداء، فسأل عن خيبر كيف صارت إليه، فقيل أنها كانت لرسول الله (ص) ثم أصبحت إلى فيئاً للمسلمين، ثم صارت إلى مروان الذي أقطعها لأبيه ثم أعطاها أبوه له فحرق عمر سجلها أيضاً وتركها حيث تركها الرسول (ص).

ثم اتجه عمر بعد ذلك إلى مال زوجته فاطمة بنت عبد الملك وأخذ كل ما عندها من جواهر فأودعها ببيت المال، وبلغ من شدة حرصه على الأموال العامة أن رد فص خاتم

552- ابن سعد ، المصدر السابق ، ج5، ص 254.

553- صبحي الصالح ، المرجع السابق ، ص383.

كان في يده أعطاه له الوليد من غير حق، وخرج من جميع كان فيه من النعم والمجلس والمأكل والمتاع.[554]

ولم يقتصر رده للأموال على ما كان في يده أو ما يرثه الخليفة الجديد ومن الخليفة السابق في بني أمية وإنما بدأ برد أموال المسلمين إليهم مما كان في أيدي قرابته من بني أمية وأهل بيته وسمى أعمالهم المظالم. فقد رد أموال وأملاك جمعت بمختلف الأساليب والطرق، وجرد بني أمية منها ومزق مستنداتها وضياع وقطائع جمعت كلها على شكل ممتلكات ثابتة ونقود سائلة. [555] بلغت في تقدير عمر شطراًً كبيراً من أموال الأمة جاوزت النصف.

الخراج والأرض :

أن عمر لم يكتف برد الأموال والمنقولات إلى بيت مال المسلمين ، وإنما اهتم بأمر أهم من ذلك كله، ألا وهو الأراضي التي كانت في أيدي بني أمية ، تلك التي حرص عمر بن الخطاب أيام الفتوح الإسلامية أن لا تقسم وتملك للفاتحين ، وإنما وضع لها النظام الثابت الذي بات تبقي الأرض في أيدي أصحابها من أهل الذمة، ويدفعون عنها كما يدفعون رؤوسهم الجزية وبقيت ضريبة الخراج سارية الدفع.

على أن خلفاء بني أمية الأول استوهبوا أراضي الصوافي إلى أهلهم وخاصتهم ، فلما وصل الأمر إلى عبد الملك ولم يجد أرضاً في دمشق يمكنه أن يهبها ، فنظر إلى الأراضي الخراجية التي لم تكن لها وارثاً فأقطعهم منها، ودفع ما كان عليها من الخراج ، ولم يحمل خراجها إلى أحد من أهل القرى ، وجعلها فيئاً ، أما أراضي قرى دمشق التي بأيدي أهل الذمة فإن كلا من عبد الملك والوليد وسليمان رفض أن يقطعها لعرب دمشق

554- ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ص 125.

555- الاصفهاني ، الأغاني المصدر السابق ، ج8 ، ص 122.

وأذنوا لهم في شراء الأراضي الخراجية وجعلوها لمن اشتراها أرض عشر يبيعونها ويتوارثونها.[556]

حقيقة المشكلة في هذه الظاهرة يجب أن نصور الوضع المالي الاقتصادي للأراضي كما استقر عليه التشريع الإسلامي بالنسبة لها والذي ورثته الدولة الأموية عن دولة الرسول (ص) والخلفاء الراشدين ، فقد كانت هنالك ملكيات معينة للأراضي تظهر في نوعين أساسيين:

أولها: الأراضي الخراجية: منها:

أ. أرض أجرة وهي أرض ملكيتها عامة : وهي ما عرفت بالفيء (عنوة أو صلحاً) ، فلا يجوز فيها التصرف بالبيع أو الشراء ، وقد تركت في يد حائزيها السابقين نظير دفع الخراج ، ودفع الجزية على رقابهم ما أقاموا على شركهم ومنها.

ب. أراضي خراجية (جزية) تكون ملكية فردية خاصة لحائزها مع دفع خراج عنها، فهي ليست من أرض الفيء ويجوز فيها البيع والشراء وهذا الخراج يعد بمثابة جزية يسقط بإسلامهم.[557]

ثانيها: الأراضي العشرية:

وهي جميعاً ملكية خاصة للمسلمين يدفع عن ثمرها العشر زكاة ويجوز فيها البيع والشراء ، ولم تنشأ المشكلة عن النوعين الآخرين، وهما أراضي الخراج (الجزية) أو الأراضي العشرية وإنما نشأت المشكلة من عدم التفريق بين نوعين من الملكية ما بين أراض الخراج والأجرة، وأراض الخراج الجزية، فأقبل العرب على شراء الأرض الخراجية (الأخرة) بعد أن أذن

556- عماد الدين خلال ، ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن العزيز ، الدار العلمية للطباعة والنشر ، بيروت ، ط2 ، 1391هـ – 1971م، ص 116.

557- محمد أمين صالح ، المرجع السابق ، ص 94.

الخلفاء عبد الملك بن مروان ثم الوليد وسليمان للعرب بالشراء ومن هذه الأراضي : فترتب على ذلك أثران بالغان في الوضع الاقتصادي والمالي، لهذه الأراضي وهما:

1. تغيير أساس في أصل الملكية من ملكية عامة إلى ملكية خاصة فردية أو انتقال نوعيتها من أرض خراجية إلى أرض عشرية.
2. سقوط الخراج من هذه الأرض وظهور عجز في مالية الدولة العامة لأن المسلم لا يدفع خراجاً ، وإنما يدفع زكاة العشر . [558]

ويبدو أن هذا الإجراء قد سرى العمل به ليس في دمشق وقراها وإنما عم أرض الشام وتعداها إلى الولايات الإسلامية، ولما أعاد عمر بن العزيز القطائع إلى أهلها من أيدي بني أمية وأهل بيتهم وخواصهم ، فإنه كان له فقه ودراية بالأمور الشرعية وأحكامها ، فهذه الأرض التي سمح خلفاء بني أمية بتمليكها للمسلمين، ونزعها من أهل الذمة التي ولم تكن أصلاً أملاكاً لهم، فقد اعترض عمر علي بيعها واقطاعها بقوله: (إنما أرض المسلمين دفعت إلى أهل الذمة على أن يأكلوا منها، ويؤدون عنها خراجها وليس لهم ببيعها).[559]وبذلك فقد أكد عمر بن العزيز أن الأراضي الخراجية ملكاً للأمة ووقف عليها، ودون الخراج هو إيجار للأرض الخراجية يدفعه كل من يزرعها سواء كان ذمياً أو مسلماً، عربياً أو مولى إلا أنه لم يرجع أو لم يستطع الرجوع إلى التي سبق وأن تملكها العرب، ثم منع المسلمين من تملك الأراضي الخراجية اعتباراً من عام 100هـ وكتب أن من اشترى شيئاً بعد سنة مائة فإن بيعه مردود وسمى سنة مائة (سنة المدة) فسماها المسلمين بعده بذلك فأمضى بقية ولايته.[560]

كما أنه لم يعف تلك الأراضي الخراجية التي صارت بأيدي المسلمين بشكل أو بآخر من دفع الخراج عنها وبالتالي دفع العشر عما نتج ويروي عن ميمونة بن مهران قال: سألت

558- المرجع نفسه، ص 95.

559- ابن عساكر ، المصدر السابق ، ج2، 184.

560- عصام الدين عبد الرؤوف ، المرجع السابق ، ص 79.

عمر بن عبد العزيز : العربي وقال: المسلم تكون في يده أرض خراج فيطلب منه العشر ، فيقول: إنما عليَّ الخراج؟ فقال : الخراج على الأرض والعشر على الحب، فكان الخراج والعشر يؤخذان من أصحاب الأرض إذا كانت المحاصيل وافية، أما إذا أمحلت الأرض في عام ما، فإن أصحابها يعفون من الجباية في ذاك العام.[561]

كما أن عمر بن عبد العزيز كان قد أمر بأن تؤخذ الزكاة من نتاج الأرض الخراجية التي في يد المسلم، وبذلك أصبح المسلمون الذين كانوا يمتلكون أراضي خراجية يدفعون فوق الخراج المقدر على الأرض زكاة ما تخرج من هذه الأرض.[562]

على أن هذا الخليفة الواعي العادل لم يكن يريد أضراراً بالمسلمين ، حقاً أنه ضيق على المسلمين اقتناءهم الأراضي الخراجية، ولكن كان يريد حقاً حفظ حقوق المسلمين العامة ، وهذا لا يعني كان يمنع المسلم من اقتناء الأرض أو زراعتها ، فقد سمح يمتلك أراضي الجزائر وما غلب عليه الماء والصوافي وسمح بحفر الآبار والأنهار لاستصلاح الأراضي الزراعية ، كما أنه منع من أسلم من الذمة والاحتفاظ بأرض الخراج إذا رغب الانتقال إلى المدن وعليه أن يتركها لأهل الذمة يفلحونها.

كما أن عمر بن عبد العزيز نظر إلى النظام الذي اتخذه من سبقه من خلفاء بني أمية في أخذ الجزية من المسلمين الجدد وكان هذا النظام قد وضعه الحجاج بن يوسف والي العراق ولما رأى كثرة المسلمين الجدد وانكسار الخراج، واعتبر ذلك تهرباً من دفع الجزية فأمر بوضع الجزية على أسلم.[563]

فلما تولى عمر بن العزيز الذي كان يرى في ذلك أضرار الدين الإسلامي أمر أن تؤخذ من أهل الذمة فقط ، على أن تؤخذ الزكاة من المسلمين وحدهم.[564]ونجح عمر بن عبد

561- البلاذري ، المصدر السابق، ص 434.

562- ماجدة زكريا ، المرجع السابق ، ص 151.

563- ابن الأثير ، المصدر السابق، ج4 ، ص 465.

564- عمر فروخ ، المرجع السابق ، ص 170

العزيز في إجراءاته لأنه وضعها في إطار المفاهيم الإسلامية حيث رفع الجزية من المسلمين الجدد، وحين اعتبر الخراج إيجاراً للأرض موقوفة على الأمة وهي أرض العنوة لا يجوز التجاوز عليه، هذا وقد تثبت أسس تحديد الضرائب ووضعت مفاهيمها.[565]

وقد حاول بنو أمية إثناء عمر بن العزيز عن سياسته التي اتبعها في أخذ ما بأيديهم فاستدرجوه أولاً عن طريق التأثير عليه من كبار أهل البيت الأموي حين طلبوا من فاطمة بنت مروان عمته أن تثنيه عن عزمه ، ولكن أقام الحجة لها فلم تستطع إثناءه عما بدأه من الإصلاح.[566]

كما حاول بنو أمية أن يقفوا في وجه سياسته بالقوة فيدفعون بأحد أبناء الوليد إلى كتابة رسالة شديدة اللهجة ضد سياسته ، فيرد عمر بقوله: (ويلك وويل أبيك، ما أكثر طلابكما وخصصكما يوم القيامة).

ولم ييأس بنو أمية ، فمرة أخرى يلجأون إلى أسلوب آخر وهو أسلوب الحوار الهادئ ، قد يكملون معه يوماً ما مستثيرين فيه نزعة القربى وعاطفة الرحم ، فيجيبهم أن لا يتسع مالي ومالكم، وأما هذا المال – أي المال العام ، فحقكم فيه حق رجل بأقصى برك الغماد أفلا يمنعه من أخذه إلا بعد مكانه كما يدخل عليه هشام بن عبد الملك يوماً فيقول : (يا أمير المؤمنين إني رسول قومك إليك ، وإن في أنفسهم ما أعلمك به ، إنهم يقولون أستأنف العمل برأيك فيما تحت يدك أو خل بين من سبقك وبين ما ولوا بما عليه ولهم). فيرد عمر ببديهة ويجيب : أرأيت أن أتيت بسجلين أحدهما من معاوية والآخر من عبد الملك بأمر واحد ، فبأي السجلين آخذ؟ فيرد هشام : (بالأقدم) فيجيب عمر : (فإني وجدت كتاب الله الأقدم فأنا حامل عليه من أتاني ممن تحت يدي فيما سبقني)!!![567]

565- عبد العزيز الدوري ، المرجع السابق، ص 34.

566- الأصفهاني ، المصدر السابق ، ج8 ، ص 152.

567- عماد الدين خليل، المرجع السابق، ص 117.

كما أراد عمر بن عبد العزيز (أن يجرد ما في قبلة مسجد دمشق من الذهب وقال : أنه يشغل الناس عن الصلاة ، غير أن ما أثناه عن عزمه هو ورد وفد من الروم عليه، وحين رأى رئيس الوفد ما بتلك القبة قال: كم مضى بالإسلام؟ قالوا مائة قال : كيف تصغرون أمرهم إما بنا هذا البنيان إلا ملك عظيم فأتى الرسول عمر فأخبره ، فقال : أما أنه غائظ للعدو فدعه).[568]

سياسته مع عمال الولايات لحفظ حقوق المسلمين :

عمل عمر بن عبد العزيز إلى إراحة الرعية من ظلم بعض عمال الدولة الأموية الذين طالما توددوا إلي خلافائهم على حساب ظلم رعيتهم، فدعا بداوة وقرطاس فور انتهائه من دفن سليمان وكتب ثلاثة كتب، حمل أحدها عزل أسامة بن يزيد التنوخي وكان على خراج مصر، كما حمل أحدهما الكتاب الثاني عزل محمد بن يزيد مولى ريحانة بنت أبي العاص الذي ولاه سليمان بن عبد الملك أفريقية، كما عزل يزيد بن المهلب والي خراسان من قبل سليمان بن عبد الملك.[569] وقد كان لكل واحد من هؤلاء الولاة سيرة غير عادلة في جمعه لأموال المسلمين بغير حق أو ظلمه لهم ، على أن عمر كان يطالب يزيد بن المهلب بأموال عظيمة من جراء فتحه لجرجان وطبرستتان بلغت ستة آلاف بعد أن صار إلى كل ذي حق حقه ، كان قد كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك ، إلا أن يزيد أنكر المبلغ ويذكر أن ما كتبه ما هو إلا لتعظيم قدر الغنيمة ، على أن عمر أمر بحبسه.

ولم يكتف عمر بعزل الولاة السابقين لضبط وصيانة أموال الرعية وحقوقهم بل عمد إلى تنظيم مالي يحد من تصرفات الولاة ، فمنها أنه حظر على الولاة أن يتاجروا لأنهم لا يستطيعون بما لهم من النفوذ أن يجتازوا التجارة ويضروا بالرعية ، ثم أن الوالي أو العامل موظف في الدولة ، ولا يجوز له أن يقوم بعمل آخر ، كما حظر على الولاة والعمال أن

568- ابن عساكر ، المصدر السابق ، ج2، ص 212.

569- الطبري ، المصدر السابق، ح6 ، ص 523.

يستأثروا بالأملاك العامة لأن ذلك يضر عامة المسلمين ، كما نهى عماله أن يأخذوا زكاة أرباح التجارة إلا إذا حال عليها الحول على هذه الأرباح.[570]

إصلاحه للنقد :

وكان عمر بن عبد العزيز حريصاً على أن يستوفي المسلمون حقوقهم بغير زيادة ولا نقصان فقد أمر جباية الخراج وألا يأخذوا من الأهالي من الدراهم ما زاد وزنه على أربعة عشر قيراطاً وهو ما أمر به عمر بن الخطاب ، وقد رأى هذا الخليفة أن العمال يأخذون دراهم أثقل وزناً من الدراهم التي فرضها عمر بن الخطاب مما كان يزيد زيادة فاحشة في الضرائب التي كان يدفعها الأهالي.[571]

وكان يراقب عمال السكة مراقبة شديدة ومن ذلك ما ذكره البلاذري أنه أتى برجل إلى عمر بن عبد العزيز : (يضرب على غير سكة السلطان، فعاقبه وسجنه، وأخذ حديدة فطرحه في النار).[572]

وقد ضرب لعمر فلوس فكتب عليها : (أمر عمر بالوفاء) فقال : كسروها واكتبوا: (أمر الله بالوفاء والعدل)، وحريصاً على مصلحة المسلمين في استعمال النقد الصحيح، وعدم إعطاء الفرصة للعمال باستغلال الناس باستخدام فروق الدنانير والدراهم طلب عمر علاج ذلك الوضع ولمصلحة الفقراء بأن كتب إلى القائم على دار سك العملة بدمشق قائلاً: (إن من أتاك من فقراء بدينار ناقص فأبدله بوزان ، كما أنه أسقط عن أصحاب الخراج كسور تراكمت عليهم من فروق العملات).[573]

570- عمر فروخ ، المرجع السابق ، ص 170.
571- ابن كثير ، المصدر السابق ، ص 455.
572- البلاذري ، المصدر السابق ، ص 456.
573- الماوردي ، المصدر السابق، ص 81.

ومن إصلاحاته المالية أيضاً في رد المظالم والحقوق إلى أصحابها إعادته الخمس إلى بني هاشم حيث بعث بينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذوي القربى من بني هاشم ما كتب إلى عامله بالمدينة : (أن أقسم في ولد علي بن أبي طالب من فاطمة ، رضوان الله عليهم، عشرة آلاف دينار فطالما تخطتم حقوقهم).[574]

إصلاحه في المواريث:

كان سليمان بن عبد الملك يأخذ برأي عمر بن عبد العزيز ويقربه إليه ويستشيره في أمور كثيرة ، وكان عمر يصوب الآراء في حكم الشرع دون تخوف أو تردد ، وقد ذكر ابن الجوزي قائلاً : (دخل عمر بن عبد العزيز على سليمان بن عبد الملك وعنده أيوب ابنه، وهو يومئذ ولي عهده، وقد عقد له من بعده فجاء إنسان يطلب ميراثاً من بعض نساء الخلفاء، فقال سليمان : ما أخال النساء يرثن في العقار شيئاً فقال عمر بن عبد العزيز سبحان الله، وأين كتاب الله فقال يا غلام ، أذهب فأت بسجل عبد الملك بن مروان الذي كتب في ذلك فقال له عمر: لكأنك أرسلت إلى المصحف قال أيوب: والله ليوشكن الرجل يتكلم بمثل هذا عند أمير المؤمنين ثم لا يشعر حتى يفارقه رأسه فقال له عمر : إذا أفض الأمر إليك وإلى مثلك ، فما يدخل على أولئك أشد مما خشيت أن يصيبهم من هذا فقال عمر والله لئن جعل علينا يا أمير المؤمنين ما حملنا هذا؟ فلما آل الأمر إلى عمر أصلح كثير من أحوال المواريث ومن ذلك أنه من أسلم من أهل الذمة فإن ميراثه يذهب لذوي رحمه (يتوارثونه) كما يتوارث أهل الإسلام، وأن لم يكن له وارث فميراثه في بيت المال.[575] ولم يقتصر أثباته الميراث للأموال أو للأشياء المنقولة وإنما أيضاً إلى الأرض، واستمرار لبقاء الأراضي الخراجية في أيدي ذراري أصحابها بعد وفاتهم أرسل إلى عماله قائلاً : (ثم أن مواريث أهل الأرض انما هي لأوليائهم أو لأهل أرضهم الذين يخرجون

574- الماوردي ، المصدر السابق، ج2، ص 144.

575- أبو يوسف ، المصدر السابق . ص 131.

الخراج ، فنرى أن لا يؤخذ منهم شيء إلا أن يكون عاملاً فيبعثه الإمام في عمله بالذي يرى عليه من الحق والسلام).

حرصه على أموال المسلمين :

حرص عمر بن عبد العزيز على أموال بيت مال المسلمين فكان لا يصرف منها إلا في سبيلها، ولا يبذر ولا يبدد في تلك الأموال التي ائتمنه الله عليها وتعددت المصادر وأفاضت في أنواع الحرص مما لا يتسع لنا هنا ذكر القليل منها، فمن ذلك أنه كان إذا جلس يقضي حوائج الناس أمر بشمعة من بيت المال ، فإذا فرغ من حاجتهم أطفأها، كما يكتب لعماله بالحرص والاقتصاد في صرف حوائجهم من بيت مال المسلمين من شموع وقراطيس الكتابة، فيكتب إلى عامله قائلاً (فأدق قلمك) وقارب بين سطورك ، وأجمع حوائجك.[576]

وكان لا يأخذ من بيت مال المسلمين شيئاً ولا يجري على نفسه من ألفين درهماً ، وكان عمر بن عبد الخطاب يجري على نفسه درهمين في كل يوم ، فقيل لعمر بن عبد العزيز لو أخذت ما كان يأخذ عمر بن الخطاب ، فقال : إن عمر بن الخطاب لم يكن له مال ، وأنا لي مالي يكفيني،[577] وقد كان دخله في كل سنة قبل أن يلي الخلافة أربعين ألف دينار فترك ذلك كله حتى لم يبق له شيئاً سوى أربعمائة دينار في سنة ، وكان حاصلة في خلافتة ثلاثمائة درهم.[578]

تفقده لأحوال الرعية:

كان عمر بن عبد العزيز حريصاً على الإنفاق بسخاء على العجزة والأيتام والفقهاء والمنقطعين لطلب العلم ، وكان يتفقدهم في الولايات الإسلامية ، فقد كتب إلى واليه على حمص قائلاً: (أنظر إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه وحبسوها في المسجد عن طلب

576- ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ص 101.

577- ابن عبد ربه ، المصدر السابق ، ص 169.

578- ابن كثير ، المصدر السابق، ص 93.

الدنيا، فأعط كل رجل منهم مائة دينار يستعينون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين حين يأتيك كتابي هذا، وإن خير الخير أعجله والسلام).

سياسة يزيد بن عبد الملك :

تكثر الأقوال التي تريد أن تلصق انهيار الدولة الأموية إلى السياسة الاقتصادية التي اتبعها عمر بن العزيز فجعلت بانهيارها وقد أورد هذا الرأي كثير من المستشرقين وجانبهم الصواب في الوقائع والتحليل، فالدولة الأموية عاشت بعد حكم عمر بن العزيز ثلاثين عاماً ولم يكن انهيارها أمام الثورة العباسية قلة من المال أو خواء في بيته وإنما كان انهيارها نتيجة وقوعها تحت مطارق الثورات التي انتشرت على امتداد أقاليمها وأمصارها.[579]

فقد تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك بعد الخليفة المصلح عمر بن عبد العزيز (101 – 105هـ – 720 – 724م) بتوليه الخلافة أعاد الدولة إلى سابق عهدها وحاد عن سياسة عمر بن عبد العزيز الإصلاحية في النواحي المالية والإدارية ، فقد ارتد بالنظام المالي والاجتماعي إلى ما كان عليه قبل حكم عمر بن عبد العزيز ، فعزل الولاة الذين عينهم عمر بن العزيز ، وانتزع الحقوق التي وزعت وأعاد الضرائب التي ألغيت ومنها ضريبة الخراج على الذين أسلموا بل أنه واجه عمال عمر بن عبد العزيز صراحة حيث كتب إلى عماله قائلاً : (خذها منهم ولو صاروا حرصاً).[580]

عدول يزيد بن عبد الملك عن إصلاحات عمر بن عبد العزيز:

ومن الأدلة التي تثبت عدول يزيد بن عبد الملك عن الإصلاحات التي أقرها عمر بن عبد العزيز في النواحي المالية إن محمد بن يوسف أخا الحجاج بن يوسف والي اليمن كان قد جعل على أهل اليمن خراجاً ثابتاً يدفعونه سمي بخراج الوظيفة وعندما تولى عمر بن

579– ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 165.

580– المصدر السابق نفسه، ج3 ، ص 169.

العزيز الخلافة كتب إلى عامله على اليمن بالغاء ما كان قدره محمد بن يوسف ، والاقتصاد على العشر فقط ، وعندما تولى يزيد بن عبد الملك من كثرة اهتمامه بجباية الخراج قام بعزل أخيه مسلمة بن عبد الملك عن ولاية العراق ، لأنه لم يدفع إليه شيئاً من خراج العراق.[581]

وكان لابد لهذه التغيرات الواضحة والتباين فيما بين سياسة عمر بن عبد العزيز المصلحة وسياسة يزيد بن عبد الملك المجحفة ، إضافة إلى وجود عمال في الولايات يأتمرون بأمر الخليفة أن ينتج عن ذلك كثير من التمرد والاضطرابات في الولايات.[582]

عودة روح العصبية القبلية:

ومما زاد هذه الاضطرابات عودة روح العصبية القبلية بأقصى صورها بتعصب الخليفة يزيد بن عبد الملك إلى المضرية ضد اليمنية.[583]

ففي المغرب كان الأمر في يد يزيد بن مسلم ، صاحب الشرطة أيام الحجاج أثناء ولايته على العراق ، فسار في حكم على من اعتنقوا الإسلامى من البربر ولكن هؤلاء تآمروا عليه فقتلوه.[584]

وقد حاول الخليفة يزيد بن عبد الملك تحت ضغط مطالب البربر إصلاح الأمور فعين على أفريقية في سنة 102هـ بشر بن صفوان الكلبي ، الذي اتبع سياسة لم تختلف كثيراً عن الوالي السابق إزاء البربر ، إضافة إلى تعصبه القبلي. [585]

581- الطبري ، المصدر السابق ، ج6، ص 615.

582- محمد أيمن صالح ، المرجع السابق ، ص 72

583- ابن الأثير، المصدر السابق، ج4، ص 269.

584- الطبري ، المصدر السابق ، ج6 ، ص 217.

585- البلاذري ، المصدر السابق ، ص 223.

وفي الأندلس طبق يزيد بن أبي مسلم نفس السياسة التي اتبعها في أفريقية لأنها كانت سابقة لولايته ، فقد أعاد جمع الضرائب التي ألغاها عمر بن عبد العزيز، وفرض عليهم ضرائب تماثل تلك التي فرضها محمد بن يوسف المتعلقة بإجراء الإصلاحات في الأندلس مما دفع السكان إلى الهجرة. [586]

وفي بلاد الترك أفسد ولاة يزيد بن عبد الملك ما قام به عمر بن عبد العزيز من جهود عظيمة لنشر الإسلام وأنتهجوا سياسة مستبدة منحرفة ، حملت كثيراً من الناس على الارتداد عن الإسلام والثورة على الحاكم.

وفي مصر أخذ يزيد المسيحيين بالشدة ، فأعاد نظام الخراج الذي كان عمر بن عبد العزيز قد رفعه عن الكنائس والأساقفة حتى كرهه المسيحيون.[587]

وكان لظهور روح العصبية من جانب يزيد بن عبد الملك نتائجها السيئة، فمزقت وحدة الجند ، وبعثرت جهود القوى السياسية في الدولة ، فصراع العصبيات القبلية التي حاول عبد الملك بن مروان أن يخمد أوزارها بإقامته نوعاً من التوازن بين الزعامات المتطاحنة، عادت لتطل برأسها بعد وفاته ولاسيما في عهد ابنه سليمان، وجاء عمر بن عبد العزيز الذي رفع شعار المساواة ، وجعل من دولته دولة يرتكز الحكم فيها على شعائر الإسلام ، ليخمد كل صوت لا ينسجم وهذه المساواة التي تصنف الرعية لا حسب انتماءاتهم القبلية ، بل حسب تقواهم وتفانيهم في خدمة العقيدة، وحين آلت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك عادت العصبية القبلية التي تقتضيها ظروف الحكم وشؤون الدولة.[588]

انغمس يزيد بن عبد الملك في خضم التعصب القبلي بشكل غير معهود من بقية الخلفاء الأمويين الذين كانت لهم ميولهم القبلية ، يساعده في ذلك ارتباطه برباط المصاهرة مع

586- عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية، مطبعة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1976م ، 277.

587- الطبري ، المصدر السابق ، ج6، ص 507.

588- الطبري، المصدر السابق ، ج6 ، ص 555.

أسرة الحجاج (في العراق) ، وقد كانت من أركان المضرية.[589]فكان من جراء ذلك أن نتج عن هذه العصبية بنصرة القيسية على أسرة آل المهلب اليمنية التي قادت الفتنة بزعامة يزيد بن المهلب وظهرت فيها روح العصبية القبلية بين القيسية بزعامة عدي بن أرطاه عامل يزيد بن عبد الملك على البصرة، وبين اليمنية بزعامة يزيد بن المهلب ، علا فيها شأن يزيد بن المهلب الذي جمع جيشه من اليمن وخرج لملاقاة جيش مسلمة بن عبد الملك على شاطئ الفرات، وانتصر فيها مسلمة بن عبد الملك وقتل يزيد بن المهلب وأخواه حجيب ومحمد ، كما ضرب أعناق ثلاثمائة رجل من أسرى جنده بعد اقتحام معسكره ، كما تمت مطاردة آل المهلب وأرسلت رؤوس القتلى منهم إلى يزيد بن عبد الملك في الشام، كما صورت لهم أموالهم.[590] وكان من نتائج إخفاق الثورة أنها كانت بمثابة ضربة قوية ، وجهت القبائل اليمنية التي ساندتها، وفقدت كل أمل في استعادة نفوذها المفقود.

وحيث تولى العراق عمر بن هبيرة القبسي ، المتعصب حكم البلاد بالجور والظلم، مدفوعاً بالرغبة في الانتقام من اليمنيين الذين واكبوا أبناء المهلب في انتفاضتهم ضد الحكم الأموي.[591] كما كان لنشوب العصبية في العراق التأثير القوي ، على خراسان حيث امتد الصراع إلى أنحاء البلاد ، وبالتالي تعرضت الدولة الأموية إلى خطر قوي في هذه المنطقة نتيجة النزاع القبلي من جهة وتستر الموالي من جهة أخرى وراء الدعوة العباسية.[592]

ولم تكن هذه الظروف البيئية داخل الولايات الإسلامية وحدها التي تضعف بأركان الخلافة الإسلامية في عهد يزيد بن عبد الملك من الداخل ، بل كانت تواجه الدولة أيضاً أخطار خارجية، ففي الجهة البيزنطية لم يسمح في خلال حكم يزيد بن عبد الملك عن أي حملات

589- ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج4 ، ص 67.

590- نبيه عاقل ، المرجع السابق، ص 300.

591- الطبري ، المصدر السابق ، ج6 ، 615.

592- سهيل ركار ، المرجع السابق ، ج2 ، 217.

حتى كادت أن تقف بحيث لا توجد سوى غزوات معدودة ، بل أن الروم نزلوا الساحل المصري، كما عاد من الشرق خاقان الترك إلى التدخل في بلاد ما وراء النهر وتحالف مع كثير من الدهاقنة فيها ، وبدأت الشعوب القوقازية تعبر حدود أرمينية وتهزم عمال العرب لولا إرساله أحد قواد المسلمين المهرة وهو الجراح بن عبد الله الحكمي الذي أوقف تقدمهم.[593]

وعلى هذا فمن الممكن القول بأن خلافة يزيد بن عبد الملك تعتبر مرحلة من أدق المراحل في تاريخ الدولة الأموية ، بل يمكن القول أنها رسمت خط النهاية لهذه الدولة العظيمة ، فقد تبلورت آنذاك معالم ما يسمى بالتيار "الشعوبي" وذلك في أعقاب موجة التذمر لدى الفئات غير العربية التي عانت إرهاب الولاة وثقل الضرائب. [594]

إصلاحات هشام بن عبد الملك :

خلف يزيد بن عبد الملك وراءه تركة ثقيلة يحمل أعباءها خليفته في الحكم هشام بن عبد الملك، فقد كان من النتائج السيئة التي تعانيها الدولة في أنحاء ولاياتها ما أوجده يزيد بن عبد الملك من أحقاد تشتعل في صدور اليمنية وشعوب الولايات المفتوحة ، فحاول هشام القضاء على هذه النتائج بصورة مثالية.[595]

إعادة التوازن بين العصبيات :

ومن أولى المبادرات الإصلاحية التي قام بها هشام بن عبد الملك هي محاولة إعادة التوازن بين العصبيات القبلية في الدولة ، وعلى الرغم من أنه كان ناحية النسب

593- عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ج2 ، ص 297.

594- إبراهيم بيضون ، تكوين الاتجاهات السياسية في الإسلام الأول ، دار إقرا بيروت . ط1، 1405هـ - 1985م ، ص 299.

595- عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ج2 ، ص 281

والمصاهرة مع العنصر اليمني، على غرار معظم الخلفاء الأمويين إلا أنه كان يميل إلى الاعتدال فكانت إدارته مزيجاً من الاتجاهين بصورة عامة.[596]

ففي ولاية العراق كانت اليمنية لا تزال تحقد على الخلافة الأموية بسبب هزيمتها مع ابن المهلب ، ولكن يخفف هشام من حدة غضبها عزل عاملها القيسي بن هبيرة، وولى عليها خالد بن عبد الله القسري ، وهو من قبيلة بجيلة في شمال جزيرة العرب التي يبدو أنها كانت محايدة في نزاع اليمانية والمضرية ، فاستطاع خالد أن يهدي من حدة نزاع القبائل.[597]

كما قام بتعيين نصر بن سيار على خراسان لما كان يتمتع به من حزم وشجاعة وعدل وذلك ليصلح الأمور فيها وخاصة الأموال المالية، فقام بإصلاحات كبيرة وأحسن الولاية والجباية.[598] فقد حاول تطبيق سياسة عمر بن عبد العزيز ، بأن فرض ضريبتين في خراسان ضريبة الخراج على الأرض يدفعها كل مالك وضريبة على الرؤوس بعض منها دخل في الإسلام ، وبذلك أصلح نقطة هامة في تطبيق ذلك النظام في خراسان ، ولكن إصلاح نصر جاء متأخراً لاستفحال الدعوة العباسية.[599]

سياسته في جباية الخراج :

أما سياسة عمر بن عبد العزيز في منع بيع الأرض الخراجية الزراعية فقد استمر العمل بها في خلافة كل من يزيد عبد الملك وأخيه هشام.[600] أو لتوضيح الصورة السياسية للدولة الأموية في الفترة الأخيرة من تاريخها يمكن القول بأن القاعدة الأساسية للقرار الجديد هو أن الأرض ، وليس المالك تدفع الخراج ومن ذلك العهد ، وفقاً لسياسة هشام بن عبد

596- إبراهيم بيضون ، المرجع السابق ، ص 302.

597- عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ج2 ، ص 282.

598- الطبري ، المصدر السابق ، ص ج7 ، ص 158.

599- الطبري ، المصدر السابق ، ج7 ، ض 20.

600- ابن عساكر ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 185.

الملك المالية بقيت أرض الخراج أراضي خراجية سواء أسلم أصحابها أم لم يسلموا، وسواء اشتراها العرب المسلمون ، وبقيت أراض العشر تدفع العشر ، ولكن وضع حد لازدياد هذا النوع من الأراضي، كما عين الدولة مراقبين ماليين لمراقبة أي تغيير في تنفيذ القوانين.[601] على أن العرب عادوا إلى شراء الأراضي الخراجية ولم يمتنعوا عن ذلك حتى نهاية الدولة الأموية.[602]

عرف هشام بن عبد الملك بغزارة عقله وحسن تدبيره وسياسته حتى قيل ن السواس[603]، من بني أمية ثلاثة معاوية وعبد الملك وهشام، فقد اهتم بشئون الدولة وفي مقدمتها الخراج وإحصاء وارداته بدقة بالغة.[604]

وحرص على أموال المسلمين حتى اتهمه بعض المؤرخين بالبخل فقد وصفه المقريزي بأنه: (كان جموعاً للمال)[605]بينما أنصفه البعض الآخر ، ووضح أنه كان يبخل بالمبلغ التافه في هباته الشخصية ، لكنه لم يبخل بالملايين للحفاظ على الاستقرار الداخلي وحماية الدولة من الأعداء المحيطين بها، وكان جل نفقاته صرفياتها تذهب في هذا السبيل ، كما أنه حريص على بيت المال ، لم يفرط بما حصل فيه من الأموال إلا بحاجة ماسة لتحضير الجيوش أو غير ذلك ، وأن ما وصف به هشام من البخل وجمع المال لم يكن على حساب الدولة وحماية حدودها واستتباب الأمن في ربوعها.[606]

لقد اتخذ هشام بن عبد الملك عدة إصلاحات بهدف تنظيم إدارة الدولة فنجده يستمر في منع بيع الأراضي الخراجية ، كما أنه كان يعاقب كل من يخالفه في ذلك، فقد قام بمعاقبة والي دمشق عندنا سمح لوكيل خالد القسري – والي العراق – أن يشتري أرضاً لخالد من

601- عصام الدين عبد الرؤوف ، المرجع السابق ، ص 80 – 81 .

602- ابن عساكر ، المصدر السابق ، ص 186.

603- السواس ، جمع سائس ، أي متولي الرئاسة والقيادة.

604- ا ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 165.

605- المقريزي ، المصدر السابق ، ص 51.

606- ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج2، ص 214

أراضي الغوطة وكانت خراجية ، إلا أنه منح إقطاعات لبعض المسلمين في تركها أهلها، خاصة في الحدود القريبة من الحدود البيزنطية كانطاكية وبعض المدن المجاورة على الساحل السوري.

كما أعاد للقبائل اليمنية من جند الشام هيبتها بسياسة التوازن بين القيسية واليمنية ، وكان هشام يدرك أهمية هذه القبائل ويقدر دورها في الحفاظ على العرش الأموي.(607)

سياسته في مجال النقد :

وفي مجال النقد وسك العملة نجد المصادر الإسلامية تتحدث عن ضرب النقود في عهد يزيد بن عبد الملك وهشام ، ففي عصر يزيد تولى العراق عمر بن هبيرة (101هـ – 105هـ) فخلص الفضة أبلغ تخليص وجود الدراهم واشتد في العيار ثم لما ولي خالد بن عبد الله القسري (105 – 120 هـ) العراق لهشام بن عبد الملك اشتد في النقود أكثر من اشتداد ابن هبيرة من أحكم أصبرها ، بلغ من أحكامه على الطامعين وأصحاب العيار ، وقطع الأيدي والإبشار، وحتى تولى العراق بعده يوسف عمر الثقفي (121 – 126هـ) المبالغة وامتحان العيار وضرب عليه، فكانت الهيبرية والخالدية واليوسفية أجود نقود بني أمية.(608)

وذكر المقريزي : أن الهبرية ضربت بالعراق على عيار ستة دوانيق ، كما ذكر أن هشام بن عبد الملك أمر خالد القيسي في سنة ست ومائة من الهجرة أن يصدر العيار على وزن سبعة، وأن يبطل السكك من كل بلدة إلا أوسط فضرب الدراهم بواسطة فقط وكبر السكة، كما ذكر أنه بعد عزل خالد القسري سنة عشرين ومائة ، وتولى من بعده يوسف بن عمر

607– عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ج2 ، ص 281.

608– ابن خلدون ، المصدر السابق ، ط3 ، ج3، ص 100.

الثقفي، فصغر السكة، وأجراها على وزن ستة وضربها بواسط وحدها ، وكانت هنالك نقود في عهد هشام مماثلة النقود الوليد وأبيه عبد الملك.[609]

ولعل ما يلفت الانتباه وفيما ذكره المقريزي هو ابطال السكك في جميع مدن الضرب والأوسط، فلعل هذا ضمن إدارة هشام بن عبد الملك ، حيث أنه لم يرد فقط ضبط العيار وتنقيته من الغش، بل كان أيضاً لضبط المراقبة على مكان الضرب، وعدم إعطاء الفرصة لمن تسول له نفسه بالتزوير وسك العملة على غير سكة الدولة الرسمية.

على أن هنالك بعض المراجع تشير إلى أمر آخر ذلك هو كثرة معامل الضرب في إصدار النقد الذهبي ، والفضي في الأعوام الأولى من الإصلاح النقدي من عام 78هـ فما بعده ، مما اضطر الخليفة هشام بن عبد الملك إلى الإقلال من هذين النقدين في الفترة التي حكم فيها. [610]

وقد أشار عبد العزيز الدوري بنقود بني أمية وخاصة النقود التي ضربت في عهد هشام بن عبد الملك بقوله : (وقد حافظ الأمويون على نسبة عالية ومستقرة من النقاء للدينار) إذ يبدو أنها كانت تبلغ في زمن عبد الملك 96% وفي زمن هشام 98% واتجه هشام إلى مركزية الضرب، فحدد ضرب الدرهم بواسط، وربما حدد ضرب الدينار بدمشق.[611]

سياسته في مجال الإصلاح الزراعي:

أما في مجال الإصلاح الزراعي وعائداته على الدولة عامة ، وبلاد الشام بصفة خاصة ، فمنه ما أوردناه سابقاً من ازدهار الصناعة في عهده وبناء السدود والقنوات، وإصلاح الأراضي سواء في منطقة بلاد الشام ، أو في الولايات التابعة للدولة الإسلامية.

609- المقريزي ، المصدر السابق ، ص 52.

610- البلاذري ، المصدر السابق ، ص 454.

611- المصدر السابق نفسه ، ص 454.

كما عرف عن هشام بن عبد الملك أنه كان حريصاً على ألا يدخل بيت ماله الخاص أي مال حتى يشهد أربعون رجلاً أن كل ذو حق قد أخذ حقه.[612]

مع هذا نجد أن المؤرخين من يذكر بأن هشاماً لم يكن يفرق بين ماله الخاص وبين المال العام في الإنفاق على الرغم من الإشادة به بأنه قام بعمارة الأراضي ، وتقوية الثغور ، وإقامة البرك والقنى،[613]كما كان يقضي الديون ويفك أزمات المحتاجين فقد قضى عن الزهري سبعة آلاف دينار ، وقيل أربعة آلاف دينار ، وقيل سبعة عشرة ألف دينار كما قضى ابنه شهاب ثمانين ألف درهم.[614]

الصعوبات التي واجهت سياسته الإصلاحية:

على أن سياسة هشام بن عبد الملك في الإصلاح سرعان ما واجهت في طريقها بعض الصعوبات في كيان الدولة الأموية ، فمن هذه الصعوبات ما واجهته الدولة الأموية في العراق ، ذلك أن واليها خالد القسري الذي ضمن سياسة التوازن في المعاملة بين القيسية واليمنية قد استغل نفوذه في الولاية فاستحوذ على كثير من الضياع قدرت علتها بثلاثة عشر ألف درهم ، مما يسبب قلة واردات الخراج ، إضافة إلى إساءته إلى أحد أفراد البيت الأموي، وكان لا يذكر هشاماً إلا بالأحوال، كما اتهم خالد بأنه استعان بأهل الذمة وأذل الإسلام، كل هذه الأسباب دفعت هشام إلى عزل خالد القسري من العراق ليعود إلى سياسة الحجاج المالية، وليضعف من سيطرة اليمنية وسيطرة خالد الذي يستغل ولاية العراق، وعين مكانه يوسف بن عمر الثقفي الذي عزل عمال خالد وأخذ الناس بالشدة،[615] كما أنه قبض على خالد وغرمة مبلغاً كبيراً من المال، ويبدو أن هشاماً اختار يوسف بن عمر الثقفي لولاية العراق لتغيير ميول هشام من اليمنية إلى القيسية وقد استطاع يوسف بن عمر

612- السيوطي ، المصدر السابق ، ص 247.

613- المصدر السابق، ج2، ص 161.

614- الزهري ، تاريخ مدينة دمشق ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط1 ، 1402هـ - 1982م ، ص 167 - 168.

615- الطبري ، المصدر السابق ،ج7 ، ص 124.

الثقفي، أن يستمر في ولايته للعراق في عهد خالد القسري، بأنه عهد طمأنينة وهدوء ولكن ما لبث الحال أن تغير بعده وبدأت الفتن والثورات تتوالى، ومن أهم ما وقع في العراق بعد خالد هي فتنة زيد بن علي بن الحسين بن علي أبي طالب، ومن الأسباب التي أدت إلى قيام هذه الفتنة ما خلافته أن يوسف بن عمر بن يوسف الثقفي عامل هشام على العراق كتب إلى الخليفة هشام مدعياً أن خالد القسري قد أودع ستمائة ألف درهم عند يزيد بن علي، وأن زيد ينكر الوديعة، فبعث هشام أن خالد لم يودع عنده شيئاً إلا أن هشاماً طلب من زيد أن يذهب هو بنفسه إلى يوسف ليواجهه بهذا ويناقشه في التهمة التي اسندها إليه، ولكن زيداً أبدى تخوفه من مقابلة يوسف وما يتعرض له من إهانة أو تعذيب، ولكن إصرار الخليفة هشام يوجه زيد إلى العراق، مواجهة يوسف بن عمر الذي واجهه بخالد القسري، فنفى خالد أن يكون قد أودع أي مال لدى زيد، ولكن يوسف بن عمر لم يقبل حتى أقسم زيد بأغلظ الإيمان وأودعه السجن، فبلغ ذلك هشام بن عبد الملك، فبعث إلى يوسف بن عمر يأمره بإخلاء سبيل زيد ليترك الكوفة ويتوجه إلى المدينة.[616]

ولكن أهل الكوفة جاءوا يشجعونه على الخروج على بني أمية ، وقد كان زيد يحدث نفسه بالخلافة ووعده، أن ينصروه فتظاهر عليه الشيعة من أنحاء المدن حتى اجتمع إليه عدد كبير قدر ما بين خمسة عشر ألف[617]وما بين عشرة ألف من أهل الكوفة وغيرها سنة 121هـ فلما علم يوسف بن عمر بأمره ، أخذ يلاحقه حتى اضطر زيد إلى إعلان الثورة ، فلما خرج لقتال يوسف بن عمر سأله بعض أنصاره عن رأيه في خلافة أبي بكر وعمر ولم ينكرها فلما رأو منه ذلك رفضوه وامتنعوا عن القتال ولذلك سموا (بالروافض) فبقى في قلة من أصحابه وهم أصول فرق الزيدية فسهل على يوسف من قتله وصلبه في كناسة الكوفة.[618]

616- الطبري ، المصدر السابق ، ص 180.

617- ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج4 ، ص 233.

618- المصدر السابق نفسه، ص 243.

أما بالنسبة لخراسان فلم تكن أقل حظاً من الثورات مما أصاب العراق، وكان ذلك ناتجاً مما سار عليه عمال الولايات في عهد هشام بن عبد الملك من اختيار عمال الخراج من قبلهم وليس من قبل الخليفة، فحرص ولاة هشام على اختيار عمال الخراج من الموالي نظراً لمعرفتهم بأحوال بلادهم، فكان عامة عمال الخراج من الدهاقين الذين أصبحوا يتمتعون بامتيازات كبيرة في عهد خالد القسري وأخيه أسد والي خراسان، فاستغل هؤلاء الدهاقين ثقة الولاة العرب ونوابهم، فبدأو يجمعون أموال الخراج بالطريقة التي يرونها ، ويحتفظون منها بما يشاءون ولا يعطون الولاة العرب إلا المبالغ المتفق عليها، مما يسبب تذمراً شديداً بين الأهالي وبخاصة سكان ما وراء النهر، أن أحد عمال الخراج في عهد الوالي خالد القسري دفع ثلاثمائة ألف لعامل أجر مقابل النزول له عن ولاية الخراج ، هذا ما كان يتوقعه العامل من أرباح إذا ما أسندت إليه هذه الوظيفة.(619)

وقد ارتبطت خراسان بما كان يدور من اضطهاد وثورات في بلاد ما وراء النهر، فقد قامت نزاعات عنيفة بين المضرية واليمنية في خراسان، وتلي ذلك النزاع ثورة أخرى في بلاد الهند قام بها الأهالي نتيجة جشع نائب أمير سمرقند الذي بعد أن كان قد وعد بإعفاء من أسلم من الجزية حاول أن يفرضها من جديد أثر اعتناق أناس كثيرين للإسلام، وانضم إلى الثائرين عدد من المستوطنين بقيادة زعيم عربي يدعى الحارث بن سريج، كما تلقوا الإعدادات من رئيس قبائل التركمان.(620)

ويذكر أنه من الأسباب التي جعلت هذا الوالي يعدل عن رفع الجزية عمن أسلم أن الدهاقين وهم ملاك الأراضي، لم يرضوا عن ذلك لأنهم كانوا مسؤولين عن تحصيل الجزية، وكان من العسير عليهم الدخول في الإسلام، ولهذا جاء دهاقين بخارى إلى السلمي، والي خراسان قالوا له ، ممن تأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عرباً أي أصبحوا

619- الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج7 ، ص 28.

620- المصدر نفسه ، ص 95.

مسلمين على يد العرب، فكان ذلك مما حصل أشرس على العدول في خطته إزاء أهل الصغد،[621] فعين عمالاً جدداً وأمرهم أن يأخذوا الجزية ممن كانوا يأخذونها منهم، فامتنع هؤلاء عن دفعها، واعتزل قوم من الصنعد يبلغ عددهم سبعة آلاف، فنزلوا على مقربة من سمرقند ، إلا أنهم في البداية من أمرهم نقص عنهم مناصروهم ضعف أمرهم وأرغموا على دفع الجزية ولم يسكت أهالي الصغد على أوضاعهم في دفع الجزية ليتحرروا من سلطان العرب.[622]

جاء العرب المسلمون الأتراك واشتهر في هذه الحرب الحارث بن سريج الذي كان ضمن جيش خراسان، قد أبلى حسناً في محاربته للترك. [623] إلا أنه يبدو أنه غير خطته بعد ذلك وأخذ على عاتقه إتمام حركة الموالي في رفع الجزية ممن أسلم منهم، فحرص الموالي ووعدهم بالعمل على إسقاط الجزية عنهم ، وإشراكهم في إلا عطيات التي كانت تعطي للمقاتلة ، واشترك معه في ثورته على الدولة الأموية كثير من العرب من تميم والأزد ، كما انضوى الدهاقين وأهل القرى تحت لوائه ، وقد استطاع الحارث بن سريج الدخول[624]في معارك عدة حتى وصل مرو عاصمة خراسان يساعده في ذلك أهل البلاد الذين مالوا إليه إلا أن والي خراسان استطاع مقاتلة الحارث بن سريج والانتصار عليه ، فقتل عدداً كبيراً من أتباعه ، وتفرق عنه أصحابه من العرب والدهاقين، وتولى خراسان أسد القسري الذي ظل يلاحق الحارث الذي ظل مخالفاً للدولة الأموية حتى عهد يزيد بن الوليد.

وعندما توفى أسد عين الخليفة هشام نصر بن سيار على ولاية خراسان حيث أعلن عقب توليه إسقاط الجزية عمن أسلم.

621- سيد أمير ، مختصر تاريخ العرب ، ترجمة عفيف البعلبكي ، دار العلم للملايين، بيروت ، ط4 ، 1981م ، ص 140.

622- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج4 ، ص 147.

623- محمد جمال الدين سرور ، الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ط5 ، 1395هـ – 1975م ، ص 160 – 161.

624- الطبري ، المصدر السابق ،ج7 ، ص 96.

أما الخراج فإنه وضع له نظاماً يقضي بأن يجنى المقدار الثابت الذي تقدر على المدن والنواحي كل حدتها ، ومن الأرض وحدها وعلى هذا حدد مقدار الخراج من جديد وصار يؤخذ من جميع ملاك الأرض بحسب ما يملكونه سواء كانوا مسلمين أو رعايا غير مسلمين خاضعين للدولة الإسلامية.[625]

إن نصر بن سيار هذا قد تعصب للمضرية اليمنية فكانت خراسان بين مراجل غضب الموالي، وأحقاد العصبية فكان ذلك مما مهد السبيل لأبي مسلم الخراساني في نشر الدعوة العباسية.

أما بلاد المغرب فقد وجد الخراج أرضاً وهم الذين كانوا قد قصم ظهرهم مقاومتهم بالمشرف، فاستغلوا سوء تصرف العمال لإشارة البربر على الخلافة الأموية حيث كان العمال يتهاونون بالبربر مالهم وحيواناتهم واعتبرهم أقل من العرب ، فقد كانت دعوتهم المساواة فأقبل البربر على الإسلام حباً في المساواة فثار البربر على هشام سنة 122هـ.

وتزعهم خارجي من المغرب اسمه ميسرة المدفري فاستطاع أن يجمع البربر حوله، وسمي نفسه أمير المغرب، وكان ذلك ناتجاً عن سوء تصرف عمال هشام، فعامل طنجة عمر بن عبد الله أساء السيرة وأراد تخميس البربر، إسماعيل بن عبد الله عامل السوس ، ابن عبيد الله بن الحيحاب عامل المغرب ووالي مصر، أساء السيرة أيضاً في البربر لذلك انتهز ميسرة المدفوري فرصة إرسال حملة للقارة على صقيلية وهجم بجموع البربر التي تؤيده وتشد أزره، ففتكوا بوالي طنجة، ووالي السوس.[626]

فتحرج بذلك موقف عبيد الله بن الحيحاب في بلاد المغرب وساء مركز العرب ، وعظمت مكانة ميسرة المدفوري واتباعه من البربر، وقوي أمره في المغرب الأقصى، لذلك أعد عبيد الله جيشاً مؤلفاً من خيار العرب، جعل على مقدمته خالد بن حبيب الفهري، فلقي ميسرة

625- ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج4، ص 226.

626- ابن الأثير، المصدر السابق ، ج4 ، ص 190.

بالقرب من طنجة فاقتتل جيشاهما وتراجع ميسرة فثار عليه البربر وقتلوه، وولوا أمرهم مكانة زعيماً من المتطرفين هو خالد بن حميد فالتقى بالبربر بقيادة ابن حميد ولكنه لم يستطع أن يصمد أمام جيوشهم الكثيفة فانهزم وراء العرب هزيمة مخزية لم يسمع بمثلها وقتل ابن حبيب ومن معه، وبلغ خبر الهزيمة أسماع بربر الأندلس فثاورا على عاملهم وعزلوه، فلما هشام بن عبد الملك بالكارثة التي أصابت بلاد المغرب عزم على الانتقام من البربر.[627]

فأقام على المغرب بدلاً عن الحيحاب رجلاً قيسياً هو كلثوم بن عياض القتسري، وسير معه جيش كثيفاً من الشاميين والمصريين وتولى قيادة الجيش ابن أخيه بلح بن بشر القتسري، الذي واجه صعوبات كبيرة وهزائم عدة من البربر فقد أباد البربر جيش كلثوم بن عياض القتسري، كما فر بليح بعد هزيمة منكرة، وواجه العرب بعد ذلك هزائم منكرة على يد البربر وانحسر سلطان العرب عن المغرب الأدنى.

وبعد ما أوردناه على بعض أحوال الولايات الإسلامية في عهد هشام بن عبد الملك، على الرغم من محاولته الإصلاحية لأحوال الولايات الإسلامية إلا أننا نستطيع القول بأن الدولة الإسلامية فقد تصدعت أركانها ، فكانت محاولة في الإصلاحات الإدارية تمثل نوعاً من الدقة والتنظيم ليقضي على المفاسد الموجودة في البلاد.

إلا أنه لم يستطع التمسك بسياسة موحدة يسير عليها في معاملة الموالي وأهل الذمة ، مما نتج عنه هذه التوارث أو لعلنا ندرك أن الاضطرابات والثوريات في الولايات ما هي إلا نتائج سياسة الولاة الذين لم يستطيعوا الحكم بميزان العدل.

ولعل هشام كان يريد أن يمحوا الصورة التي تركها إخوة يزيد بن عبد الملك في جميع الولايات بما فيها بلاد الشام. فقد وصف بأنه كان تقياً إلا أنه لم يتمكن من القضاء على النتائج البيئة لسياسة يزيد الذي أوفر صدور العرب اليمنية وشعوب البلاد المفتوحة ، وهو

627- السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير (العهد الإسلامي)، دار النهضة العربية ، 1981م ، ج4 ، ص 205 – 207.

حاول أن يصلح ما فسد وإنقاذ ما يمكن إنقاذه إلا أنه لم يصل إلى مثالية عمر بن عبد العزيز.[628]

ولربما كان من أسباب تغييره لسياسته هو ما كان يواجهه من سوء تصرفاته ولأنه من الأمصار ، أما بلاد الشام فلعل أحوالها كانت مستقرة في أي ولاية أخرى ، يمكن القول أنه في عهد هشام نزلت بطون كثيرة من مختلف أنحاء الجزيرة العربية ، في فلسطين وسورية وبر الشام واستقرت فيها ، في ظل الخلافة ويحتمل أن يكون استقرارها في منطقة الشام العربية، وحدها بل من أماكن متفرقة من أنحاء الولايات وأن كنا لا نستبعد السبب الرئيسي لتنقل أعراب من جزيرة العرب وهو البحث عن الماء والكلأ.

628- عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية ، ج2 ، ص 280 – 281 .

الخــاتــمة

النتائج – التوصيات – قائمة المصادر والمراجع

الخاتمة

بدراسة الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي ، وبعد ألقاء الضوء على أهم المؤثرات الاقتصادية التي سادت مجتمع الشام في العصر البيزنطي .

والتي كانت لها الآثر الواضح في قرار أهل الشام من ذلك التغيير الذي واجهوه نتيجة لتلك السياسة التي اتبعها حكام الشام، فقد كان السياسة الاضطهاد التي اتبعها حكام بيزنطة تجاه الولايات الشرقية وأهمها بلاد الشام، فقد كان سياسية الاضطهاد التي اتبعتها الحكومة البيزنطية في جمع الضرائب .

وقد وجد أهالي بلاد الشام الخلاص على يد الفاتحين العرب المسلمين،اذا استبقوا معظم أراضيهم يقومون بزراعتها في امن وطمأنينة ، بمقتضى عهود الصلح التي عقدوها مع العرب باعتبارها فتحت صلحاَ.

وكانت بلاد الشام من أقدم العصور مهداَ للديانات السماوية ومعبراً لأهم طرق التجارة بين الشرق والغرب، ونقلت التجارات عبرها إلى كل مكان .

لذا فحينما فتح المسلمون العرب أرضاً تنبهوا لأهميتها وخبرة أهلها العريقة في مجالات الصناعة والزراعة ، وأصدر الخطاب قراره بعد فتح أرض السواد في العراق بأن تبقى هذه الأراضي المفتوحة وفي يد أصحابها يزرعونها.

ان يبقى في الدولة الإسلامية مورد ثابت للمسلمين في جميع الولايات الإسلامية إضافة إلى ما كانت تغدقه غنائم الفتوحات الإسلامية المستمرة آنذاك.

وكانت بلاد الشام بعد الفتح مباشرة قد وليها معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية القرشي الأموي، في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان أبوه على رأس

تجار قريش الذين جابوا شمال الجزيرة العربية وجيوشها وعرفوا طبيعة بلاد الشام وأهميتها التجارية ، لذلك اهتم معاوية منذ البداية بغرس محبته في قلوب أهلها.

ووطن بها أهل بيته ، وحينما تولى الخلافة نقل عاصمة الدول الأموية من المدينة إلى دمشق ، وبذلك أصبح لبلاد الشام المكانة العظمى في بلاد العالم الإسلامي.

وقد وضع معاوية سياسة قوية لدولة استطاع بها ضمان السيطرة على عمال الولايات في إرسال فائض الأموال إلى ضريبة الدولة، كان بيت المال المركزي في دمشق ، كما جعل لجند الشام مكانة خاصة في زيادة العطاء فضلاً عن ذلك فقد زال الظلم الذي كان يعاني منه أهل الشام في حماية الخراج على يد البيزنطيين فاستقرت أحوالهم وانصرفوا إلى أعمالهم وزراعاتهم آمنين في ظل ما تحقق لهم من عدل وأمان.

وكان لذلك أثره الكبير على تحسين الحياة الاقتصادية بل على ازدهارها في بلاد الشام. وقد اهتم خلفاء الدولة الأموية بتنمية موارد الدولة ، كما اهتم الخلفاء بالعناية بطرق الري وإصلاح الأراضي فتوفرت بذلك الخامات الزراعية الهامة، التي ساعدت على تصنيع هذه الخامات، وبالتالي توفرت مواد التصدير من بلاد الشام ، وحصلت بذلك على مورد أخر وهو مورد التجارة التي لم تنقطع نشاطاتها البرية والبحرية عبر الطرق التجارية القديمة منها والمستحدثة خلال الحكم الأموي بحكم ازدهار بعض المدن واضمحلال بعضها فتخض بذلك ازدهار الحياة الاقتصادية في بلاد الشام.

وبالإضافة إلى هذه السياسة الحكيمة التي سار عليها خلفاء بني أمية في العمل على ازدهار الحياة الاقتصادية في بلاد الشام خاصة وفي سائر الولايات الإسلامية عامة.

فقد كان من بينهم من قام بأوجه كثيرة من وجوه الإصلاح لمواجهة الأزمات التي كانت تهدد اقتصاد الدولة ، فقد كان لعبد الملك بن مروان دوره الفعال في تنفيذ برنامج إصلاح إداري ، ومالي قوي يدعم أركان هذه الدولة، فأتت خطوته الأولى بأن نقل دواوين الدولة

من اللغات التي كانت تعتمد عليها، وهي الرومية والفارسية إلى اللغة العربية ، وبذلك خضعت الخطوة الثانية والهامة في تاريخ الدولة الأموية وهي تحرير الدولة من السيطرة المالية البيزنطية، وذلك قام بإصدار الدنانير العربية الإسلامية الخالصة.

بعد أن كانت الدولة تتعامل بالعملات البيزنطية والفارسية التي داخلها كثير من الغش والتزييف فصحح الأوزان ، وخضعت العملة لمراقبة الدولة.

على أن الدولة الأموية قد واجهت في أواخر حياتها بعض الأمور الهامة التي كانت في غاية الخطورة على مجريات الأحداث في عهدها وهذه الأمور هي التي كانت تتمثل في سوء معاملة أهل الذمة والموالي .

أما عن أهل الذمة فإنهم بعد أن عانوا حياة مستقرة بعد الفتح الإسلامي إلا أنهم قد لاقوا فيما بعد خلال عهد الوليد وسليمان بعض الولاة في الأمصار الإسلامية تسقط منهم جباية الجزية، بل وإجبار لحديثي العهد منهم بالإسلام على ودفع الجزية، وإذا كانت هذه المعاناة قد ظهرت بين أهل الذمة في بعض الأمصار الإسلامية كالعراق ومصر والمغرب إلا أننا لا نجد لها أثر بين أهل الذمة في بلاد الشام . وأما الموالي الذين ساوى الإسلام بينهم وبين سائر المسلمين ، فقد شعروا بالتفرقة في المعاملة التي وجدت من بعض خلفاء الدولة الأموية وولاتهم الذين جعلوا الصدارة في المعاملة والعطاء ومراكز الدولة للعرب.

أما العصبية القبلية ، فهي التي أخذت مركز الصدارة في هذه الأحداث التي عجلت بسقوط الدولة الأموية ، فقد اتسمت سياسة معظم خلفاء بني أمية في أواخر عهدها بالتعصب القبلي للقيسية أو اليمنية بحكم القربى أو المصاهرة وكان لهذه السياسة القبلية آثارها الشديدة على ازدياد روح العصبية القبلية في بلاد الشام، وفي معظم الأمصار الإسلامية الأمر الذي عجل بنهايتها.

وقد حاول عمر بن عبد العزيز تصحيح أوضاع أهل الذمة وأنصاف الموالي ، كما قام بإصلاحات عالية واسعة في حيازة الأراضي الزراعية ، وفي جباية الخراج إلا أن هذه الإصلاحات لم يكتب لها الاستمرار والنجاح بسبب قصر مدة خلافته ، فقد توقفت حركة الإصلاح هذه نتيجة لعدول يزيد بن عبد الملك عنها، ولعدم نجاح هشام بن عبد الملك وولاته في الأمصار في التصدي لسوء الأحوال المالية في الدولة كما استمرت الصراعات القبلية التي اشتدت في الولايات ولم يستطع هشام بن عبد الملك الوقوف في وجه ذلك التيار القبلي بصراعاته العنيفة، وكان ذلك عاملاً كبيراً في تصدع الدولة الأموية في الوقت الذي قامت فية الدولة العباسية، والتي نجحت أخر الأمر في القضاء على الخلافة الأموية وإقامة الخلافة العباسية.

أولاَ: النتائج :

1. أكدت لنا الدارس بأن هنالك بعض العوامل التي كان لها أثر كبير في الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي .
2. موقع بلاد الشام وتعدد مناخها كان له أثر كبير في نجاح المحاصيل الزراعية .
3. وأيضاَ موقع بلاد الشام الجغرافي لعب دوراً كبيراً في حركة التجارة الخارجية مما أدى إلى زيادة دخل الدولة الاقتصادي .
4. يعتبر نظم الرأي في أسسه الإدارية الركيزة الأساسية للبناء الإداري والمالي وموارد دخلها على الضرائب، ولعب تعريب العملة دوراً هاماً في حركة التجارة في الأسواق وضبطها من الغش والخداع وعدم التلاعب بالعملة.
5. الركيزة الاقتصادية : هي التي تجعل بلاد الشام مصدراً من مصادر الثروة والثراء في الإمبراطورية البيزنطية وذلك بسبب موقعها الجغرافي وخصوبة أرضها والطرق التجارية الكبرى التي تمر بها في اتجاهها إلى أسواق البحر المتوسط.

6. الركيزة الدينية هي التي منحت الإمبراطورية البيزنطية مركز الزعامة على العالم المسيحي في أوربا باعتبارها المسؤولة عن حماية الأماكن المسيحية المقدسة.
7. الركيزة الحربية تمثل الدور الذي قامت به بلاد الشام باعتبارها منطقة تخوم تحمي الإمبراطورية البيزنطية من عدوان دولة الفرس الساسانيين وصد أطماعهم في الوصول إلى البحر المتوسط.
8. تجار الفرس أشعلوا توتر العلاقات بين بيزنطة وإيران فرفعوا أسعار الحرير الخام ، مما أدى إلى ارتفاع أسعار الأقمشة الحريرية المصنعة في المدن البيزنطية.

ثانياَ : التوصيات :

بما أن المجال دراسة الحياة الاقتصادية من الجوانب المهمة جداَ في تاريخ الدولة الأموية يوصى الباحث بال أتي :

1. إجراء مزيد من الدراسات المستقبلية التي تكشف لنا الجوانب التي ما زالت مغمورة .
2. يوصى الباحث أيضاً بأجراء مسح ميداني وحصر البحوث والرسائل الجامعية التي أنجزت في المجال بهدف تقويمها واستنباط موضوعات الدراسات المستقبلية .
3. القيام بمسح ميداني للبحوث والرسائل الجامعية حول موضوع الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي ، وإيجاد مواضيع بحثية لم يتطرق لها الباحثون، والعمل على التوسع في البحث للوصول الى النتائج .
4. يوصي الباحث أيضاً الاهتمام والاستفادة من الجوانب الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي في بناء الحاضر .
5. وأخيراً أوصت الدراسة بالتركيز على البحوث في الجوانب الاقتصادية في العصر الأموي في مختلف المراحل حيث أنها تمثل المرآة التي تعكس اقتصاد بلاد الشام في العصر الأموي في مراحله المختلفة مع مقترح دار قومية للوثائق والمخطوطات لحفظ اقتصاد بلاد الشام في العصر الأموي وفقاً لأحدث الطرق والوسائل التكنولوجية في عالم العلوم والمعرفة ليكن سنداً لطلاب العلم والمعرفة ونظرائهم من الباحثين والمهتمين على المستويين الإقليمي والعالمي.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

1. **القرآن الكريم .**
2. ابن الأثير (ت : 630 هـ) الكامل في التاريخ ، تحقيق محمد يوسف الدقاق ، ط1، دار بيروت للطباعة والنشر، دار صادر ، بيروت ، 1385 هـ ، 1965 ،ج5 .
3. ابن حجر العسقلاني ، الأمام الحافظ بن حجر العسقلاني ، ترجمة محمد ف ؤاد عبد الباقي ، محب الدين الخطيب ، فتح الباري لشرح صحيح البخاري ، 852، مؤسسة مناهل العرفان – بيروت ، ج5 .
4. ابن عساكر ، ابن القاسم على الحسن ، ابن القاسم علي ابن الحسن (ت: 571– 1176 م ، تاريخ مدينة دمشق ، ترجمة محب الدين سعد عمرو غرامة ، العمرى ، ج1 ، د – ط ، دار الفكر ، بيروت ، 1995 م .
5. ابن كثير ، (ت: 774 هـ) البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ، بيروت ،ج7 ، 1405 هـ / 1985 م.
6. أبو يوسف إبراهيم ، ت 182 798، الخراج، دار النشر المعرفة ، بيروت، 1978م .
7. الإدريسي ، محمد بن محمد بن عبيد الله بن الشريف، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج1 .
8. البلازري ، (ت 379هـ) فتوح البلدان، مراجعة وتعليق محم رضوان ، دار الكتب بيروت 1298هـ – 1978م .
9. بن خلكان شمس الدين محمد بن (ت 681 هـ – 21م) ، وفيات الأعيان وأنباء الزمان . ترجمة إحسان ، د. ط ، دار بيروت ، 1977م .
10. الجاحظ ، البيان والتبيين ، ترجمة عبد السلام هارون ، ط2 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة 1998 .

11. الجاحظ ، عمر بن بحر ، (ت 255هـ – 854م) تاريخ خليفة بن خياط ، ترجمة أكرم ضياء الدين العمري ، ط2 ، دار طيبة ، الرياض ، 1985م.
12. الحميري ، الروض المعطار ، تحقيق إحسان عباس ، مكتبة لبنان . ط2 . 1984.
13. الطبري : ت: 310 هـ ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابو الفضل ، دار النشر المعارف –مصر ، ط2 ،ج7 ، 1961 م .
14. الماوردي ، ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب ، الاحكام السلطانية والولايات الدينية ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأو لاده ، القاهرة ، 1960م .
15. المسعودي ، علي ابن الحسيني بن علي ، ت – 460 هـ– 1995 ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، 1384 هـ، ج3 .
16. ياقوت الحموي ، د ت 626 هـ ، معجم البلدان ، ج4 طبعة دار صادر بيروت ، 399هـ – 1979م .
17. اليعقوبي (ت – 2920 هـ)، تاريخ اليعقوبي ، دار صادر – بيروت ، 1395 هـ ، 1970 ، ج3 .
18. ابن قيم الجوزية ، زاد المعارف في هدي خير العباد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط13، 1406هـ – 1986م، ج4.
19. ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد (ت 328هـ – 940م) العقد الفريد ، ترجمة عبد المجيد الترحيني ، ج4 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1983م .
20. أبو حنيفة الدنيوري، الأخبار الطوال، ترجمة عبدالمنعم عامر، دار المسرة ، بيروت ، د ت.
21. البدري ، (القرن التاسع الهجري)، نزهة الأنام في محاسن الشام، دار الرائد العربي، بيروت، ط1، 1400هـ – 1980م .

ثانياً: المراجع :

1. إبراهيم العدوي ، الأمويون والبيزنطيون ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط2 ، 382 هـ – 1962 .
2. إبراهيم حركات ، السياسة والمجتمع في الفصر الأموي ، مطبعة فضالة المحمدية ، المغرب ط1، 1410هـ – 1990.
3. أبو زيد شلبي ، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ، مكتبة وهبة للنشر ، ط11، 1425هـ ، 2004م .
4. أبو يوسف بن إبراهيم ، ت 182 – 798م ، الخراج ، دار النشر المعرفة ، بيروت ، 1979م .
5. أحمد شلبي ، التاريخ الإسلامي ، مكتبة النهضة المصرية ، ط9، 1996م ، ص 62.
6. أحمد عبد الرحيم السايح ، أضواءعلى الحضارة الإسلامية ، مركز الكتاب للنشر ، ط1 ، 2001م ، 1422 هـ .
7. أحمد مختار العبادي ، الحياة الاقتصادية في الدولة الإسلامية ، مطبوعات ذات السلاسل، الكويت 1405هـ – 1985م .
8. برهان الدين دلو مساهمة في إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي ، دار الفارابي للنشر ، بيروت ، 1985م .
9. توفيق اليوزبيكي ، تاريخ أهل الذمة في العراق ، مطبعة دار العلوم ، الرياض، 1983م .
10. ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية، تهامة للنشر ، جدة ، 1409هـ – 1989م.
11. ثريا حافظ عرفة، الخراسانيون ودورهم السياسي في العصر العباسي الأول ، تهامة للنشر ، جدة . 1420هـ – 1982م .

12. حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، ط3، 1982م ، ج1.
13. حسين عطوان الجغرافية التاريخية لبلاد الشام والعصر الأموي ، دار الجيل بيروت، 1987م .
14. حسين علي المسيري ، أساسيات الحضارة العربية والإسلامية مكتبة الفلاح للنشر ، ط1 ، 1420هـ – 2000م .
15. حمدي شاهين ، الدولة الأموية المفترى عليها ، دراسة الشبهات ورد المقترحات ، دار القاهرة للنشر ، ط2 ، 2005م .
16. خليل الزركاني ، تاريخ النقود العربية الإسلامية المحاضرة الثامنة ، النت .
17. دونالدو هيل ، ترجمة صالح خالد، التقنية في الحضارة الإسلامية ، مكتبة الفلاح للنشر ، د ت .
18. ديماند ، الفنون الإسلامية ، ترجمة أحمد عيسى ، دار المعارف ، الرباط، ط1 ، 1982م .
19. رشيد عبد الله الجحيلي ، تاريخ الدولة العربية الإسلامية ، مكتبة المعارف ، الرباط، ط1، 1985م .
20. زكي محمد حسن ، فنون الإسلام ، دار الفكر العربي ، دار الكتاب الجديد ، الكويت ، 1394هـ – 1974م .
21. سعيد أبو الفتوح محمد بسيوني ، الحرية الاقتصادية في الإسلام وأثرها في التنمية دار الوفاء للنشر ط1 ، 1408هـ 1988م.
22. سعيد عبد الفتاح عاشور وآخرون ، دراسات في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، الكويت ، 1985م .
23. السيد عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب، مؤسسة شباب الجامعة، 2008م.

24. شحاتة الناطور وآخرون، مدخل إلى تاريخ الحضارة العربية والإسلامية دار الأمل ، أربد ط1، 1989م .
25. شوقي أبو خليل الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارة السابقة ، دار الفكر العربي بدمشق ، ط1 ، 1415هـ – 1994م .
26. شوقي أبو خليل، الحضارة العربية الإسلامية ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، ط1 ، 1397هـ – 1987م.
27. صالح درادكة وآخرون ، تاريخ صدر الإسلام ، الشركة العربية المتحدة للنشر والتوزيع ، القاهرة 1976م.
28. صلاح طهبوب، العصر الأموي ، دار أسامة للنشر ، الأردن ، عمان . ط1 ، 2006م .
29. ضرار صالح ، العرب من معين إلى الأمويين ، الدار السودانية للكتب ، الخرطوم ، ط5 ، 1981م .
30. عاطف رحال ، تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي ، دار بيسان النشر والتوزيع . بيروت ، 2000م.
31. عبد الرحمن حميدة ، جغرافية الوطن العربي، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، 1990م.
32. عبد العزيز الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي ، دار المشرق ، بيروت ، 1974م.
33. عبد الله محمد الأمين النعيم، الحضارة الإسلامية ، (المفهوم – العوامل – الأسس – النظم) ط1 ، 2007م ، معهد إسلام المعرفة .
34. عبد المجيد محمد صالح الكبيسي عصر هشام بن عبد الملك ، مطبعة سلمان الأعظمى ، بغداد 1975م .

35. عدي سالم عبد الله حمد الجبوري، دراسات في تاريخ صدر الإسلام ، دار الحامد للنشر والتوزيع ، ط1 ، 2014م .
36. عصام الدين عبد الرؤوف ، الحواضر الإسلامية الكبرى ، دار الفكر العربي ، ط1 ، 1976م.
37. عصام الدين هاشم الحضري ، التطور الاقتصادي في العصر الأموي، (د ، ت) (د ، ط).
38. عطية القوصي مذكرات في الحضارة العربية الإسلامية، جامعة القاهرة ، فرع الخرطوم ، 1981م – 1982م .
39. علي حسين الشطشاط ، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية . دار قباء للنشر ، القاهرة ، ط1 ، د ت .
40. علي محمد الصلابي ، أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ، شخصية وعصره ، دار الأندلس للنشر . ط1 ، 1429م هـ 2008م .
41. عمر فروخ ، تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية ، دار العلم للملايين ، ط1 ، 1970م .
42. عواد مجيد الدعيطي ، الزراعة والإصلاح الزراعي في صدر الإسلام ، 9 – 132 هـ .
43. فالح حسين ، الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي ، عمان (د ط) 1978م .
44. فتحية النبراوي ، تاريخ النظم والحضارة الإسلامية ، دار الفكر الإسلامي ، مكتبة نهضة الشرق القاهرة ، 1429هـ – 2008م .
45. فيليب حتى ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، دار الثقافة بيروت ج1، 1982م .
46. القاضي عبد الجبار الخولان ، تاريخ ذاريا . دار الفكر العربي . دمشق . 1404هـ – 1984م .

47. كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه ، أمين فارس البعلبكي ، دار الملايين ، بيروت ط7، 1977م .
48. محسن خليل ، الفكر الاقتصادي العربي ، دار الرشيد . العراق، 1982م .
49. محمد أحمد صالح ، النظام المالي والاقتصادي في الإسلام ، مكتبة نهضة الشرق ، جامعة القاهرة ، 1984م .
50. محمد أمين صالح ، النظام العالمي والاقتصادي في الإسلام ، مكتبة نهضة الشرق القاهرة ، 1984م .
51. محمد حسن ، المدينة المنورة في العصر الأموي ، مكتبة التراث ، ط1، بيروت ، ط1، 1404هـ – 1984.
52. محمد سعودي ، الوطن العربي ، دراسة للملامحة الجغرافية ، دار النهضة العربية بيروت ، 1967م .
53. محمد ضياء الدين الريس ، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ، دار الأنصار القاهرة ، ط4 . 1977م .
54. محمد عادل عبد العزيز ، الحضارة الإسلامية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار . دار عرين للنشر ، 2000م .
55. محمد عبد القادر الخطب ، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية ، مطبعة الحسن الإسلامية للنشر ، ط1 ، 1411هـ 1991م. .
56. محمد علي مختار ، دراسات في تاريخ العرب ، دار النهضة العربية للنشر، القاهرة ، 1976م .
57. محمد علي نصر الله ، تطور نظام ملكية الأراضي في الإسلام ، دار الحداثة بيروت ، 1982م .
58. نايف القهوس ، مسكوكات الأمويين في بلاد الشام البنك العربي ، للنشر ، ط1 ، 1996م .

59. نبيل موسى الجبالي ، الحضارة ، أهدافها ، مظاهرها، انتشارها، مكتبة المجمع العربي للنشر ، ط1 ، 2012م – 1433م .
60. نقولا زيادة ، التطور الإداري لبلاد الشام ، بين بيزنطية والعرب، عمان للنشر ، 1404هـ ، 1983م .
61. نور سعد محسن ، البحرية الإسلامية ودورها في محاولات فتح القسطنطينية خلال الفترة العصر الأموي ، 41 – 132 هـ – 66 – 750 م .
62. واضح عبد الصمد ، الحضارة العربية، المؤسسة الحديثة ، طرابلس ، لبنان ، (د.ت).
63. يسري عبد الرازق الجوهري ، دراسات في جغرافية الموارد الاقتصادية ، دار المعارف للنشر ، ج3 ، 1973م .
64. يوسف العش ،الدولة الإسلامية الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءا من فتنة عثمان ، دار الفكر ، دمشق ط1 ، 1965م .
65. جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، د ت .
66. لطفي عبد الوهاب يحيى، بعض المصادر البيزنطية للتاريخ سورية في العصر البيزنطي، الجامعة الأردنية، عمان، 1404هـ – 1983م.
67. أحمد شلبي ، السياسة والاقتصاد في التفكير الإسلامي ، موسوعة النظم والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، ط3 ، 1974م .
68. صبحي الصالح ، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها ، دار العلم للملايين ، بيروت ط5، 1980م.
69. نعيم فرح ، أضواء على الصناعة والتجارة في مدن بلاد الشام ودورها في التجارة العالمية في العصر البيزنطي ، الجامعة الأردنية ، عمان 1404هـ 1983م .
70. عمر كمال توفيق ، الروم وصلاتهم بالعرب ، دار المكشوف ، ج1 ، د ت .

71. موسى عبد الغفار أحمد، الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، في فلسطين في العصر الأموي، 1399هـ – 1977م.
72. أنور الرفاعي، تاريخ الحضارة ، الإسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ط4، 1978م .
73. عفيف البهنسي ، الفن الإسلامي في بداية تكونه، دار الفكر ، دمشق ، ط1، 1403هـ– 1983م .
74. مصطفى مراد الدباغ، الموجز في تاريخ الدولة العربية في بلاد فلسطين ، بيروت، ط1، 1400هـ – 1980م .
75. محمد عمارة ، عمر بن عبد العزيز ، خامس الخلفاء الراشدين ، المؤسسة العربية للنشر ، بيروت ، ط2، 1979م .
76. ماجدة فيصل زكريا ، عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم ، مكة المكرمة للنشر ، ط1 ، 1407هـ – 1987م.
77. عماد الدين خليل، ملامح الانقلاب الإسلامي ، في خلافة عمر بن عبد العزيز ، الدار العلمية للطباعة ، بيروت ، ط2 ، 1391هـ – 1971م.
78. عبد المنعم ماجد، مختصر التاريخ السياسي للدولة مطبعة الأنحلو المصرية ، القاهرة ، 1976م.
79. سيد أمير علي ، مختصر تاريخ العرب ، ترجمة عفيف البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت، ط4 ، 1981م .
80. شحاتة الناظور ، تجديد الدولة الأموية في عهد عبد الملك ، ط1 ، دار الكندي للتوزيع ، أربد، 1996م .

الرسائل العلمية:

1. تركي حسون نصيف الخفاجي ، عصر عبد الملك بن مروان ، دراسة في نظام الحكم والإدارة ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة النيلين ، 1997م،.
2. حسن صالح الزين ، النظم الإدارية والاقتصادية (المالية) للدولة الأموية منذ قيامها وحتى سقوط الدولة الأموية، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة النيلين ، 2009م .
3. صالح علي حسين الهزمي ، الحياة الاقتصادية في اليمن في عهد الدولة الرسولية (626 – 858هـ) (1228 – 1454م) 2015م .
4. سمية عبد الماجد بشير ، مظاهر الحياة الاجتماعية والعلمية في أبان الدولة الأموية ،(41هـ – 132 هـ) (661 – 752م)، جامعة أم درمان الإسلامية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، 2010م .
5. عبد الحكيم حسين إبراهيم ، الأوضاع الإدارية والسياسية والاقتصادية في المدينة المنورة في العصر الأموي ، جامعة النيلين ، رسالة دكتوراه ، غير منشورة ، 1447هـ – 2006م .
6. عبد المنعم صالح نافع ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في الشرق الإسلامي في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك ، رسالة ماجستير غير منشورة جامعة النيلين ، 1992م .
7. عفاف عبد الرحمن ، عمرو بن العاص ودوره السياسي في الدولة الإسلامية (8هـ – 629م) (43هـ – 664م) رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة النيلين ، 1990م .
8. فاتح دحماني ، السياسة الزراعية في العصر الأموي (4 –132هـ) (661 – 749م)، رسالة ماجستير غير منشورة الجامعة الأردنية ، 2016م– 2017م ، النت .
9. محمد نقد حسين نقد، البحرية الإسلامية ودورها في نشر الإسلام خلال الفترة الزمنية القرن الأول إلي القرن الرابع ، جامعة النيلين ، 1992م .

10. محمود سلمان ، نقود الدولة الزبيرية (خلافة عبد الله بن الزبير) في العصر الأموي 64 – 73 هـ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة النيلين – 1483 هـ – 2017م ،.

الملاحق

ملحق رقم (1)

خريطة توضح بلاد الشام



المصدر

https://www.google.com/search?safe=active&biw=984&bih=621&tbm= خريطة+بلاد+الشام=&oq

ملحق رقم (2)

النقود في عهد عبد الملك بن مروان



المصدر : https://www.google.com/ =صورة+للنقود+في+عهد+عبد+الملك